مارتين السعيد

رواية

@ketab_n
15.6.2015

تأليف وترجمة

جان دوست

جان دوست

مارتين السعيد

رواية

ترجمة: جان دوست

مراجعة : مروان علي

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة»
بيانات الفهرسة أثناء النشر

PK6908.9.D67 M3712 2015
Dost, Jan, 1965
[Martînê Bextewer]
مارتين السعيد : رواية / تأليف وترجمة جان دوست ؛ مراجعة مروان علي. - ط. 1. - أبو ظبي : هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2015.
307 ص. ؛ 13,25 × 19,5 سم.
ترجمة كتاب : Martînê Bextewer
تدمك : 978-9948-17-479-0
1- القصص الكردية- القرن 21. أ- علي، مروان. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الكردي:
Jan Dost
Martînê Bextewer
Copyright© 2015 by Jan Dost

الصورة للكاتب الألماني يواخيم فينكلمان رسمها الفنان أنطون فون مارون سنة 1768

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة - مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من من دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

مارتين السعيد

Twitter: @ketab_n

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونْ﴾

القرآن الكريم

الصقر يطير وحيداً والغربان في أسراب

سبينوزا

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فترة الصباح

الساعة التاسعة

قُرع جرس كنيسة بلدة كارلوفيتز الصربية تسع مرات، فطارت إحدى عشرة حمامة بيضاء، كانت جاثمة على برج الكنيسة العالي وصارت تحوم في تلك الأجواء[1].

(1) كان قارع الجرس بوريسلاف ذو العشرين عاماً قصيراً ممتلئ الجسم مدور الوجه بشاربين كثين. وقد أغرم منذ صغره بقرع الأجراس فكان يصعد برج الكنيسة في كارلوفيتز مع الخوري العجوز ويتفرج عليه. وكان يسحب معه أحياناً الحبل ويساعده في القرع وسط سعادة غامرة. كان والد بوريسلاف يرى في النجارة مهنة أنسب له ولمستقبله، لذلك فقد أخذه إلى نجار البلدة برانكو مورافاتش حيث تعلم هناك صناعة الأواني الخشبية وألعاب الأطفال والطاولات والكراسي والمهود والصناديق والطرابيزات والمغارف وملاعق الحساء أيضاً. كان يستعمل المثاقب والأزاميل بمهارة فيصبح خشب الجوز والبلوط في يده كالعجين ويصنع منها ما يشاء. وكان حين يسمع قرع الأجراس يضع كل الآلات من يده ثم يغمض عينيه ويصغي للرنين. حين مات أبوه كان عمره خمسة عشر عاماً فجاءت به أمه الورعة إلى الكنيسة وسلمته إلى القس لتحقق حلم ولدها. لقد أصبح قارع جرس هناك. لكنه كان بين الحين والآخر يمارس نجارة الخشب والجسد أيضاً.

Twitter: @ketab_n

بقيت تلك الحمامات البيضاء برهة طويلة جائمة في السماء الصافية الباردة، ثم حطت أخيراً على طرف منزل عند ضفة نهر الدانوب، وبدأت تهدل من دون أن تدري أن ممثلي أربع دول أوروبية يجتمعون، حيث حطَّت، مع ممثل الدولة العثمانية ليوقعوا معاهدة سلام تنهي حروب عقد من الزمن.

كان ذلك بداية عام 1699. يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر رجب الموافق للسادس والعشرين من شهر كانون الثاني يناير. في الساعة التاسعة من صباح يوم بارد، اجتمع أحد عشر شخصاً، ثلاثة منهم عثمانيون، في بهو خالٍ من الأثاث، يبدو من خلال نافذته نهر الدانوب وإحدى عشرة حمامة تحوم في الفضاء الرحب هناك. كان قد مضى عليهم سبعون يوماً وهم يتباحثون بنود المعاهدة وشروطها، يتفقون حيناً ويختلفون حيناً آخر. وحين انقضى سبعون يوماً بالتمام والكمال جاء ذلك الصباح البارد من يوم الاثنين الذي سيغير فيه التاريخ مجراه، حيث قرر الأحد عشر رجلاً أقدار الشعوب كأنهم يفصلون قطعة حرير بمقص مصالح الأباطرة والسلاطين.

مثَّل رامي محمد باشا الملقبُ برئيس الكُتَّاب السلطانَ مصطفى في تلك المفاوضات، وقد قال لمرافقه كبير المترجمين العثمانيين الشهير ألكسندر مافروكودورتوس إنه لا يريد الجلوس مثل الأوروبيين على كرسي عادي، حيث تصل رجلاه إلى الأرض، بل رأى أن من حق مقام السلطنة ومن حقه كممثل لذلك المقام أن يرتفع جسمه كله عن

Twitter: @ketab_n

الأرض. لذلك فقد بادر المضيفون إلى صنع أريكة خاصة له عند نجار البلدة برانكو مورافاتش ووضعوها في ذلك الصالون البارد الخالي من الأثاث وغطوها بقماش من المخمل الأحمر.

اتخذ كل واحد مجلسه: ممثل أرشيدوقية النمسا العجوز المريض كينسكي، ممثل جمهورية البندقية كارلو روسي، ممثل مملكة بولونيا مالاخوفسكي، وممثل إمبراطورية روسيا فوسنيتسين تحلقوا حول طاولة مغطاة بقماش من الحرير الأزرق.

كانت أمامهم أوراقٌ ومحابرُ وأرياشُ كتابةٍ وقدر عشرات الدول وآلاف آلاف الناس، لكنهم عجزوا عن بدء الحديث. هزَّت نسمة باردة متسربة من النافذة المواربة ريشةَ طاوس على قبعة الكونت العجوز كينسكي، فسحب من أمامه محبرةً وغمس فيها القلم مرة أو مرتين ثم كتب شيئاً ما على ورقة وقال: «الحرب نارٌ. نارٌ مستعرة لا تنطفئ بسرعة. إنها تتقد بالدماء، دماء آلاف البشر: جنوداً ونساء وأطفالاً وناساً أبرياء آخرين. لكن في النهاية، ولكي تنطفئ هذه النار فلا بد من الحبر. فببضع رشحات من الحبر، إن كانت ثمة إرادة، يمكن إطفاء حرب طال أمدها. ولقد اجتمعنا هذا اليوم لنحقق هذه الغاية. عندنا الإرادة وعندنا ما يكفي من الحبر أيضاً».

استحسن الجميع حديث الكونت ذي الخمسة والستين عاماً والذي كان يسعل بين جملة وأخرى بسبب علة في رئتيه. فَهِم رئيس الكتاب رامي محمد باشا مضمون الحديث من خلال ترجمانه فاعتدل في جلسته

Twitter: @ketab_n

على الأريكة، وأمال عمامته الكبيرة قليلاً ومسح بقبضة يده اليمنى على لحيته الكثة الطويلة ثم طلب من خادمه الواقف خلفه علبةَ السعوط الفضية، فاستنشقها عدة مرات، ثم أعادها للخادم، وقال بنبرة تليق بممثل إمبراطورية لا تصدق أنها انهزمت في الحرب: «ميادين القتال الكبيرة وتلك الساحات الواسعة التي تتقاطر إليها الجيوش والفيالق ثم تتحارب لا تصلح لتحقيق الأهداف بقدر ما تصلح هذه الصالة الضيقة وهذه الطاولة الحقيرة. إن طاولة عتيقة، مدورة وصغيرة يجتمع حولها أربعة رجال عقلاء تستطيع أن تصبح ميداناً للصلح والسلام والانتصار أكثر من تلك الساحات التي يملأها الماريشالات والصدور العظام على خيولهم ووراء المدافع».

كانت الاتفاقية جاهزة، مكتوبة بنسخ عدة بالألمانية والبولونية والإيطالية والروسية واللغة العثمانية أيضاً. وضع ممثلو الدول إمضاءاتهم وأختامهم أسفل الاتفاقية: من اليسار ممثل روسيا ثم النمسا فالبندقية وبولونيا. تلاهم في ذلك كبير التراجمة العثمانيين المترجم الشهير الكسندر مافروكودورتوس الساقزي فوضع إمضاءه بالأحرف اللاتينية. أخيراً جاء دور الوزير العثماني. راقبه الجميع بصمت. وقبل أن يمضي على الاتفاقية طلب علبة السعوط مرة أخرى فتنشقها ثم أعادها لخادمه. وبحركة بطيئة غمس الريشة في المحبرة ثم رفعها وكتب باللغة العربية بخط النسخ: «أضعف عباد الله محمد رامي رئيس الكتاب».

Twitter: @ketab_n

وفي الساعة التاسعة تماماً وضع خاتمه أسفل الاتفاقية بجانب إمضاء الترجمان.

منذ تلك اللحظة، بدأ ظل العثمانيين ينحسر عن أوروبا. إذ بحسب بنود تلك الاتفاقية خرجت المجر والمورة وآزاق وبلادٌ أخرى أيضاً من يد العثمانيين ووقعت تحت سيطرة النمسا والبندقية وبولونيا وروسيا. فُتِحت الأبواب أمام الرحالة والسياسيين والتجار والمغامرين والمبشرين الأوروبيين ليذهبوا إلى بلاد العثمانيين ويتجولوا فيها. منذ تلك اللحظة أصبحت البلاد العثمانية كقطعة من الزبدة إذ تُلقى في النار، تذوب رويداً رويداً.

* * *

في يوم الاثنين عينه من ذاك الشتاء القارس، وبعد أن تم التوقيع في تلك القاعة على أخطر وأهم معاهدة في ذلك القرن، قدم ضيف أبيض بارد إلى قرية هيرنه[1] شمال نهر الرور وجنوب نهر إمشر بين مدينتي دورتموند وإيسن في ألمانيا. أثقل الثلجُ شجرةَ الكستناء القريبة من الكنيسة وأحنت أغصانَها. تحت تلك الشجرة ودع مارتين سيتزر ذو الخمسة وعشرين عاماً صديقَه الخوريَّ السابق غوستاف آلبوس. لم يكن الاثنان على علم بالمعاهدة التي تم التوقيع عليها في بلدة بعيدة. لم

(1) Herne بلدة ألمانية صغيرة في منطقة الرور من ولاية شمال الراين.

Twitter: @ketab_n

يعلما أن آلية جديدة ستحكم العالم منذ تلك اللحظة. لم يكونا على علم بأن أوروبا أزاحت عن صدرها صخرة ثقيلة ووضعت مكانها ما هو أثقل. لم تكن حرب العرش الإسباني قد بدأت لكن قِدْرها كانت على النار.

ذاك الشتاء، وقبل أن يسلك مارتين دروب السعادة بشهر، ماتت أمه. كانت تزيح الثلج من أمام بيتها لتفتح سبيلاً إلى الدرب المؤدي للطريق الصاعد إلى الكنيسة وسط القرية، لكنها انزلقت فجأة ووقعت على حجر فماتت في الحال. لمحها القس السائر إلى الكنيسة فأسرع إليها لكنها كانت قد أسلمت الروح. ردد مارتين أن تلك الموتة كانت موتة غير متوقعة، لكن القس الذي شهد سقوط أمه رد عليه خلال تشييع الجنازة: «على المرء أن يتوقع الموت في كل لحظة، إما موته أو موت غيره». قال القس أيضاً: «إن الحياة نقطة كبيرة، كبيرة جداً لكنها محاطة بدائرة الموت ولا يمكن لأي كان أن يتجاوز تلك الدائرة».

أثارت حادثة الموت تلك موجة من الأسئلة لدى مارتين وأولها سؤال السعادة.

كان القس يستسهل السعادة قائلاً: «اتبعوا المسيح وستظفرون بالسعادة». لكن مارتين لم يكن يقتنع بهذا الجواب، فلقد نشأ منذ صغره بين الكتب المخطوطة والمطبوعة. بحث في كتب الكنيسة عن أسرار السعادة مثل فأر جذبته رائحة الجبن. رائحة الحبر كانت تسكره، وكان قلبه يخفق طرباً لمجرد لمس الأوراق الصقيلة القادمة من نورنبرغ.

Twitter: @ketab_n

بحث في الأوراق البيضاء عن السعادة التي أصبحت هاجسه الأوحد وهمه الأكبر. أراد أن يفهم سرها فانكب على الكتب من دون أن يظفر بتعريف للسعادة يطمئن إليه قلبه. أراد والده أن يوجهه إلى الموسيقى فضمه إلى دروسها في الكنيسة إلى أن تعلم عزف الكمان. ثم صار هو يعلم الموسيقى وأصبح له دور في الكورال الكنسي. غنى الأناشيد الدينية أيام الأعياد وصباح الآحاد وفي الليالي المقدسة. لكنه وبعد أن توفي أبوه بدأ نسخ المخطوطات في البيت، وتاجر بالكتب وصار يسافر إلى دورتموند وكولن ومونستر ويقوم بتأمين معيشته ومعيشة أمه من دون أن يكسب من وراء ذلك مالاً وفيراً.

لقد كانت معرفة السعادة أهم عنده من أمور المعيشة. ما هي السعادة؟ وكيف يحصل المرء عليها؟ أين هي ومن يهبها؟ لماذا جاء المسيح ولم يستطع أن يجلب السعادة؟ ولماذا يعذب الله عباده على أمل أن يسعدهم بعد الموت؟ ما هو السبيل إلى السعادة النفسية؟

كثرت أسئلته حول هذا الموضوع فبحث عن أجوبتها في بطون الكتب من دون أن يعثر عليها. وحين ماتت أمه فجأة وتعرف على هانس هايلبرغ صاحب فندق وحانة هايلبرغ، انقلبت حياة مارتين سيتزر رأساً على عقب.

* * *

Twitter: @ketab_n

بعد أن أمضى هانس هايلبرغ خمسة وثلاثين عاماً من عمره عاملاً في متجر نظارات في لاهاي، ثم انصرف بعد ذلك في الأعوام الأخيرة للعمل في مقهى على ساحل بحر الشمال قرب الكنيسة الكبيرة، عاد من جديد إلى هيرنه[1].

وهناك علم أن المقاهي أفضل الأماكن لكسب المال والأصدقاء والاجتماعات المثمرة. فلقد نشأت المقاهي في المدن الكبرى مثل لندن

(1) كان هانس الوحيد لوالديه من عائلة تسكن مدينة على ساحل بحر البلطيق. كان ما يزال في الثانية من العمر حين نزل الجيش السويدي بقيادة الملك غوستاف آدولف إلى البر الألماني. كان الهدف الظاهري للملك السويدي وجيشه هو نجدة البروتستانت فانحدروا كالقضاء المبرم فتلاطم الكاثوليك واللوثريون في حرب طاحنة. قُتل والده اللوثري فلم تجد أمه بداً من الهرب به وبأخواته الثلاث صوب الجنوب. كانت الحرب قد صارت دنيوية فاجتمعت الدول وصارت تقضم أراضي بلاد هانس. لم تعد هناك حرمة لأي شيء. وبحلول عام 1643 وعندما بلغ من العمر اثني عشر عاماً سكن قرية شمال نهر الراين مع أمه وأخواته الجميلات هيرتا وهيرمينه وهيدفيك. صيف ذلك العام تصارعت جيوش أربع دول. وفي الحروب يُصاب الجنود بما يشبه مساً من الجنون. يصبحون مسعورين حالما يشاهدون الدم المسفوح من جراح رفاقهم أو أعدائهم. ينسلخون عن إنسانيتهم. وهكذا فقد تحول الجنود الفرنسيون والإسبان وجنود الإمارات العديدة إلى وحوش كاسرة. قتلت أمه أمام عينيه واغتصب الجنود أخواته الثلاث. حرمته صرخات أخته الصغيرة التي اغتصبها الجنود الإسبان من النوم في كثير من الليالي. كان يرى كل الصور في تلك الدماء إلا صورة المسيح. تراءت له الأيقونات بملامح الذئاب وتخيل أنها تقطر دماً. اضطر أن يرحل مع أخواته المغتصبات إلى أمستردام ووضعهن هناك كخادمات في كنيسة والس. أما هو فقد اتجه إلى لاهاي ليعمل في متجر للنظارات يصقل زجاجها. كان هناك فيلسوف صقل بصيرة هانس فتخلى عن معتقداته السابقة ونفض نفسه منها كما ينفض المرء نفسه من مياه متسخة.

Twitter: @ketab_n

ولاهاي وباريس وصارت من الكثرة بحيث نمت كالفطر حتى ارتادها الناس من عامة الشعب أيضاً ولم تعد حكراً على الطبقات المخملية. صار الناس يجتمعون في المقاهي ويتجاذبون أطراف الحديث ويحتسون القهوة. أصبحت أوروبا مقهى كبيراً. لذلك أراد هانس أن يضيف إلى هيرنه شيئاً حديثاً يليق بالعصر فافتتح فندقاً هناك ودعا القرويين والقسوس ورفاقه القدامى والجنود جميعاً إلى حفل الافتتاح.

كانت تلك المنطقة بحاجة إلى فندق يكون فيه الطابق السفلي حانة ومقهىً والطابق العلوي مكاناً للنوم. فالتجار والطلاب كانوا يأتون من مونستر إلى كولن، ومن هناك إلى أمستردام، وكذلك كان الناس يأتون من كولن ويذهبون إلى مونستر ليذهبوا من هناك إلى إمدن على الساحل الشمالي الغربي. قدَّر هانس أن فندقاً في هيرنه سيستقبل نزلاء كثيرين يقضون ليلة واحدة على الأقل فيه، وسيصبح فندقه مصدر رزق وفير يمكنه من العيش برخاء كما كان في أمستردام.

وفي حفل افتتاح الفندق الذي صادف يوماً بارداً من نهاية عام 1698، لفت أنظار هانس العجوز أن مارتين هو الوحيد الصامت الشارد خلال الحفلة. كان مارتين منزوياً في ركن من الحانة شارداً يحتسي خمرته ببطء. أضفت شيخوخة هانس على ملامحه ووجهه المدور حناناً بالغاً، كان صوته المبحوح من أثر الغليون يجعل المرء يطمئن إليه وإلى حديثه أكثر. وحين انتهى من محادثة هذا وذاك، تقدم صوب مارتين ووضع يده على كتفه قائلاً:

Twitter: @ketab_n

- هيه يا فتى، كيفما تكن الحياة فإنها لا تستحق منك هذا الشرود.
- أنا لا أفكر في الحياة.
- بم تفكر إذاً؟
- أفكر بالموت، بالسعادة وبالحقيقة العارية.

ضحك هانس. ضحك ضحكة مجلجلة جعلت كل الحاضرين يتركون كؤوسهم ويلتفتون إليه.

كان مارتين يستند بمرفقيه إلى طاولة صغيرة مدورة عند نافذة من نوافذ الحانة يحدق في الدرب الضيقة المغطاة بالثلوج الصاعدة إلى الكنيسة واضعاً خده في كفه. مسح هانس دموعه التي طفرت نتيجة الضحك من عينيه اللامعتين بظهر إبهامه وقال بنبرة تساؤل:

- بالموت! وبماذا أيضاً! السعادة والحقيقة!

ثم أغمض عينيه نصف إغماضة ومسح على لحيته القصيرة الكثة، بقي صامتاً لبرهة قصيرة ثم قال بهدوء:

- التفكير بالموت أصعب من الموت نفسه. أما البحث عن السعادة فتسبب الشقاء والحزن.

فوقهما، في زاوية من زوايا الحانة بنت عنكبوتٌ بيتَها بين خشبتين يستند السقف إليهما وإلى صف من الأخشاب مثلهما. كانت ذبابة قد وقعت في الشبكة وتحاول جاهدة أن تخرج. بدا أنها لا تستطيع الفكاك فيما صارت العنكبوت تلف حولها كفناً من خيوط واهنة بيضاء. كانت الذبابة مستسلمة. كانت تموت. توجه هانس العجوز ببصره نحو

Twitter: @ketab_n

الأعلى وقال:

- لكي تخرج من قوقعة حزنك فلا بد لك من ترك هذه البلاد. هذه بلاد لا يليق بشاب أن يعيش فيها.

ثم سكب ما تبقى من خمر في جوفه واتجه إلى ضيوفه الآخرين.

انتشر الظلام رويداً رويداً وقاربت الحفلة على الانتهاء. أشعل هانس الشموع التي على الطاولات ثم عمد إلى القنديلين اللذين على طرفي باب الحانة فأوقدهما. لم يمض وقت طويل حتى فرغت الحانة من القرويين الذين غادروها مثقلي الرؤوس مبتهجين. وحده مارتين عاد إلى بيته حزيناً كسير القلب مضطرباً فاندس في فراشه تحاصره أفكار شتى.

لم يكن منزله الذي غزته الكآبة بعد موت أمه يبعد عن الحانة كثيراً. كان بإمكانه أن يسمع من هناك صوت قهقهات هانس ورنين الأقداح وحتى صوت احتساء الخمر منها.

جفاه النوم تلك الليلة فصار يتقلب في فراشه ذات اليمين وذات الشمال. صارت جملة (لا بد لك من ترك هذه البلاد) تطن في أذنيه كأنها ذبابة ضخمة. وحين انتصف الليل نهض من فراشه وكأن هاتفاً دعاه للنهوض واتجه للحانة من جديد. رأى هانس ما يزال ساهراً وأمامه قدح نبيذ أحمر يدندن بلحن أغنية محدقاً في النار المشتعلة في الموقد، فجلس بهدوء إلى جانبه. تراقصت ألسنة اللهب في الموقد الذي بدا أن هانس ألقى فيه بعض الحطب قبل قليل. حين التقت عيناه بمارتين لم

Twitter: @ketab_n

يتحرك من مكانه ولم يقطع لحن أغنيته لكنه أشار بيده إلى كرسي بجانبه أن اجلس.

***

دعا هانس الذي صارت وجنتاه حمراوين مثل جمرتين بسبب الخمر، مارتين برفق وقال: «تعال يا مارتين. اجلس. لقد كنت تبدو اليوم حزيناً جداً. ما لك وللأحزان أيها الشاب! أنا أعلم أن أمك قد ماتت وبقيتَ وحيداً. وليس عيباً أن يحزن المرء على فقدان أمه. كنت أعرف أباك. كان رجلاً سعيداً. بالرغم من أن إخوتك وأخواتك كانوا يموتون في أشهرهم الأولى. أظن أن ثلاثة إخوة وأختين لك ماتوا جميعاً هكذا. لكن أباك لم يكن يجزع. وحين بلغتَ الثالثة من العمر بعث أبوك إليَّ رسالة كتب فيها أنه لم يعد يخشى عليك. كان يقول إنه إذا تجاوز أيٌّ من أولاده عامَه الأول فسينجو من الموت. كان أبوك سعيداً يا مارتين ولم يجد الحزن طريقاً إلى قلبه».

حاول مارتين أن يرد لكن هانس لم يفسح له مجالاً. صب له كأس نبيذ ووضعه أمامه ثم قال: «ستقول إنها كانت أمك. أنا أيضاً عاينت موت الأم. أمي لم تمت بل قُتِلت. من قتلها؟ قيل إن الكاثوليك قتلوها. هاهاها. أي فرق لو كان قاتلها لوثرياً أو كاثوليكياً؟ المهم أن روحاً بريئة زهقت. كانت أمي امرأة قروية لا تعلم شيئاً عن عدد المذاهب

Twitter: @ketab_n

المسيحية واختلافها. لم تكن تعرف شيئاً عن عدد الأناجيل. كانت تؤمن بمسيح واحد وهو المسيح المخلص. لكنه لم يخلصها من براثن الحقد الأعمى. ما زلتَ شاباً في مقتبل العمر يا مارتين. والسنواتُ التي من الممكن أن تشهدها أكثرُ من تلك التي بقيت لي. لكنني شهدت ما يكفي من الأعوام. شهدت ما يكفي من الحروب الكبيرة. لقد شهدت نهاية حرب الثلاثين عاماً أيضاً يا مارتين. أي دمار كانت تلكم الحرب!»

رفع مارتين كأسه وهو يلقي نظرة إلى الأعلى محدقاً في تلك الحرب الصامتة بين العنكبوت والذبابة ثم أطرق رأسه يفكر. أدرك من ذلك المشهد أن الموت يقف حائلاً بين المرء والسعادة فتوجه إلى هانس وقال كمن ظفر بكنز:

- حيثما حلَّ الموتُ انكفأت السعادة.

ألقى هانس عوداً صغيراً في النار التي كادت تخمد وقال وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

- لا. ليس الأمر كذلك. إذ ربما حقق الموتُ السعادةَ لبعض الناس. السعادة ليست بالفكرة السهلة التي يمكنك تعريفها بكلمة.

ثم أغمض عينيه قليلاً وقرَّب الكأس إلى شفتيه وقال من دون أن يشرب: «إن كنت تبحث حقيقةً عن السعادة فتوجه صوب الشرق يا مارتين. شرق الروحانية. شرق النور. شرق الشمس والسعادة والتصوف. ماذا يوجد هنا يا مارتين؟ صراعات الأديرة والكنائس؟

Twitter: @ketab_n

مئات الإمارات التي صارت تمتص دماء الناس أكثر من القُراد؟ هذه بلاد مجانين. ما الذي يوجد هنا؟ عباد الذهب! تجار البشر أم كتب الكاثوليك واللوثريين المليئة بالأحقاد؟ كل واحد يريد افتراس الآخر. آل بوربون وآل هابسبورغ؟ أمراء ولوردات وكونتات وبارونات عظام! رجال بإمكانهم أن يعادوا حتى ظلالهم؟ ارحل يا مارتين ارحل. ارحل واتبع الحقيقة ولا تعد قبل أن تطهر قلبك تحت شلالات نورها. ستظفر بالسعادة هناك. إن لم يمتلئ قلبك بحكمة كبيرة فلن تنجو روحك. لو استطعت فارحل حتى الهند. كلما ابتعدت عن قوقعتك سترى الحقيقة أقرب إليك. ستتهادى أمامك عاريةً مثل حورية فاتنة. ستحتضن الحقيقة يا مارتين».

حدق مارتين مرة أخرى في السقف. كانت الذبابة الواقعة في الشبكة، والتي بقيت تقاوم حتى لحظات قليلة مضت، قد أسلمت الروح. التفت إلى هانس وقبل أن يشرب سأله:

- هل زرت تلك البلاد؟

- بجسدي لا. لكنني زرتها بروحي وبخيالي. رجل شهم أخذني إلى الشرق. رجل ليس من سكان هذه البلاد. رجل اصطاد الحقيقة ووضعها مثل صقر في قفص ذهنه الحر المتوقد ليروضها.

- وهل تكفي الروح ويكفي الخيال لمعرفة البلدان؟ أيمكن معرفة الحقيقة بالتخيل؟

- نعم يمكن. لكنني تعرفت على الشرق وسحره في آخر العمر.

Twitter: @ketab_n

فتحت عيني على الشرق وطهره وروحانيته بعد أن وهبت شطراً كبيراً من عمري للخواء. متأخراً جداً اكتشفت أن بلادنا هذه تنهار وتغوص في مستنقع آسن من عبادة المال. لكن الشرق! ما زالت الروحانية فيه بكراً.

كان مارتين يبحث عن هذا: رجل يشجعه على الرحيل، رجل يفتح أمامه سبيل الهروب، رجل يفتح له باب الخروج. وهاهو ذلك الرجل يجلس معه، يضع أصبعه على الجرح، يشير إلى معاناته ويدله على الحل أيضاً. أراد مارتين أن يستفهم أكثر لكنه رأى أن هانس لم يعد قادراً على مزيد من الحديث. ثم فوجئ به وقد التمعت عيناه بسحر غريب وانفرجت أسارير وجهه وقال:

- لقد تذكرت. كتاب السعادة. حتى لو كان فقط من أجل الحصول عليه فيجب أن ترحل إلى الشرق.

- أي كتاب؟

- اسمه الإفادة في إكسير السعادة. ذلك الرجل الذي حدثتك عنه قال لي إن من يقرأ ذلك الكتاب يقبض على السعادة فلا يعرف الشقاء بعد ذلك. كان قد قرأ فصولاً منه في الكتب التي طالعها وعرف أنه يضم فلسفة عميقة. إنه كتاب يعرِّف السعادة ويجعل كل من يقرأه سعيداً. كان مؤلفه قد صنفه لأحد خلفاء المسلمين ويقال إن الكتاب شوهد آخر مرة في مدينة عثمانية تسمى حلب.

Twitter: @ketab_n

تنفس هانس بعمق كمن أرهقه الحديث، قلَّب الجمرات ثم واصل حديثه:

- أتعرف أن ذلك الكتاب كان سبباً من أسباب الحروب الصليبية ضد المسلمين؟ يقال إن أحد ملوك أوروبا جرَّد حملة عسكرية كبيرة على شواطئ المشرق لكنه باء بالفشل وعاد من دون أن يصل إلى حلب ويظفر بالكتاب.

رد مارتين:

- كيف لرجل مسكين مثلي أن يظفر بكتاب عجزت الجيوش عن الظفر به؟

هبت نسمة رخية فمشطت بأصابعها اللامرئية لحية هانس فهزَّ رأسه وقال:

- امتلاك السعادة لا يتم عن طريق الجيوش يا مارتين. الجيوش سبب من أسباب تدمير السعادة.

***

كانت كلمات هانس تحمل في تلك الليلة سحراً خفياً: سحر حكايات بلاد مغمورة في النور وأساطيرها، سحر الحقيقة ومعنى الوجود، سحر سر السعادة. وفوق كل ذلك حديثٌ عن كتاب السعادة. تلك كانت المسائل التي أرَّقت مارتين في شبابه، ألقت به في

Twitter: @ketab_n

خضم الحيرة وهزّت قارب عقله وحرمته من نوم كثير من الليالي.

قرأ مارتين آلاف الصفحات من كتب مكتبة الكنيسة، وكذلك مكتبة البيت بحثاً عن الحقيقة من دون أن يعثر عليها. لم يستطع أحد أن يروي ظمأ روحه إلى الحقيقة. لا كتب الكنيسة ولا كتب البيت ولا أي صديق في تلك القرية. كان صديقه الحميم غوستاف آلبوس ينصحه في كل مرة قائلاً: «لا تتهور يا مارتين. كيف يبحث المرء عن شيء في كفه؟ الطريق الحق هو طريق المسيح، والسعادة هي في معرفة كلمة الرب. السعادة هي حب المسيح المخلص. لم تشغل نفسك بمسائل لا يخوض فيها إلا الهراطقة؟ عليك أن تمضي شبابك في ظلال الكتاب المقدس يا مارتين».

كان مارتين ينفر من كلام صديقه ذاك. فلقد سمع تلك المواعظ مئات المرات في الكنيسة من دون أن تبدد قلقه الداخلي. كان يحبذ الوحدة ويخرج إلى الغابات يتجول تحت أشجار الزعرور والبلوط والدلب ويرفع رأسه ليحدق في الأعلى كأنه يبحث بين الأغصان العالية عن أجوبة لما يمور في نفسه من الأسئلة. كان يجوب الطرقات وهو يبحث في مسالك خياله الوعرة عن حقيقة السعادة لكنه لم يكن يظفر إلا على فراغٍ بطعم الرماد ولون الريح.

كان مارتين قد فكر حتى قبل أن يأتي هانس إلى القرية ويفتتح فندقه هناك، بالرحيل إلى بلاد بعيدة، فكر بأن يتبع نداء قلبه لكنه كان بلا حيلة ولا إمكانيات. والآن هاهو بصيص أمل يلمع في الظلام: عجوز

Twitter: @ketab_n

خبر الدنيا يحدثه عن بلاد ما تزال فيها الروحانية بكراً عذراء! جعل سحرُ حديث العجوز هانس قلبَ مارتين ينبض ويقرر الرحيل الذي كان يتهيبه قبل وفاة أمه. قرر أن يذهب إلى الشرق ويعرض روحه لشلالات السعادة وأمواج الحقيقة. الحقيقة التي لا تسلم قيادها للمرء بسهولة ويمكن تعريفها بألف طريقة وطريقة. الحقيقة التي لا تصبح من نصيب المرء بسهولة، وإذا صارت من نصيب أحد فإنه يتأرجح بين الجنون والحكمة العميقة. والسعادة؟ هل صحيح أن ثمة كتاباً استطاع تعريف السعادة ووصف تركيبها السحري؟ لقد جاء أنبياء كثيرون وفلاسفة عديدون وأنشأوا مذاهب وعقائد عديدة لكن البشرية لم تظفر بالسعادة فكيف لكتاب أن يدعي ذلك؟

ما عاد في استطاعة مارتين أن يقاوم ذلك السحر. ومثل من يأمره هاتف رباني خفي بالتوجه صوب الشرق قرر تلك الليلة أن يتبع أثر رائحة حبر السعادة ويشد الرحال شرقاً.

***

صباح اليوم التالي، توجه مارتين إلى بيت صديقه غوستاف. كان الثلج يهطل بغزارة مثل أحلامه التي ازدحم خيالُه بها. حطت الغربان على الثلج وراءه وصارت تنقر آثار أقدامه حيث ظهرت بعض الأعشاب. كانت تبحث عن الديدان والحبوب لتلتقطها. رأى مارتين

Twitter: @ketab_n

في ذلك فألاً سيئاً فصار يحث خطاه. لم تكن ثمة صور للحياة في ذلك الصباح سوى آثار أقدامه وتلك الغربان الملحاحة والدخان الصاعد من أسقف بعض المنازل.

كانت القرية صامتة مثل مقبرة لكن رأس مارتين كان صاخباً مثل مركز مدينة وساحة معركة. رنَّت كلمات هانس في رأسه أكثر من أجراس كنيسة. كان قد قرر أن يرحل إلى الشرق ويجعل غوستاف رفيق رحلته. كان غوستاف رجلاً تقياً لا يتخلف عن أية صلاة في الكنيسة ويكاد يحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب. يقتبس كل كلامه من قصص المسيح والحواريين ورسائل باولوس إلى أهالي روما وأفسوس. وقد انضم لشدة تدينه وحماسه إلى قوات الفيلدمارشال أوجين فون سافوين وذهب حتى المجر للقتال ضد الأتراك. وعندما اعتنقت أسرتُه المذهبَ اللوثري صار غوستاف خورياً يقرع جرس الكنيسة في هيرنه ويقضي معظم وقته يقلب أوراق الكتب في مكتبتها. كان هو أيضاً يبحث عن الحقيقة وتوصل إلى قناعة مفادها أن كل مذهب ودين ما عدا مذهبه اللوثري المسيحي باطل. وبوصوله إلى تلك القناعة ظفر بالسعادة ووصل، كما كان يقول، إلى نهاية الطريق.

كان مارتين يعرف طباع غوستاف، فهو يستطيع أن يعمل في سبيل حقيقته سنوات طويلة. وخمَّن أن رحلة طويلة كهذه التي يزمع عليها لا بد وأن تصبح أكثر يسراً مع رفيق متدين تقي مثل غوستاف الذي غاص الإيمان في قلبه عميقاً وصار على استعداد للغوص حتى في

Twitter: @ketab_n

البحار لأجل عقيدته.

حين وصل مارتين إلى باب صديقه انتابه التردد وقال في نفسه: «أأخبره بما عزمت عليه أم لا؟ وكيف لي أن أقنعه بالفكرة؟ كيف سأزين له هذه الرحلة؟ إن أراد أن يشاركني الرحلة كأحد المبشرين أفلا ينبغي أن تكلفه الكنيسة بذلك؟ وأنا! لماذا عليَّ أن أصدق كلام عجوز أفقدته الدنيا والمآسي التي مرت بها عائلته نصف عقله! أيستحق الأمر عناء رحلة شاقة طويلة من أجل كتاب أو حقيقة يمكن ألا أعثر عليها هناك؟»

لم يطل تردده فطرق الباب برفق. بدا ألا أحد هناك. طرق الباب مرة أخرى لكن بقوة. وضع أذنه على الباب ونظر من شق منه إلى الداخل، لم يكن هناك أحد. لو كان غوستاف في البيت لسمع صوت كلبه على الأقل. وسرعان ما انتبه مارتين إلى أثر في الثلج يتجه إلى حانة هايلبرغ. كان ذاك أثر غوستاف وكلبه.

تبع مارتين ذلك الأثر حتى أوصله إلى الحانة. لمح غوستاف هناك: كان أمامه فنجان من القهوة يعلوه الدخان بينما كلبه يتمسح برجله تحت الطاولة ويهز بذيله. حين لمح هانس مارتين ناداه بفرح:

- هييه! أهذا أنت؟ تعال أعطك قهوة لذيذة.

ورفع عن النار ركوة بيضاء منقطة بالأزرق ثم ملأ فنجاناً ووضعه أمام مارتين.

احتسى غوستاف قهوته بوجه متجهم، ثم لعب بخاتم ذي فص

Twitter: @ketab_n

أحمر في أصبع بيده اليمنى وقال:

- لم أستسغ هذه القهوة. لا يمكن شربها. تفوح منها رائحة الأتراك. حين كنت في صفوف قوات الأمير أوجين في زنتا رأيت العشرات من الأكياس المليئة بالقهوة. لقد قصمنا ظهور الكفار الترك في تلك المعركة وسقط الآلاف من جنودهم من الجسر في نهر تيسا وغرقوا. كانوا قد تركوا حِمَلَ عشرة بغال قهوة وراءهم.

ثم أدنى خاتمه من وجهه وحكَّ به أنفه وواصل الحديث:

- لو كانت القهوة شيئاً جيداً لما تركوه وراءهم.

ضحك مارتين وقال:

لقد تركوا وراءه صدرهم الأعظم أيضاً. أليس كذلك؟

اعتدل غوستاف في جلسته، فتل الخاتم في أصبعه، ووضع مرفقيه على الطاولة التي أمامه وسرد بفخر وقائع تلك المعركة التي سردها عشرات المرات:

- في تلك المعركة الكبرى على ضفة تيسا حيث شاركت في القتال، قتل الصدر الأعظم العثماني ألماس باشا وكان هذا الخاتم في أحد أصابعه. كانت جثته ملقاة في ميدان القتال والجميع مشغولين بالغنائم. وحين رأيت ألا أحد بجانبه سارعت فنزعت هذا الخاتم من يده.

تناول هانس رشفة من قهوته وقال مبتسماً:

- أنت مجنون يا غوستاف. أما كان من الأفضل لو أتيت من تلك

Twitter: @ketab_n

المعركة بكيس من القهوة بدل هذا الخاتم ذي الفص الأحمر؟ هذه قهوة يا رجل. لا يقدرها حق قدرها إلا رجل مثل الأمير أوجين. اشرب يا مارتين بالله عليك. هل توجد قهوة كهذه في كل الإمارات والدوقيات والمدن؟ وحق الرب لو عرف بابا روما طعمها لذاقها. اشرب اشرب وانظر أية قهوة أحضرتها هذا الصباح.

وصار يدندن بلحن أغنية حفظها منذ الطفولة تقول في بعض كلماتها:

بيدْ كيندْشِنْ بيدْ

مورغنْ كومْتْ دِر شفيد[1].

تناول مارتين فنجانه ثم جلس بجانب غوستاف وحين رشف رشفة من القهوة تجهم وزمَّ شفتيه، ارتعش قليلاً ثم قال:

- إنها مُرَّة وغير طيبة.

قطع هانس دندنته وقال:

- لأنها بلا عسل. حين تذهب إلى الشرق يا مارتين سترى أنواعاً كثيرة من القهوة. التجار الذين كانوا يعودون إلى أمستردام كانوا يحكون أن المقاهي أكثر من المساجد هناك. يقال أيضاً إنهم يُحلُّون قهوتهم بالقند وهو نوع من السكر.

حين سمع غوستاف قصة السفر إلى الشرق فغر فمه وصار يحدق

(1) نم يا ولدي نم فالسويديون قادمون غداً.

هكذا كانت الأمهات الألمانيات يهدهدن أولادهن ويخوفنهم من الجنود السويديين.

Twitter: @ketab_n

في مارتين. ابتسم مارتين وقال:

- لقد كنت قبل قليل عند منزلك. كنت أريد إخبارك بالموضوع. أريد أن ترافقني إلى الشرق.

الشرق؟

- نعم.

- الشرق الشرق؟

- نعم

- أنا أيضاً؟

- نعم أنت أيضاً.

- لا وألف لا.

نهض العجوز هانس من أمام الموقد وجاء ليجلس بجانب غوستاف ذي السحنة المتجهمة وقال:

- لم أخذك العجب وصرت تكثر اللاءات؟ وهل أنتما أول من سيذهبان إلى تلك البلاد؟ لقد سبقكما المئات فذهبوا وعادوا. اذهبا إلى أمستردام وستريان كم من الشباب سافروا إلى الشرق ثم عادوا وقد جمعوا مالاً وفيراً. ألم تقرآ ما كتبه الرحالة؟ اذهبا إلى أمستردام وليحدثكم من زار الشرق عن تلك الأماكن السحرية.

احتد غوستاف، ضرب رأسه الأصلع وتنقل بنظراته بين هانس ومارتين ثم قال:

- إن لم يكن تحت ظلال الصليب المقدس فلن أذهب إلى أي مكان.

Twitter: @ketab_n

نعم سأذهب إلى الشرق لكن مع جيش لجب هدفه تحرير قبر المسيح من يد الكفار.

ضحك هانس ضحكة تشوبها السخرية وقال:

- حرروا أولاً بعضكم من براثن بعض ثم اتجهوا إلى قبر المسيح لتحرروه.

من خلال النافذة تراءى الثلج وقد غطى كل شيء. تراءى أيضاً برج الكنيسة والدخان الصاعد من مداخن المنازل، رؤوس الأشجار وآثار الأقدام على الثلج وحتى خيال الطيور التي كانت تطير هناك باحثة عن حبوب أخفاها الثلج. لم يتجه أحد ذلك الصباح إلى حانة هايلبرغ سوى ذينك الشابين اللذين انشغلت نظراتهما بحراثة الثلج الذي بدا من خلال النافذة بمحاريث الخيال.

بالرغم من المحاولات الحثيثة ذلك الصباح لم يستطع لا مارتين ولا هانس إقناع غوستاف بالرحلة إلى الشرق. كان غوستاف يهز رأسه الأصلع ويحك لحيته الصهباء ويردد لاءاته.

- أأذهب إلى الكفار؟ وماذا أفعل؟ أتبع ماذا؟

- اتبع الحقيقة.

- الحقيقة في كتابنا المقدس. الحقيقة أقرب إلينا من ظلالنا. ألم تقرأوا ما قاله المسيح: أنا الطريق. أنا الحقيقة وأنا الحياة؟[1]

رد هانس:

(1) في إنجيل يوحنا يرد هذا الكلام. هكذا أجاب المسيح تلميذاً من تلامذته اسمه توما.

Twitter: @ketab_n

- ومن لم يقل: أنا الطريق فاتبعني؟ من لا يقول أنا الحقيقة؟ من لا يقول إن شمس الحقيقة تشرق من حضني وتغرب في حضني! يا غوستاف ليست الحقيقة والسعادة أملاكاً خاصة ولا ينبغي لنا أن نسجلهما باسم شخصين أو ثلاثة فقط. السعادة عسلٌ لا يمكن الحصول عليه من زهرة واحدة أو عبر نحلة واحدة.

رد غوستاف بحدة:

- المسيح ينبوع السعادة. إنه بيت النحل وهو العسل والزهرة أيضاً.

***

على مدى تسعة أيام حاول غوستاف جاهداً أن يجعل مارتين يعدل عن قراره في الذهاب إلى الشرق. أما هانس فقد كان يشجعه من ناحيته ويتحدث له باستمرار عن سحر الشرق. كان مارتين يتأرجح بين هذا وذاك. يصيبه الأرق فيبقى إلى الفجر. كان يستيقظ صباحاً ليقول: أنا لن أذهب. وفي الصباح يعد العدة للرحيل. كان أكثر ما يجعله متردداً هو التكلفة الباهظة للسفر إلى الشرق. كان يجب على كل من يريد التوجه إلى هناك أن يتخذ طريق أمستردام مع أحد التجار الكبار عبر قوافل السفن. تناهبته أفكار الذهاب وعدمه كثيراً لكنه قرر أخيراً الذهاب. كان الشرق قد أصبح جبل مغناطيس نزع مسامير التردد واحداً وراء الآخر من ذهنه.

Twitter: @ketab_n

كان يفكر، بالرغم من أنه قرر الرحيل، في الطريق إلى الشرق وتكاليفه. لكن هانس العجوز طمأنه بصوته المبحوح الحنون طالباً منه ألا يهتم لأمر المصاريف أبداً بل عليه أن يتهيأ للسفر إلى تلك البلاد التي قد يظفر فيها بكتاب السعادة ذاك. عمد هانس إلى كوة في الجدار الجنوبي للحانة وأخرج منها صندوقاً بني اللون أخرج منه صُرَّة جلدٍ سوداء معقودة بخيط حريري وقدمها لمارتين قائلاً:

- هذه خمسون تالاراً. تكفيك لمدة طويلة إن لم تلعب بذيلك. وإن كنت ماهراً فيمكنك الاتجار بهذا المبلغ. المهم أن تأتيني بذلك الكتاب. اتبع أثره وحاول أن تجده أينما كان لنعرف ما هي السعادة.

ثم أعطاه عنوان تاجر معروف في أمستردام يرسل أحمالاً من الجوخ الإنجليزي إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

جرى كل شيء بسرعة. لم يعد مارتين يعرف كيف بدأت القصة ولا كيف توافقت أمنياته مع أحلام ذلك العجوز! لم يفهم لماذا يصر هانس الذي عاد من غربته منذ عدة أشهر وأنشأ ذلك الفندق والحانة على دفعه باتجاه الشرق بحثاً عن كتاب لا يعرف هو أيضاً أين يكون. لم يفهم لم يمنحه العجوز ذلك المبلغ الكبير من المال!

كان مارتين يبحث عن دواء يداوي به روحه. يبحث عن نافذة من الضوء في ظلام تشاؤمه. كان يتلمس بيديه في ظلال الشك حقيقة عارية وأيقن أنه لن يجد مبتغاه إلا في الشرق.

Twitter: @ketab_n

***

في يوم الأحد الثالث بعد رأس السنة الواقع في الثامن عشر من كانون الثاني يناير وقبل أن يسافر مارتين بأربعة أيام، لمحه هانس قادماً من الكنيسة حاملاً كمنجته متجهاً إلى البيت. ومع الرنة التاسعة لجرس الكنيسة معلناً عن الساعة التاسعة صباحاً ألقى عليه هانس تحية مرفقة بابتسامة عذبة داعياً إياه لنزهة حتى قصر شترونكده الواقع وسط غدير ماء.

ما كان مارتين ليذهب معه لولا أن هانس قال إنه سيفشي له بعض أسراره بعيداً عن الناس. سار الاثنان صوب الحانة فوضع مارتين كمنجته هناك ثم اتجها إلى القصر الشبيه بجزيرة صغيرة.

كان الثلج يغطي الأرض وتزين السماءَ بضعةُ غيوم صغيرة كأنها قصاصات مخمل أبيض عند قدمي خياط فيما كانت الشمس تظهر من خلالها مثل زر ذهبي ضاع بين تلك القصاصات.

لمح الاثنان خلال مشيهما أطفال القرية يتزلجون على الثلج وقد احمرت وجناتهم الطرية. فيما كان سرب من الغربان يبحث في الثلج عن الطعام.وأضفى سوادُ الغربان الجميلُ فتنة على ذلك البساط الثلجي المنبسط وكأنها حروف قصيدة على صفحة كتاب. سال حبر الأسطر في خيال الاثنين وهبت نسمة باردة جعلت الأغصان تنثر ما

Twitter: @ketab_n

علق بها من ثلج. أسرعا قليلاً فلاح لهما القصر المائي بأسواره العالية ونقش الأسدين المتوثبين على بوابته الكبيرة وبعض العصافير والغربان التي كانت ترفرف هناك. حدق هانس في تلك الطيور برهة ثم خفض بصره وقال لمارتين:

- الغربان تطير في أسراب، أما الصقور فتطير وحيدة. فكن صقراً يا مارتين. كن صقراً ولا تبقَ كالغربان تلاحق الديدان.

ثم انخرط هانس في حديث طويل فتحدث عن نفسه وعن أيامه السالفات. تحدث عن الكتب والأديان والفلسفة والأنبياء أيضاً. لم يكن حديثه حديث مالك فندق وصاحب حانة فحسب، بل كان يتحدث كفيلسوف يشك في كل شيء. تعجب مارتين وظن أن شيخوخة هانس قد أكسبته كل تلك الحكمة، لكنه سرعان ما أدرك أن حديثه ليس إلا نتيجة علم غزير وأنه يخفي أسراراً كثيرة. كان هناك جذعا شجرتين مثل مقعدين متقابلين جلس مارتين عل أحدهما وهانس على الآخر ثم شرعا يحدقان في الغدير الذي كان القصر يتوسطه.

وضع هانس رجلاً على رجل ثم شبك بين أصابع يديه ووضعهما على ركبته ثم وقال بهدوء:

«صار لي يا مارتين خمسون عاماً وأنا أفكر في أمر هذ الـ«أوروبا».

إنها مثل ماء يغلي ويتقلب في قدر، يمور ويفور ويعلوه البخار. صحيح أن سلطة الكنيسة قد ضعفت لكن نشأت سلطة أخرى أسوأ منها بكثير. إنها سلطة الذهب. إن الذهب سيقضي على روحانية هذه

Twitter: @ketab_n

الأوطان. أنا شاهد على ستين عاماً من الحروب. ولقد رأيت كيف انحدر الجيش السويدي كالسيول من الشمال وجرف أمامه الصالح والطالح. رأيت كيف أن الآلاف من الشباب ذهبوا لقتال العثمانيين ولم يعودوا. آلاف من النساء أصبحن ثكالى وأرامل. مئات الآلاف من الأطفال تيتموا. الفتيات اغتصبن واحترقت أكباد الأمهات وانطفأت القناديل. لم يبق أحد لكي يشعل الشموع على أرواح الذين قتلوا في ساحات المعارك ولم تعد جثثهم. رأيت كيف أن الفرنسيين ينهبون الكنائس في هولندا ويسرقون الذهب ويقتلون الرجال ويغتصبون النساء. لا شك أن الهولنديين أيضاً قاموا بذلك في البلاد النائية التي وصلتها فرقاطاتهم وسفنهم. لقد جنوا. نعم جنوا. القيصر، ملك فرنسا، ملك إسبانيا، الأمراء والأميرات والكونتيسات واللوردات والبارونات، القادة العسكريون والماريشالات الذين يدفعون آلاف الدنانير للرسامين لينقشوا صورهم الملونة ويعلقوها على جدران قصورهم. يبنون القصور الشاهقة كالحصون على رؤوس التلال ولا يتناولون طعامهم إلا بملاعق من ذهب، بينما يموت مئات الآلاف بسبب الأوبئة والمجاعات. أهذه هي نتائج الإصلاح! أيُعقل أن تريقَ أنهاراً من الدم لكي تقنع الآخر بصدق عقيدتك؟ لماذا صارت الوحشية طريقاً لإقناع الآخرين بأنك على الحق؟ هناك حجج على الدوام ليتقابل البشر في ساحات القتال ويتذابحوا. حتى الذئاب والضواري لا تفعل ذلك يا مارتين. ألم يمت مئات الألوف في سبيل

Twitter: @ketab_n

هذا التاج وذاك؟ هذا الصليب وذاك؟ هذا الدين وذاك؟ هذا الإله وذاك؟ إن أولئك المكللة هاماتهم بالتيجان صاروا بلا إحساس بسبب نعومة حرير مآزرهم وبريق جواهر تيجانهم. ارحل يا مارتين ارحل وابحث في تلك البلاد عن الروحانية. ضع الحقيقة في كفك حتى لو كانت جمرة. ضعها على لسانك وانطق بها. أصلاً يجب أن تحرق الحقيقة لسان قائلها. إن الحقيقة ابنة النار وحفيدة النور. الحقيقة ابنة الشك. الشك مصدر من مصادر الحقيقة يا مارتين. حدثتك عن رجل أخذني إلى الشرق ذات مرة أليس كذلك؟ كان رجلاً عالماً. كان رجلاً يحمل جمرة الحقيقة بيده وينفخ عليها لتبقى متوقدة. لم يكن يهمه احتراق أصابعه. ذاك الرجل ما كان يقوم بصقل زجاج النظارات فحسب، بل كان يصقل البصائر والأذهان والعيون أيضاً».

كان مارتين يصغي بصمت وأدب وهو يضع رأسه بين كتفيه من شدة البرد. لم يكن يريد أن يقطع حديث هانس حتى ولو بسعلة. لكن مع الجملة الأخيرة لمع في عيني مارتين بريق الفضول لمعرفة ذلك الرجل. قرأ هانس سطور ذلك الفضول في صفحة عينيه فواصل حديثه:

«كنت قد توجهت بسبب الأوضاع السيئة في هذه الولاية إلى أمستردام. الأصح بسبب وضعي السيئ. كانت هولندا بلاداً تشبه نافذة مفتوحة على العالم مليئة بالنور والحياة. اتجهت إليها لأطل على العالم. كان ذلك قبل أربعين عاماً. أخذت معي أخواتي أيضاً حيث

Twitter: @ketab_n

سلكن سبيل الرهبنة وعكفن عن الزواج. أنا أيضاً حرمت نفسي من الزواج. كنت عنيناً. في الرابعة عشرة من العمر اكتشفت ذلك. كنت أخوض مع رفاقي أحاديث عن الذكورة والشباب والعلاقات الجنسية بين الذكر والأنثى. كان رفاقي يتحدثون عن الانتصاب واللذة التي ترافق خروج ماء أبيض ساخن من أعضائهم الذكرية، لكنني لم أكن أفهم تلك الأحاديث.

في أمستردام زرت العديد من العطارين والتجار القادمين من أطراف الدنيا واشتريت منهم الأدوية لأتعالج بها. استعملت كل أنواع الأدوية حتى الزنجبيل الذي كانوا يأتون به من الهند أيضاً ولكن من دون جدوى».

حين سمع مارتين هذه الحكاية غاص برأسه حياءً بين كتفيه أكثر من السابق وأشفق عليه. حاول أن يواسيه بكلمة ما لكنه لم يجد ما يصلح للمواساة فأخلد للصمت. شعر هانس أن مارتين اضطرب قليلاً من حديثه فأراد أن يغير وجهة الكلام فقال:

- أتعرف أنني عرفت في أمستردام باروخ سبينوزا؟

- باروخ سبينوزا؟

قال مارتين وبقي فاغر الفم من الدهشة. رفع رأسه الذي كان غائصاً بين كتفيه من الخجل والبرد ونظر بعيون مليئة بالأسئلة وماج وجهه بالدهشة. رد العجوز:

- نعم باروخ سبينوزا. أتعرفه؟

Twitter: @ketab_n

- إنه فيلسوف يهودي.

- لا ليس يهودياً. إنه فيلسوف، نعم، لكنه ليس يهودياً. إنه لم يجعل أي دين أو وطن هوية له. لذلك أقول إنه لم يكن يهودياً. الحقيقة هي القومية الحقة يا مارتين. العقل هو الهوية يا ولدي. أي حكيم يعرف نفسه بقوميته؟ وحدهم الأغبياء يعرفون أنفسهم بأوطان لها حدود. وحدها الدجاجات أوطانها المزابل. أما الصقور والنسور فالسماء هويتها. السماء.

ثم نهض الاثنان متجهين صوب الكنيسة تحت ندف الثلج المتساقطة بهدوء.

***

Twitter: @ketab_n

الساعة العاشرة

بعد أن مضت تسعة أعوام وتسعة أشهر وتسعة أيام على رحيل مارتين سيتزر عن قريته هيرنه ذات المئة بيت، عاد إليها مرة أخرى.

ولقد صادفت عودتُه يومَ الاثنين الأول من شهر تشرين الأول. وما إن وصل إلى القرية حتى قُرِعَ جرس الكنيسة عشر مرات مشيرة إلى الساعة العاشرة صباحاً[1].

كان يوماً مشمساً اغتسلت فيه شجرة الكستناء القريبة من الكنيسة بالضوء وتركت أغصانها لمعابثة نسمات رخية رقيقة فيما ألقت بظلالها وثمارها أيضاً على الأرض. أما العصافير التي أمضت ليلتها جاثمة غافية على أغصانها فقد أصبحت تطير الآن في تلك الأنحاء فوق شجيرات العليق والورد. كان بضعة أطفال يجمعون ثمار الكستناء المغلفة بالشوك، يدوسونها فتفر الحبات البنية فيتناولونها ويقشرونها

(1) بعد شهر من التوقيع على اتفاقية كارلوفيتز، ترك بوريسلاف مع عائلته المذهبَ الأرثوذكسي وتحول إلى اللوثرية واضطروا للرحيل غرباً. هربوا من الارثوذكسية واجتازوا المجر والنمسا وبلاداً أخرى حتى وصلوا إلى هيرنه. حول بوريسلاف اسمه إلى كارل وأصبح قارع جرس في الكنيسة. لم يوافق هواء القرية مزاج أفراد عائلته فرحلوا إلى أمستردام ومنها إلى أمريكا. حاولوا قبل ذلك أن يقنعوا بوريسلاف بمرافقتهم فلم يفلحوا.

Twitter: @ketab_n

بسكاكين صغيرة ويأكلونها نيئة بشهوة عظيمة.

أمعن مارتين النظر في هذا المشهد فقال لنفسه:

- كنت حبة كستناء خارج غلافها.

ثم تحسس بيده حبة كستناء كانت في جيبه، أخرجها ونظر إليها. كانت قد أصبحت خفيفة، فارغة، هشة، ليس في جوفها سوى العفن والغبار. بقيت تلك الحبة معه تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام. تذكر مارتين أنه كان يوم رحيله عن القرية مع هانس هايلبرغ صاحب الحانة الذي انحنى وقتها على الأرض فحمل تلك الحبة وأعطاها لمارتين وهو يقول:

- ما دامت حبة الكستناء في قشرتها فلا يمكن معرفة مذاقها اللذيذ. فانزع عنك القشرة لكي تعرف طعمك وطعم الحياة أيضاً يا مارتين.

عاد مارتين إلى القرية إذاً، بعد كل تلك السنوات، وأراد أن يتجه إلى المقبرة مباشرة ليشعل شمعة من تلك الشموع التي اشتراها في حلب قبل سنة ويضعها على قبر والديه ثم يعرج على الفندق ليأخذ مفتاح البيت الذي سلمه إلى هانس يوم رحيله، لكن صوتاً أوقفه. صوتٌ أعاده سنوات إلى الوراء. أعاده إلى تلك اللحظة التي ودع فيها صديقه غوستاف آلبوس تحت شجرة الكستناء تلك ذات شتاء قارس.

- مارتين!

كان هو غوستاف آلبوس نفسه. بدا وكأن تلك السنين لم تمر عليه.

Twitter: @ketab_n

لحيته ما تزال تلك اللحية الصهباء المدورة وحواجبه الكثيفة هي نفسها ورأسه الأصلع هو هو، أما عيناه فقد بقيتا على حالهما غائرتين قليلاً وصغيرتين. لم يتغير فيه سوى سحنته التي صارت أدكن وجبهته التي لفحتها الشمس فغيرت لونها. كانت ثيابه أيضاً قد تغيرت قليلاً: بنطال مخطط بخطوط حمراء غامقة وبيضاء وفوقه سترة خضراء بأزرار ذهبية وتحت السترة قميص أصفر وشال أسود يطوق رقبته. حدق مارتين فيه لبرهة قصيرة وقال في نفسه: «ترى كيف عرفني غوستاف؟»

لم يكن زي مارتين مما يتزيا به الأوروبيون حينذاك. كان يلبس سروالاً كردياً، سترة أصفهانية وعباءة مبطنة بفرو السناجب من تلك التي يصنعها القوقازيون وعلى رأسه قبعة تركية ويتنكب كشكولاً ويحمل أكياساً في يده. بقي وجهه الكوسج فقط على حاله مثل برية لم تمطرها السماء[1]. و لو رأته أمه على تلك الهيئة لما عرفته. لكن كيف عرفه غوستاف؟

- متى عدت؟ وما الذي فعلته بنفسك؟

هكذا صرخ غوستاف بدهشة وانفعال.

تجمـد مارتين في مكانـه. أنزل الكشكول ووضع ما كان في يده على الأرض. خلع قبعته ورماها في الهواء وركض نحو غوستاف

(1) «ثم ذهب مسرعاً صوب رجلين واقفين بعيداً تحت شجرة دلب. بدا من هيئة الرجلين، اللذين استقبلاه مبتسمين، أنهما غريبان عن تلك البقاع، فقد كان زيهما مختلفاً عن زي حشد المشيعين حول القبر، وكان أحدهما يرتدي عباءة مبطنة بفرو السناجب وينظر صوب السماء بوجهه الكوسج». من رواية ميرنامه—جان دوست

Twitter: @ketab_n

صارخاً بفرح:

- هيييييييييييييي.

وتعانق الصديقان تحت شجرة الكستناء عينها التي شهدت وداعهما قبل حوالي عشر سنوات.

***

بلا توقف تحدث غوستاف آلبوس وهو يمشي بجانب صديقه القادم لتوه من الشرق. لم يفسح مجالاً له ليفتح فمه وينبس ببنت شفة. قال بصوت يشوبه فرح طفولي: «هل تعلم أنني حلمت بعودتنا أنا وأنت إلى هيرنه في يوم واحد! في يوم جميل مثل هذا اليوم! كنت بعيداً مثلك يا مارتين. بعيييييداً. أتصدق أنني كنت في أفريقيا الغربية؟ لقد ذهبت إلى عالم آخر. كان عالماً يختلف عن عالمنا بكل شيء. بترابه وهوائه، فصوله، سمائه، حتى بأشجاره يا مارتين. وبناسه أيضاً، أقول ذلك مجازاً، فهم أقرب للحيوانات. إنهم قردة يا مارتين. قردة. أنظر إلى يدي هذه. أين أصبعي»؟

وبسط يده اليمنى أمام وجه مارتين. كانت أصبعه الخنصر مقطوعة بالكامل. تلك الأصبع التي زينها خاتم الصدر الأعظم، الخاتم الذي غنمه غوستاف في المعركة الكبيرة التي جرت قرب بلدة زنتا، الخاتم ذو فص العقيق اليمني الذي كان غوستاف يتزين به كتذكار من

Twitter: @ketab_n

انتصار الصليب. تذكر مارتين تلك الأصبع وذلك الخاتم فجحظت عيناه ونظر مبهوتاً إلى غوستاف الذي علا فمه الزبد ثم صرخ:

- إيييييه.

رد غوستاف: «نعم نعم. إنهم وحوش. أكلة لحوم البشر. لا أدري أيُّ سم كان في أسنان ذلك الوحش أصاب يدي بالفالج؟ كان زنجياً ذاك الذي التهم أصبعي. لقد ابتلعها مع الخاتم. سأخبرك ببقية القصة فيما بعد. لنذهب الآن إلى فندق هايلبرغ. ألا تشتاق لحانة العجوز هانس؟ سنذهب لنشرب فنجاناً من القهوة ثم نرى ماذا نصنع. هيه. ماذا قلت؟ لا تقل شيئاً. سنذهب».

خلال حديثه، كانت ثمة قلادة تهتز في عنقه. قلادة تحمل نقش حيوان من خشب غامق اللون. حدق مارتين في ذلك الحيوان فلم يعرفه. عرف غوستاف أن الفضول استبد بمارتين لمعرفة ذلك الحيوان فجاء حتى واجهه وقال: «هذا طوطم. طوطم القبيلة التي كنت أعمل بين ظهرانيها. طوطم الشعب الآكاني. كانوا يظنون أنه يحميهم. هاها. كان أولئك الوثنيون القذرون يعتقدون ذلك. لكن طوطمهم هذا وضع رقابهم في الأطواق الحديدية. هللويا. ولقد نزعت هذه القلادة من عنق أحدهم حاول الفرار والهرب من بين يدي. كنت ممسكاً به وقبل أن أكويه بسفود النار وأضع عليه دمغة الشركة نزعت القلادة من رقبته الوسخة. هللويا. العبيد رخيصون جداً هناك يا مارتين. في

Twitter: @ketab_n

عز الغلاء يساوي خمسة منهم آلبوساً واحداً[1]. سأفتتح أنا أيضاً شركة خاصة بي. ليست شركة بمعنى الكلمة لها عمال وسفن. لا، ولكن شركة سمسرة. أوووووه اعذرني يا مارتين. كيف ستعرف ما الذي أحكي عنه؟ سأسرد لك التفاصيل فيما بعد. سنقضي الليلة في فندق هانس. ما رأيك؟ لقد وصلت قبلك إلى هنا. أمس وصلت مع غروب الشمس وأعرف أكثر منك ما الذي حصل في القرية بغيابنا. هللويا».

أخرست الدهشة مارتين. تجهم وجهه وارتعشت شفتاه وضاقت أنفاسه لكنه تمالك نفسه. لم يستطع الحديث واستغرب شهوة غوستاف العجيبة للكلام. لم يعطه غوستاف الفرصة حتى للتفكير فاضطر أن يوسع خطاه ويجعلها على إيقاع خطوات رفيقه تحت تلك الأحمال بينما زاد حماس غوستاف وأراد أن يحكي قصته دفعة واحدة لمارتين. وقبل أن يصل الاثنان إلى الحانة تقدم غوستاف خطوتين والتفت كأنه يريد قطع الطريق على صديقه، حك لحيته الصهباء ورمش بعينيه الصغيرتين ثم قال: «أعرف أن لك قصصاً كثيرة غريبة تريد أن ترويها. إذ يكفي أن يمكث المرء شهرين في بلد ما حتى تصادفه الوقائع بالعشرات. فكيف بمن يمكث تسعة أعوام وتسعة أشهر وتسعة أيام؟ أرأيت كيف حسبتها؟ إن المرء حين يشتغل في التجارة أو يخالط مجتمع التجار تتحول حياته كلها إلى أرقام. هذه هي الحقيقة: الوجود رقم. النجوم،

(1) آلبوس: نوع من العملات استعمله الألمان قديماً. وفي بداية القرن 18 كان تالر واحد يساوي مئة آلبوس.

Twitter: @ketab_n

الإنسان، الأشجار والجبال، كل شيء مهما كان صغيراً أو كبيراً لا بد من رقم يعينه. العبيد أيضاً كانوا أرقاماً. هللويا. قصص الشرق أيضاً خيالية أليس كذلك؟ ستسردها علي. إن لم تنته الليلة فسنكملها في الليلة القادمة. ما الذي ينتظرنا يا مارتين؟ هيه؟ صحيح أننا لا نستطيع الليلة رواية كل ما جرى في تسعة أعوام وتسعة أشهر، لكن ألا تكفينا تسعة أيام للسرد؟ أنا أتشوق لرواية كل شيء هذه الليلة. إنك تستغرب الآن! لم أكن في السابق هكذا، كنت منطوياً على نفسي لا أتكلم إلا نادراً. لكنني بعد أن رأيت ذلك العالم انفتحت أقفال لساني. في فمي الآن عشرة ألسن يا مارتين. يدي اليمنى مشلولة. اعذرني أريد القول إن أصابع يدي اليمنى مشلولة. لقد شلَّت عضةُ ذلك الحمار أصابعي. كانت أسنانه مسمومة كأنياب الأفاعي. لم أعد قادراً على الكتابة. لكن اللسان الذي في فمي قادر على الحديث أكثر من قسيس. أنا أحفظ كل ما جرى لي من أحداث منذ أن أصبحت عاملاً في شركة براندنبورغ الأفريقية الأمريكية وحتى اللحظة التي التقيت فيها بك وأريد أن أحكيها كلها دفعة واحدة. لم يبق سوى بضع خطوات ونصل إلى باب الحانة. آها! لقد نسيت أن أخبرك أن هانس قد مات. أمس حين وصلت إلى القرية مساء سمعت الخبر. كان رجلاً عجيباً، أليس كذلك؟ يقال إن موته كان عجيباً أيضاً. كان هانس رجلاً مضطرباً ويهرطق كثيراً. أتذكر؟ لم يكن راضياً عن أحد وكان لسانه يلهج دائماً بكلمات الهراطقة والفلاسفة الملحدين. لم أره يستشهد ولا مرة بآية

Twitter: @ketab_n

من آيات الكتاب المقدس. إن لم أكن مخطئاً فلقد وصلنا. نعم وصلنا. أوووه. هاهم أطلقوا على الحانة اسماً جديداً. أنظر: حانة تسور كورفه! (حانة المنعطف).

***

لم ينتبه غوستاف العائد حديثاً من أفريقيا لثرثرته ولا كان يأبه لصمت مارتين. كان يهذر بلا توقف مثل زخ المطر. بدا أنه سعيد كثيراً بعودته. لم يفسح المجال لمارتين لينبس ولو ببنت شفة. وهل كان بوسع مارتين أن يلفظ كلمة حتى لو أفسح له عوستاف مجالاً واسعاً للكلام؟ أراد غوستاف أن يفرغ كل ما في جعبته من حكايات دفعة واحدة لذلك دعاه إلى تناول فنجان من القهوة في حانة القرية.

وما إن وصل الاثنان إلى الحانة حتى وضع مارتين الذي أرهقه السفر حقيبةَ الدفاتر التي من دون عليها الوقائع التي جرت له من دون أن يضع الكتاب الذي كان يتأبطه. كان يخشى أن يلفت الكتابُ نظرغوستاف فيسأل عنه وهو لا يستطيع الإجابة. حزن كثيراً حين سمع قبل قليل أن هانس قضى نحبه. لكنه لم يكن قادراً على التعبير عن حزنه.

عزم مارتين على أن يسلم الكتاب إلى هانس بالذات. كان يريد أن يمنح كتاب السعادة لذلك الرجل الذي أرسله إلى تلك الأصقاع

Twitter: @ketab_n

النائية. تمنى أن يعطي هانس دفاترَه الثلاثة التي سرد فيها قصة حياته الطويلة ليطلعه على سحر الشرق الحقيقي. لكن هانس كان قد مات الآن. وبحسب رواية القرويين الذين سردوا الواقعة لغوستاف في الليلة الماضية فقد خرج هانس عارياً ذات ليلة إلى الطرقات وبدأ بالرقص، رقص بأشكال شتى حتى تجمع حوله الناس وأراد بعضهم أن يلقي عليه ثوباً يستر عريه. لكنه لم يمكِّن أحداً من ذلك. ظل يرقص هكذا من دون أن يتفوه بأي كلام حتى سقط صريعاً. كان الشيطان قد ركبه. هكذا زعم أهل القرية وقسيسها.

كانت الحانة هادئة. جلست عجوز بالقرب من موقد يعلوه رفٌّ زينتْه زجاجات الشراب وبحضنها قطة مرقطة طويلة الوبر[1]. وحين دخل الرفيقان لم تأبه بهما العجوز إطلاقاً بل بقيت تمسد قطتها. ولما أخبرها غوستاف أنه ورفيقه جاءا ليحتسيا قهوة أشارت بصمت إلى مكان ما. ذهب غوستاف وجاء بركوة زرقاء منقطة بالأبيض. كانت تلك هي الركوة القديمة نفسها التي كان يستعملها هانس في الحانة قبل تسع سنوات.

لم تهتم العجوز بهما. نهضت بتثاقل ووضعت القطة الناعسة على أحد الرفوف ثم جلست ملتقطة كرة صوف حاملة أسياخاً وشرعت تنسج جوربين بدا أن نسجهما لم يكتمل بعد. كان في إحدى زوايا الحانة

(1) تلك العجوز كانت أخت هانس الصغرى هيدفيك التي اغتصبها الجنود الإسبان مع أختيها. بعد موت هانس تركت هيدفيك حياة الرهبنة في أمستردام وعادت لتدير الحانة في هيرنه مكان أخيها.

Twitter: @ketab_n

شاب قادم لتوه من مولهاوزِن يعزف على الكمان نغمات هادئة. قلَّب الشاب بين فينة وأخرى دفتر نوطات موسيقية. توقف قليلاً ثم مسح الأوتار بحجر القلفون وعاد للعزف بعينين مغمضتين. بالقرب من إحدى النوافذ جلس عجوز بلحية بيضاء يطالع كتاباً[1]. وفي مواجهة ذلك العجوز وقف رسام يلف على عنقه شالاً أحمر طويلاً بلغ طرفاه فخذيه، كان يحدق في الرجل العجوز ثم يغمس فرشاته في حاملة الألوان ويضرب بها على القماش الأبيض المشرع أمامه. لم ينتبه أحد إلى أحد ولم يعكر أحد صفو الحانة ذلك الصباح إلا مرة واحدة نزل فيها فتى يرتدي سترة بيضاء. كان نادلاً نزل من الطابق العلوي وصار يجمع الفناجين والأطباق من الطاولات ثم ذهب واختفى في غرفة بجانب المطبخ فيما كانت فتاة ذات صدرية خضراء وقبعة بيضاء تتجول هنا وهناك وتخدم بصمت.

تأرجحت نظرات مارتين بين زرقة ركوة القهوة وزرقة عيني غوستاف مثل رقاص ساعة فأدرك غوستاف ما الذي يقصده صديقه

(1) لو اقترب أحدهم من العجوز لرأى بيسر وسهولة هذا العنوان المكتوب بحبر أحمر وأسود على الغلاف: «*Der abenteuerliche Simplicissimus Teutsch*». تلك كانت رواية ألفها هانس جاكوب كريستوف المشهور باسم جيرمان شلايفهايم وطبعت قبل سنوات في نورنبرغ وهي تتحدث عن حرب الثلاثين عاماً في أوروبا. كان العجوز يضحك أحياناً ويعبس أخرى. لكن بدا جلياً أن الرواية تعجبه وهو غارق فيها حتى إنه لم يرد على النادل النعسان ذي السترة البيضاء حين نزل من الطابق العلوي وجمع الفناجين والأطباق الفارغة ووقف عنده وسأله إن كان يريد شرب شيء آخر؟ وبدل أن يرد بنعم أو لا، طفق يمسح دموعه التي سالت من كثرة الضحك ثم بلل إبهامه ليقلب بها صفحة أخرى.

Twitter: @ketab_n

بتلك النظرات. رفع فنجانه إلى شفتيه وارتشف منها رشفة ثم قال ضاحكاً:

- من يتغرب عن وطنه يشتاق إلى كل شيء في الوطن. أليس كذلك؟

- آ.

ومع لفظ تلك ال «آ» بقي فم مارتين مفتوحاً فتناول فنجانه وتناول منه رشفة طويلة. بدا غوستاف أنه لم يعد راغباً في الكلام كما كان عليه قبل قليل حيث تناثرت الكلمات من فمه كما تتناثر حبات الكستناء في الخارج أمام ريح الخريف الباردة. ربما كان صمت صديقه جعل حماسه في الحديث يفتر فسكت لبرهة قصيرة ثم تحمس مرة أخرى فقال:

« هل تعرف؟ كدت أنسى حتى اسمي في هذه السنوات الطويلة. يا رجل! أية بلاد كانت تلك البلاد يا مارتين؟ الشمس تعلو رأسك بقدر رمح. تكاد تلمس قرصها اللاهب لو بسطت يدك إليها. هللويا. شمس حادة لامعة تخالها ديناراً ذهبياً يلتصق بتلك السماء الزرقاء. أما تلك الثعابين الضخمة! صدقني إنها تستطيع ابتلاع الفيلة. أنت لم تر فيلاً في حياتك أليس كذلك؟ إنه حيوان عجيب».

سكت غوستاف عدة ثوانٍ، ضيق عينيه وصار يحدق إلى جهة ما وكأنه يتذكر حادثة. ثم مد يده إلى جيب في سترته من الجوخ الإنجليزي وقال: «في بداية وصولي، وبعد أن قضيت عدة أيام في مستعمرة كروس فريدريشبورغ، أخذوني إلى مكان في الشرق مليء بالفيلة حيث كانت أنيابها العاجية تشحن بكميات كبيرة على السفن إلى إسبانيا والبرتغال

.

Twitter: @ketab_n

وفرنسا وسورينام وهولندا. في تلك المنطقة عملت عند أحد التجار في صيد الفيلة، كان ذلك التاجر يرتدي قبعة بيضاء ويحمل في يده عصا رفيعة على الدوام. كنت أنا ورفاقي نحفر في النهار حفراً كبيرة ثم نغطيها بأغصان الأشجار وأوراقها لنموهها. وما إن تغرب الشمس حتى تأتي قطعان الفيلة فيقع أحد أفرادها في حفرة من الحفر فننهض إليه صباح اليوم التالي ونقتله وننزع نابيه أو ننشرهما بمنشار خاص لنعطيه لرب العمل. وأحياناً لم نكن نقتل الفيل بل نتركه في الحفرة يموت أو نأخذه معنا أحياناً لحاجتنا إليه في رفع الأحمال. لقد بدأت حياتي في أفريقيا بقتل الفيلة لكن انفتحت أمامي فيما بعد أبواب حياة أخرى».

ثم أخرج غليوناً أبيض ومده إلى مارتين وهو يقول فرحاً: «هذا الغليون من العاج. أنظر كم هو صقيل وجميل! لا يمكن أن تجد مثله إلا لدى الأمراء». مد مارتين يده ببرود، نظر إلى الغليون وتفحصه، زفر زفرة طويلة ثم أعاده لغوستاف الذي كان يحك صلعته. ملأ غوستاف، من دون أن يفهم مغزى تلك الزفرة، غليونه تبغاً ووضعه بجانب فنجان القهوة ثم قال:

- أتعرف يا مارتين! لو قلت لك إنني قتلت بيدي مئة فيل فصدقني. مئة فيل يعني مئتي ناب عاجي ثمين. كسبت مالاً وفيراً من تلك الأنياب.

- أووووووووه.

تعجب مارتين لكنه لم يتكلم. نهض غوستاف وحمل جمرة من الموقد

Twitter: @ketab_n

ووضعها على رأس الغليون وأشعل تبغه ثم قال: «أجل. ألم أقل لك إنه كان عالماً آخر؟ لا يشبه هذا العالم أبداً، لا بطقسه ولا بمخلوقاته. ربما تبادر إلى ذهنك الآن سؤال عن الذي أخذني إلى هناك؟ إنك محق في السؤال. أما أنا فأعرف ما الذي أخذ بك إلى الشرق. كتابٌ وأحلام هانس وسراب السعادة ثم الحقيقة المزيفة. أما أنا فقد ذهبت ورأيت الحقيقة بأم عيني. الحقيقة غير المقنعة التي تشبه فتاة أفريقية عارية تماماً. الحقيقة السوداء. لقد شممتها وتذوقتها أيضاً. لمست بشرتها الخشنة. أنا ذهبت وجئت بالقصص معي. غصت فيها. من كل قصة جرت معي يمكنني تأليف كتاب من ألف صفحة. لكن واأسفاه فقد تيبست أصابعي. سأقص عليك كثيراً منها لتقارنها بقصص الكتب التي لا أعرف هل جلبتها معك أم لا. كن منصفاً وأخبرني بعد ذلك أيهما أفضل. هل أحضرت الكتب؟ ها ها. حتى لو أحضرتها فلا لزوم لها. لقد مات هانس الذي طلب الكتب وانتظرها.

لو انتظرت شهراً قبل أن تهاجر وترحل إلى الشرق لانضممت مثلي إلى عمال شركة براندنبورغ الأفريقية الأمريكية ولكسبت كثيراً من المال. هل تتذكر؟ أخبرتك أليس كذلك؟ حين ذهبت مع قوات الأمير أوجين إلى المجر لم أكسب من خدمتي سوى ثمانية تالرات. أما في أفريقيا فنكسب مقابل صيد كل زنجي عشرين آلبوساً أي أن المرء يكسب تالراً كاملاً من وراء صيد عشرين زنجياً. عمل رائع ويسير!». لم يشأ غوستاف أن يتوقف عن الحديث، أما مارتين فلم تكن لديه

Twitter: @ketab_n

أية رغبة في سماع المزيد. أصبح الجو أدفأ مما كان. وتناثرت أوراق الأشجار التي أبدع الخريف في تلوينها بالأحمر والأصفر والبني حتى غطت الأرض بينما كان الأطفال يجمعون بفرح عارم ثمار الكستناء التي تسقطها الريح ثم يقشرونها ويأكلونها.

بعد برهة صامتة قصيرة تمناها مارتين أن تدوم إلى الأبد، انفرجت أسارير غوستاف وقال:

- كما أننا بنينا عدة كنائس هناك وهدينا تلك القردة السوداء إلى السبيل الحق.

***

كانت العجوز، التي وضعت قبل قليل قطتها على رف فوق الموقد وشرعت تنسج جوربين لم يكتملا بعد، تضع بين حين وآخر كرة الصوف من يدها ثم تُبعِدُ عنها الدعاسيقَ وتضعها برفق على كفها. فردت الدعاسيق أجنحتها الشفافة وأخرجتها من تحت تلك الأغلفة الحمراء المقببة كفصوص الخواتم والمنقطة بخيلان سود ثم طارت صوب الخارج لتنعم بأشعة الشمس[1].

(1) أصبحت تلك الدعاسيق رفيقات حميمات للعجوز هيدفيك. كانت تبث لها أحزانها وهمومها وتأنس بها. لم تكن تلك الدعاسيق رمزاً للحظ كما يدعي الناس بل تذكاراً لأيام سوداء ووقائع مرة وأحداث أليمة. فحين ماتت أختاها، هيرتا وهيرمينه الواحدة وراء الأخرى بمرض مجهول انتفخ جراءه بطناهما، كانت ثمة دعاسيق على جبهتي كلتيهما.=

Twitter: @ketab_n

جاء بضعة نزلاء استيقظوا للتو فجلسوا إلى طاولاتهم. ظهر أنهم يعرفون أماكن الأشياء وليست هي المرة الأولى التي يرتادون فيها الفندق ويبيتون فيه حيث قام كل واحد منهم وجلب فطوره بنفسه. حدق بعضهم ملياً في مارتين وزيه الغريب، نظروا إلى كشكوله الكبير بجانب قدمه ثم تناولوا طعامهم. أخرج غوستاف ثلاث قطع بيضاء من جيبه ووضعها في فنجان القهوة الذي أمامه، ثم قال وهو يحرك القهوة بملعقة خشبية[1]:

- كثير من رفاقي يحتسون القهوة مُرَّةً لكنني لا أقدر على ذلك. لا أشربها إلا حلوة. وهذه.....

رشف رشفة من القهوة ومزمزها في فمه مستطيباً إياها ثم قال:

- وهذا الذي وضعته في القهوة هو السكر. صنع في سورينام. ليس كل واحد بإمكانه الحصول عليه. إنه نوع فاخر من السكر لا

= لم تشأ هيدفيك أن تخبر أخاها هانس بموتهما لكن الراهب الأكبر في الدير الذي كانت الأخوات الثلاث يخدمن فيه أرسل له الخبر. ولقد كان هناك في الدير راهب يراود هيدفيك عن نفسها بعد أن افتتن بجمالها ولحمها الأبيض البض. وذات مساء وجدها لوحدها، كانت صديقاتها قد خرجن لصلاة المساء. جذبها الراهب إلى حضنه وفك خيوط صدارها فتخدرت هيدفيك وغابت عن الدنيا. وحين قام عنها، قامت هي أيضاً فشدت الخيوط وذهبت لتنظر من النافذة فرأت على حافتها دعسوقاً يسافد دعسوقة في ضوء فوانيس الزوارق. كانت كلما يأتيها الراهب ترى ذينك الدعسوقين وتتعجب.

(1) «رأى كانديد زنجياً هناك، كانت يده ورجله مقطوعتين فسأله ما الذي جرى لك؟ أجابه الزنجي: هذا ما فعله بي رب عملي السيد فاندردندور. إننا نعمل في مصانع السكر فإذا أخطأ أحدنا ووقعت أصبعه بين أسنان الآلة مثلاً فإن المسؤول يقطع يده، وإذا أراد أحدهم الهرب من المصنع يقطعون إحدى قدميه. إن هذا هو ثمن السكر الذي تتناولونه في أوروبا». من رواية كانديد. فولتير.

Twitter: @ketab_n

يستعمله إلا الملوك والأمراء يا مارتين. هذا هو الذهب الأبيض. أتريد قطعة منه؟

هز مارتين رأسه من دون أن يفهم غوستاف من هزته تلك أهي نفي أم إيجاب، ثم تثاءب حتى بدت نواجذه النخرة. نظر إليه غوستاف فوجد أن عينيه قد احمرتا من قلة النوم فعمد إلى فنجانه وملأه من جديد ثم ألقى فيه قطعة سكر وقال:

- اشرب قهوتك. ها قد حليتها لك بالسكر. اشربها وسترى كيف تتغلب على نعاسك. إنك تبدو مرهقاً جداً ومضطرباً يا مارتين.

فتح مارتين فمه ليتثاءب من جديد حتى رأى غوستاف حلقه فأشفق عليه وقال:

- سنسهر الليلة في الفندق ونتسامر ثم يذهب كل واحد إلى بيته. وإن طالت سهرتنا فسنبيت ليلتنا فيه. هيا قم واستلم مفتاح إحدى الغرف مادامت العجوز لم تنم بعد. لن تهنأ بقصتي وأنت نعسان هكذا. نل قسطاً من الراحة.

ثقل النعاسُ على مارتين. لم يعد يود سماع ثرثرات صديقه فهو لم ينم ليلة البارحة. وقبل ذلك كان قد خرج وقت الفجر من نُزُلٍ في أمستردام أمضى فيه ليلة واحدة ليستقل عربة يجرها بغلان.

كانت الطريق التي تمر بالقرب من نهر الراين وعرةً صعبة المسالك لذلك لم يستطع مارتين لا النوم ولا الكتابة. منعته فرحة العودة من النوم فحاول مشاهدة القرى والأنهار والأشجار والأديرة وحتى

Twitter: @ketab_n

النجوم من خلال غبش الفجر. لم يكن قد رأى منذ وقت بعيد نجوم بلاده التي لا تشبه نجوم الشرق.

أراد مارتين أن يبقى يقظاً إلا أن جلوسه إلى غوستاف واستماعه لذلك الزخ من حكاياه زاده نعاساً. لذلك حين قال له غوستاف اذهب وأحضر مفتاحاً، هب سريعاً وذهب إلى العجوز وبحركة من يده يقلد بها فتح الأبواب أفهم العجوزَ أنه بحاجة إلى مفتاح فقامت وأعطته مفتاحاً فأسرع إلى الطابق العلوي ليرى أن هناك غرفاً عديدة على صفين. وبدون أن يجهد نفسه وضع المفتاح في قفل أحد الأبواب فلم ينفتح، جرب الباب الثاني فكان كالأول، وانفتح الباب الثالث.

كانت تلك غرفته. جدران عارية لا يزينها سوى كمان معلق على أحدها بدا أن أحداً نسيها وراءه أو أنها وضعت هناك للزينة. أغلق مارتين الباب من الداخل، نزع حذاءه أخرج الكتاب الذي جلبه معه من الشرق ووضعه تحت الوسادة ومن دون أن يخلع ثيابه رمى بنفسه على سرير أسفل النافذة. تذكر أنه نسي أكياسه في الأسفل لكنه لم يشأ النزول. لم تمض ثانيتان حتى صار يغط في نوم عيق.

***

Twitter: @ketab_n

ملَّ غوستاف ذو اللحية الصهباء من الوحدة بعد أن تركه رفيقه. كان يريد أن يكمل حكايته فجال بعينيه على النزلاء حتى رأى شاباً أسمر البشرة أسود الشعر يجلس وحيداً يدخن الغليون. ظن غوستاف أنه إيطالي فحمل فنجان قهوته ومضى إليه وقال:

- Posso sedermi qui? [1]

- ولم لا! تفضل.

- أنا غوستاف. غوستاف آلبوس من هذه القرية.

- اسمي فرناندو. فرناندو دي لا مارا. أنا إسباني.

لم يكن فرناندو أقل رغبة في الثرثرة من غوستاف فلمعت في عينيه السوداوين أضواء الخارج وشهوة الكلام. غاب وجهه الأسمر في دخان الغليون الذي أبقاه في فمه ثم أخرج من جيبه غليوناً آخر على هيئة رأس عجوز ملتحٍ وعلى رأسه عمامة. ملأ الغليون تبغاً وقدمه لغوستاف:

- تفضل جرب هذا التبغ الجيد.

- أوووووه. شكراً.

وما إن أشعل غوستاف التبغ وأخذ أول نفس حتى قال هازاً رأسه:

- هذا تبغ كوبي! لا تقل لا.

- هذا صحيح. يبدو أنك خبير بالتبوغ! هل تعرف أيضاً من أين أتى هذا الغليون؟

(1) بالإيطالية: هل أستطيع الجلوس؟

Twitter: @ketab_n

- همممم! لا. لم أجد غليوناً بهذه الروعة.

- إنه من أَسْكي شَهِرْ في بلاد العثمانيين. اشتريته من حفيد جنديٍ غنم هذا الغليون في حرب بحرية. أخرجه من جيب قبطان عثماني.

- هللويا. Perbonus meus amicus [1]

أخرج فرناندو الغليون من فمه ووضعه أمامه ثم طفق يتحدث لمارتين عن نفسه: «أنا فرناندو دي لا مارا من بلدة بلباو البحرية في إسبانيا. أنا تاجر تبغ منذ أن كنت أقيم في بلباو. كنت أشتري التبغ الذي يأتي إلى الميناء من كوبا وأذهب لتصريفه في فرنسا وبلجيكا وهولندا وحتى الإمارات المتناحرة حول نهر الراين. لقد أوصلت التبغ بنفسي إلى كثير من الأمراء والقادة العسكريين والموسيقيين والرسامين ولي مع كل هؤلاء علاقات طيبة. ازدهرت تجارتي لكن الحرب أثرت عليها كثيراً واضطرتني إلى أن أغادر موطني فاستأجرت منزلاً في أمستردام. صرت أترقب السفن القادمة من كوبا لأشتري التبغ من التجار القادمين من هناك. حدثني صديق من ويستفاليا عن قصر شترونكده الموجود في هذه القرية، وأخبرني أن مالك القصر كونت يهوى التدخين كثيراً. حدثني عن غليونه الطويل وسهرات التدخين التي يعقدها في القصر. والآن أنا هنا بغاية أن أكسب قليلاً من المال وقد أتيت معي ببعض من التبغ».

---

(1) هذا رائع يا صديقي. باللاتينية.

Twitter: @ketab_n

لم يكن غوستاف يصغي إلى فرناندو، لكنه ولكي يظهر أنه مستمع جيد سأله:

- أتشتاق إلى وطنك؟

نفث فرناندو دخاناً كثيفاً ثم قال بعد برهة قصيرة:

- وطن؟ وطني هو حيث أستطيع بيعَ تبغي بحرية.

كان الاثنان منخرطين في ذلك الحديث حين رأى غوستاف من خلال غلالة كثيفة من الدخان رجلاً جاء وحمل الأكياس التي فيها الكتب بجانب إحدى الطاولات وذهب إلى الطابق العلوي. لم يهتم غوستاف لأمره ولم يدقق في هويته معتقداً أنه مارتين وقد جاء لأخذ حاجياته فانصرف للتدخين.

كان فرناندو قد حضر إلى القرية إذاً ليزور مالك القصر المسمى يوهان كونراد ويبيعه التبغ. فلقد اشتهر القصر في تلك الأنحاء بعد أن أشيع أن السيد كونراد يعقد جلسات التدخين ويدعو أبناء الطبقة العليا في تلك المنطقة إليها. كان الأكابر يأتون من دورتموند وبوخوم وريكلينغهاوسن وإيسن إلى هذا القصر المائي ويقضون ليالي السمر المليئة بالدخان.

لم يهتم غوستاف الذي لم يكن قد انتهى من قصصه بعد، لأمر فرناندو الإسباني وشرع يحكي قائلاً: «وصلت سفينتنا إلى ميناء إمْدِن قبل أسبوع. وأنا وصلت البارحة إلى هنا. لا أعرف كيف لي أن أساعدك. لقد تركت قريتي منذ زمن بعيد. كنت في غانا. كنت عاملاً في شركة

Twitter: @ketab_n

براندنبورغ الأفريقية الأمريكية. هل تعرف غانا؟ إنها في غرب أفريقيا. بلاد بعيدة».

وحين آنس غوستاف من جانب فرناندو صمتاً واهتماماً، طاب له أن يسرد قصته من البداية.

***

«فرناندو. أيها الشاب الطيب، الإسباني العزيز. اسمع قصتي فسأنهيها مع حلول موعد الغداء. ثم سنذهب إلى قصر شترونكده المائي. سيشتري مالك القصر كل تبغك. لكن اسمع قصتي الآن لأنني إن لم أسردها اليوم فسأنفجر غيظاً. لقد حاولت مئة مرة أن أسردها للركاب ونحن على متن السفينة تلفحنا النسمات المنعشة ورذاذ الموج المالح لكن أحداً لم يسمع قصتي إلى النهاية. كانوا يتركونني في منتصف الحكاية ويذهبون ليشاهدوا الأمواج والحيتان الكبيرة. كانوا يتركونني وينزلون إلى عنبر السفينة ليضاجعوا الزنجيات أو ليسرق بعضهم نقود بعض ويشربوا الخمر ويلعبوا القمار. أليسوا مجانين! لي صديق هو رفيق الطفولة والشباب ذهب قبل قليل لينام من دون أن يستمع لبقية القصة. لقد فضَّل النوم على سماع الحكاية. فليشبع من الأحلام إذاً. لا تخف فلن أطيل القصة بل سأختصرها لك. لو لم تكن أصابعي مشلولة لألفت كتاباً عن الأعوام التسعة التي قضيتها في تلك البلاد.

Twitter: @ketab_n

كما قلت لك فإنني سأنهي القصة حتى موعد الغداء فإن لم تنته فالمساء أمامنا. لن تبلغَ الساعةُ السابعةَ حتى أكون قد انتهيت منها. إنها تسع سنوات لكنني سأقفز فوق الأعوام. لن أقول إلا المهم، لن أتحدث عن أنواع الأزياء والثمار والحيوانات كما أنني لن أحدثك عن عدد السفن التي حمَّلناها بالعبيد أيضاً. سأسرد كل شيء بإيجاز.

سأبدأ من أول يوم حيث تلقيت رسالة من أحد الأصدقاء. كان ذلك الصديق رفيقَ سلاح قاتلنا سوية تحت راية واحدة، راية الأمير أوجين البطل، قاتلنا الكفار العثمانيين في زِنتا. تلك الرسالة أخرجتني من مستنقع الحياة في هذه القرية. أنظر! هاهي ما تزال معي».

وضع غوستاف يده اليسرى في جيبه وأخرج منها رسالة عتيقة وصار يقرأ:

«غوستاف العزيز،

وصلت إلى البيت قبل أيام. أردت أن أكتب لك الرسالة على الفور فحاولت ذلك وأنا على ظهر السفينة لكن الغثيان لم يعطني فرصة. إن دوار البحر ما زال يلازمني ولم أجد له إلى الآن أي علاج. لقد تعافيت الآن قليلاً وها أنذا أخط إليك هذه الرسالة.

إنني أعمل في شركة تجارية. شركة تنشط في التجارة بين أفريقيا وأوروبا وأمريكا ولقد كسبت خلال سنتين مالاً وفيراً لا يستطيع الجندي كسبه في عشر سنوات من الخدمة العسكرية. إن أردت العمل فأخبرني بذلك فسنذهب في الشهر القادم عبر ميناء إمدن. تستطيع

Twitter: @ketab_n

القدوم وسنلتقي هناك، في فندق قريب من مبنى البلدية اسمه دير سيغل. معروف جداً».

ما إن أنهى غوستاف قراءة الرسالة حتى نظر إلى وجه فرناندو. قرأ بعض الاهتمام على ملامحه لكنه أراد أن يلفت نظره أكثر فأعاد الرسالة إلى جيبه واستند بمرفقه اليمين على الطاولة واضعاً جانباً من وجهه في كفه واستمر يحكي:

«كان اسم ذلك الصديق باول فوركيرون من برلين. قبل عشرين عاماً هاجرت عائلته مع كثير من المسيحيين الكالفينيين هرباً من الكاثوليك والملك لويس حيث وصلوا أولاً إلى هيرنه ثم توجهوا إلى مملكة براندنبورغ.

في السنة التي قضتها عائلة باول في هيرنه صرت صديقاً له. بعد ذلك انتقلوا إلى برلين لكننا التقينا ثانية في الجيش وكنا في خيمة واحدة. وحين عدنا من الحرب انضم باول إلى شركة براندنبورغ الأفريقية الأمريكية لينتقل إلى غانا التي يسمونها ساحل الذهب.

رسالة باول أربكتني. أأذهب أم لا؟ كان صديقي مارتين قد سبقني إلى الشرق وهو يسعى خلف حلم سرابي من الحبر زينه له صاحب هذا النزل المرحوم هانس هايلبرغ. وقد وصل مارتين هذا الصباح إلى هيرنه في هيئة مجنون. صدقاً كان زيه زي أحد المجانين ويثير الضحك. لم يكن يتكلم ولم أستطع أن أجعله يستمع لقصتي. لم يصغ إليَّ ولم يحك لي قصته. إنه يغط الآن في نوم عميق في الطابق العلوي.

Twitter: @ketab_n

نعم ارتبكت حينذاك. كنت أريد أن أغادر قريتي وأرى الدنيا الواسعة. كنت مثل كثير من الشباب أبحث عن مغامرة أو حياة تشبه تلك التي في الروايات. ذهبت واستشرت هانس العجوز فقال لي: «لا أعرف تلك البلاد لذلك لا أستطيع أن أشجعك على الرحيل كما أنني لا أمنعك أيضاً. الشرق نورٌ. فإن ذهبت إلى هناك ساعدتك. لكن تلك البلاد التي تنوي الذهاب إليها!! أنت حر. قرر بنفسك». تركني هانس هكذا معلقاً في الهواء. لكنني اتخذت قراري. ما الذي كنت سأفعله لو بقيت في هذه القرية؟ ها؟

خرجت من هيرنه ذات صباح بارد تتساقط فيه الثلوج. اتجهت شمالاً سالكاً طريق مونستر. بعد ثلاثة أيام وصلت إلى إمدن. كانت رائحة الأمواج المالحة تفوح. طارت النوارس فوقنا وصارت تحوم حتى قبل أن نصل لتبشرنا بقرب الميناء. توجهت إلى فندق دير سيغل الذي أشار إليه باول في رسالته والتقينا هناك.

لقد وعدتك يا فرناندو أيها الإسباني الطيب ألا أطيل عليك. لن أقول لك ما الذي صادفناه في الطريق. ما زلت على وعدي. لن أقول إن العواصف والأمواج كادت أن تقضي على رجولتنا. لن أقول إن الحيتان كادت أن تقلب سفينتنا. لا لن أسرد لك هذه الأمور. لكنني سأحكي لك باقي الأحداث باختصار. اتجهنا أنا ورفيقي باول في ظلال راية بيضاء يزينها نسر أحمر على متن الفرقاطة المسماة «فريدريش فيلهلم تسو بفيرده» مع حوالي مئتي شخص إلى غرب أفريقيا.

Twitter: @ketab_n

كان ممثل مملكة بروسيا قد أنشأ مستعمرة هناك سماها كروس فريدريشبورغ تشبه قلعة كبيرة في هيئة نجمة. جدرانها شاهقة وفيها بوابتان حديديتان وبجانب القلعة سجن كبير يضم العبيد الذين يتم اصطيادهم. كنا بالعشرات فوق ظهر تلك الفرقاطة، وقف رماة البنادق والطوبجية على الأطراف فيما كدس تجار براندنبورغ البضائع المختلفة من بنادق وخيول وألبسة قطنية وخمور بأنواعها المختلفة في العنابر في بطن السفينة. كنا نغني ونبتهج ونحن في العنابر ونخرج أحياناً إلى سطح السفينة لنتفرج على الزبد الأبيض الذي تخلفه السفينة وراءها. كانت الراية البيضاء التي يزينها نسر أحمر في الوسط ترفرف على إيقاع ريح رخية يرفرف معها قلبي أيضاً. كنا نقترب يوماً بعد يوم من تلك الشمس الذهبية الساطعة. شمس دافئة وقريبة من المرء سماها باول مظلة النار. لن أوجع رأسك يا فرناندو. بعد مدة وصلنا إلى شواطئ أفريقيا الغربية فلاحت لنا من بعيد جزيرة غوريه. غالبني النعاس وأنا أتمدد على بكرات الحبال الكبيرة لكن باول دعاني إلى النهوض ومشاهدة تلك الجزيرة التي تلقب باب اللاعودة *La porte de non retour*[1]، وأعطاني منظاراً كان في يده وهو يقول: «هذه جزيرة

(1) باب اللاعودة. هكذا لقبوا تلك الجزيرة. كان العبيد الذين يتم ترحيلهم إلى أمريكا يودعون بلادهم وداعاً نهائياً. ومن كان الذي سيعيدهم؟ ومن هو الذي سمى الجزيرة كذلك؟ أهم العبيد الذين كانوا يُفصَلون عن أرضهم وأهاليهم وأطفالهم أم هم الأسياد الذين أطلقوا الاسم مثل نكتة فجة كما سموا الأرض والسماء والجبال في بلاد الآخرين؟ لا أحد يعلم.

Twitter: @ketab_n

تسبب ثراء أوروبا وأمريكا بإفراغ أفريقيا من سكانها. فبالقدر الذي تُفَرَّغُ فيه أفريقيا من سكانها تمتلئ خزائن أوروبا بالذهب. أترى كم هي صغيرة هذه الجزيرة؟»

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة صباحاً. لمعت الشمس المسجورة فوق رؤوسنا مثل دينار ذهبي مشتعل. هللويا.

***

Twitter: @ketab_n

الساعة الحادية عشرة

حين أعلن ناقوس الكنيسة عن الحادية عشرة تماماً، كان طالب اللاهوت القادم من مونستر والمتجهُ إلى كولن على نفقة المطران فرانز آرنولد الذي نصبه البابا كليمنت الحادي عشر على كرسي مطرانية مونستر قبل عام، يتمدد في إحدى غرف النزل في الطابق العلوي فأراد أن يلقي نظرة عبر النافذة على الخارج[1]. لمح ضباباً يلف القرية رويداً رويداً حتى امتلأت الشوارع بذلك البياض الرطب وغابت الأماكن البعيدة عن الرؤية. تصاعد الضباب والتف كأفعى على برج الكنيسة. أراد طالب اللاهوت أن يروح عن نفسه قليلاً فنزل إلى الأسفل. لفتت نظره طاولة فارغة بجانبها بضع حقائب. مشى إليها فرأى في إحداها عدة مخطوطات. نظر فيما حوله فأدرك ألا أحد يراقبه. استفسر عن صاحب تلك المخطوطات من العجوز فقالت من دون أن ترفع

(1) كانت عائلة بوريسلاف الذي غير اسمه إلى كارل بعد اعتناق اللوثرية وأصبح شماساً في هيرنه قد هاجرت مثل كثير من العائلات إلى أمريكا. هو لم يشأ أن يهاجر معهم بالرغم من إلحاحهم الشديد. لم يفهم أحد سر تعلقه بهذه القرية وكنيستها. وحده جورج الصبي الخادم في الكنيسة كان يعرف ذلك. لم يكن جورج يعرف ذاك السر فحسب، بل كان شريكاً يقاسم كارل سره.

Twitter: @ketab_n

رأسها: «وهل تراني حارسة مخطوطات؟ فلتكن أنت صاحبها».

قال طالب اللاهوت في نفسه إنه سيرى ما فيها ويطالعها إلى المساء ثم يعيدها إلى مكانها. وهكذا حمل حقيبة المخطوطات وصعد بها إلى الأعلى. هناك أغلق النافذة ثم أنزل الستائر وخلع حذاءه الطويل حتى ركبتيه وتمدد على السرير وأخرج المخطوطات. كانت ثلاثاً فوضعها على إسكملة خشبية بجانب رأسه. ولما أمعن فيها النظر وجدها لا تشبه مخطوطات أوروبا. فكثيرٌ من صفحاتها مكتوبٌ على عجل، الأوراق خشنة والغلاف الجلدي مزين بنقوش إسلامية: نجوم وخطوط متداخلة. غلاف كل مخطوطة مزين بخط جميل باللاتينية بحرف، الألف والباء والجيم. تناول طالب اللاهوت المخطوطة ألف وهي أثخن المخطوطات وتزين جدرانَها الداخلية رسومٌ ونقوش جميلة، وشرع يقرأ منها غير عابئ بالشخير الذي كان يعلو من الغرفة التي بجانب غرفته:

***

درجت العادة لدى الغالب الأعم من المؤلفين في أوروبا الذين يتنطعون للكتابة عن المشرق أن يصفوا الدروبَ التي سلكوها والوديان والشعاب التي اجتازوها والقرى والمدن التي عبروها والأسواق والبازارات التي زاروها والحيوانات التي شاهدوها

Twitter: @ketab_n

والأنهار التي خاضوها والشوارع والأزقة التي مشوا فيها والأديرة والمساجد التي رأوها والمذاهب والأديان التي عرفوها. لم أقرأ أبداً فيما قرأتُ كتاباً يتحدث فيه مصنفه عن نفسه وعن حياته، عن حركاته وسكناته، مشاعره ورغباته. ولقد أدركت من ذلك أن المرء لا يجد نفسه في المشهد العام للبلد الذي يزوره، لا ينتبه لنداء ذاته التي هي الأساس. إنه ينشغل بالخارج وينسى داخله فلا يسمع صدى روحه. يرسم بقلمه صورة واقعية للجبال والسهول في البلدان التي يزورها لكنه لا يقدر على التحدث عن وديان وهضاب وسهول حياته.

أما أنا فلا أريد أن أقتفي آثارهم. سأعود إلى أعماق روحي وأتحدث عن حياتي الخفية. سأفصح عن حقيقتي من دون زيادة أو نقصان. وسأرفع الغطاء قدر ما أستطيع عن كل الجوانب المعتمة من حياتي، عن قذارة روحي، انتصاراتي وهزائمي، طيبتي وشري، حبي وكراهيتي، قوتي وضعفي، سروري وحزني، وباختصار سأنشر حقيقتي عارية كاملة العري كما يمد المرء بساطاً. لن أبسطَ حياتي كما أتخيل بل كما عشتها. سأعيد تلك الحياة بتفاصيلها وأدونها على هذه الصفحات وأقدمها للقراء حتى لو لم توافق هوايَ. لن أُلْبِسَ حقيقتي أي ثوب حتى لو ظهر كلُّ قبائحها في العري. والحقيقة عاريةٌ أصلاً فإذا أَلبستها أثواباً لم تعد حقيقة.

هذا أنا: مارتين سيتزر الذي غادر قريته هيرنه في مقاطعة مارك قبل سنوات عديدة وسار في دروب السعادة. وقد تسنى لي على تلك

Twitter: @ketab_n

الدروب، أن أعرف السعادة وألمسها، أعانقها، أشمها وأسمع صوتها، أتذوقها وأتأملها بعيني كما لم يتسنَّ لأحد قبلي. أجل السعادة. تلك التي كنت أبحث عنها ورأيتها أخيراً لكن في هيئة كأس من السم تجرعته. والآن، في هذا الخان بين حلب ودياربكر، بدأتُ تدوين فصول حياتي على هذه الأوراق البيضاء كما يدفع المرء طيور القطا إلى الفخاخ. أنا رجل هارب من القدر، تركت حلب ورائي. خائفٌ مشتتٌ مضطرب. سأتوجه إلى صديقي آلبرتو. هذه هي نهاية القصة ولكنني لا أحب البدء من النهايات.

***

كان ذلك يوم الاثنين السادس والعشرين من كانون الثاني. ودعت قبر أمي وأشعلت شمعة ثخينة ثم ذهبت لأودع صديقي غوستاف أيضاً تحت شجرة كستناء. كان صباحاً بارداً لا يبدو فيه ما يدل على الحياة سوى آثار الغربان والزرازير على الثلج. رافقني هانس هايلبرغ حتى خارج القرية، سلمني صُرَّة من الحرير الأحمر فيها بضع حبات قهوة محمصة وقال: «خذ. ستحتاجها في الأمسيات لدفع النعاس عن عينيك». وقبل أن أودعه انحنى على الأرض وحمل حبة كستناء ووضعها في يدي قائلاً: «إن لم تنزع عنها القشرة فلن تعرف أهي معفنة أم لا. وكذلك أنت يا مارتين. عليك أن تخرج من قشرتك». ووضعت

Twitter: @ketab_n

حبة الكستناء في جيبي كتذكار ثم عانقته وذهبت لأستقل حنطوراً يقوده حصانان بعرفين قصيرين وذيلين مجدولي الشعر.

سار الحنطور بجانب نهر الرُّور متجهاً إلى ضفة نهر الراين المهيب حيث سرنا بموازاته صوب أمستردام. نظرت إلى قريتي هيرنه وهي تتضاءل حتى صارت مثل شامة على صدر غانية حسناء. بدأ الألم يعصر قلبي، وعندما غابت القرية تماماً هبت ريح باردة من طرف النهر ولفحت وجهي فأشعرتني بدموعي التي أذرفها.

بعد ساعات طويلة وصلت إلى أمستردام. من هناك ركبت سفينة هولندية كانت متجهة إلى غرب أفريقيا. كانت السفن، حتى سنة رحيلي 1699 تسير في قوافل من حوالي عشر سفن خوفاً من قراصنة البربر وغيرهم ثم خفت هجمات القراصنة بعد توقيع اتفاقيات عديدة بين دول شمال أفريقيا والدول الأوروبية.

أنزلت تلك السفينة الهولندية بعض الركاب في طنجة ثم واصلت طريقها إلى غرب أفريقيا لتحمل العبيد وتتجه بهم إلى أمريكا. وطنجة التي نزلت فيها مع ركاب آخرين، مدينة كبيرة على ساحل البحر ما تزال رائحة الإنجليز الذين احتلوها خمسة وعشرين عاماً تفوح من حصونها وأسوارها. عادت المساجد التي تحولت إلى أديرة وكنائس في زمن الإنجليز إلى سابق عهدها وصار صوت الأذان يصدح من مآذنها المرتفعة. كانت تلك أول مرة أرى فيها مسجداً وأسمع صوت أذان. كان المسجد الذي زرته مفروشاً من الداخل بالبسط والسجاجيد

Twitter: @ketab_n

الفاخرة وقد رأيت المصلين يخلعون أحذيتهم ويغسلون أيديهم وأرجلهم حين يدخلون.

كل شيء كان جديداً في تلك المدينة. أشجارها ونباتاتها، سماؤها وأرضها وهواؤها وميناؤها وأنواؤها وناسها بسحناتهم ولغتهم، والرائحة التي كانت تفوح في الصباح وحتى لمعان نجومها وشروق شمسها. قلت في نفسي: هاهو سحر الشرق يبدأ من هنا. سألت بدافع الفضول عن اسم ذلك الكتاب الذي أسعى وراءه. كان كل من أسأله يقول لي: عليك بالشام وحلب أو بغداد لتظفر ببغيتك. كانوا يجيبون ثم يسرعون في الابتعاد عني. حتى أصحاب الحوانيت كانوا يقتضبون الحديث معي حين أساومهم على بضاعة ما. لم أفهم السبب إلا حين أمضيت سنوات في الشرق وأدركت أن السبب هو عيناي الزرقاوان ووجهي الكوسج وهذا من علامات الشؤم لدى الناس هناك.

ولكي أجعل نفسي قريباً من المجتمع، غيرت كثيراً من شخصيتي، هيئتي ولباسي وحتى لغتي. لكن عيني الزرقاوين بقيتا على حالهما مثل وجهي الكوسج. لم أبق كثيراً في طنجة بل اتجهت من هناك إلى الإسكندرية في مصر. كان ذلك يوماً مشمساً دافئاً طلق الهواء ركبت فيه سفينة فرنسية محملة ببضائع أوروبية مثل الأواني الزجاجية وقماش الجوح الفاخر والصابون المرسيلي والعبيد والنقود الفضية والذهبية وانطلقنا شرقاً تدفعنا ريح غربية رخية ويساورنا خوف وقلق من قراصنة مالطة، لكننا وصلنا بسلام بعد أيام كثيرة إلى ميناء

Twitter: @ketab_n

الإسكندرية. لم أنزل في الميناء تفادياً لدفع رسوم النزول إلى اليابسة المصرية. نزل بعض التجار وصعد آخرون. ثم انطلقت السفينة من جديد بعد يوم واحد قضيته في الميناء لتتجه إلى عكا. في عكا بقيت قرابة شهر تعلمت خلاله بعض الجمل العربية. هناك لم أترك مكتبة لم أسأل فيها عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة من دون أن أجده.

وعكا مدينة لا هي بالصغيرة ولا بالكبيرة ولا يسكنها من الأوروبيين سوى بعض التجار الفرنسيين وتاجرين برتغاليين. ولقد رأيت الحمالين هناك ينقلون إلى السفن المتجهة إلى مرسيليا أحمال السمسم والقمح والقطن، قصب السكر والقماش وخاصة الحرير الصيني القادم عن طريق حلب. التجار يسكنون الخانات المرصوفة قريباً من الميناء لدرجة أن أصوات الموج تُسمع ليلاً من خلال نوافذها. وهذه الخانات كبيرة لدرجة أن فندق هانس ليس شيئاً يُذكر بالمقارنة بها. وفي خان يسمى خان الإفرنج تعرفت على التاجر البرتغالي بيدرو ديل فارو الذي أسدى لي نصيحة ذهبية إذ قال:

- إن أردت أن تعيش بهناء في هذا الشرق فعليك تعلم لغاته والعربية قبل الجميع. كما أن عليك أن تخلع عنك هذه الثياب الأوروبية وتعتاد على ارتداء الألبسة الشرقية. لا تكن ثوراً أبيض في القطيع.

- وهذا الوجه؟

- مشكلة! المسلمون يحذرون من أصحاب العيون الزرق والوجوه

Twitter: @ketab_n

التي لا ينبت فيها شعر. وأنت جمعت العلامتين! لكن إن تعلمت العربية والتركية بسرعة فلن تعاني كثيراً.

كان بيدرو يتقن التركية والعربية وقد علمني بعض الجمل العربية التي يحتاجها المرء في التداول اليومي. وعندما أفشيت له سر قدومي إلى المشرق ضحك وقال: «ولماذا لا؟ هذا هو الشرق وفيه كل شيء. لكن أسهل عمل هو التجارة. صحيح أنه عمل يخالطه النصب والاحتيال ولا يأمن المرء جانب الشرقيين وصحيح أن الدولة العثمانية تضع عراقيل كثيرة أمام التجارالأوروبيين وتثقل كاهلهم بالضرائب ويصبح التحصيلدارية والباشوات وكبار عمال الموانئ شركاء للمرء في تجارته، لكن مع ذلك تبقى لك أرباح كبيرة في نهاية الأمر».

قبل أن يكتمل شهرٌ على قدومي إلى عكا، توجهت إلى بيت لحم حيث ولد المسيح لأتبرك بتلك الأماكن المقدسة وتلك الأرض الأسطورية حيث صحبني إليها أحد سكان عكا من الذين يتقنون اللغة اللاتينية[1].

لكننا لم نصل إلى القدس ولم نشاهد بيت لحم. لقد هاجمنا قطاع الطرق من البدو ونهبونا ولم يتركوا شيئاً لنا حتى ثيابي التي كنت خرجت بها من هيرنه سلبونيها وتركوني عارياً. كانوا كلهم ملثمين

(1) في دفاتري التي ضاعت أسهبت في وصف تلك الرحلة وكتبت كل المعلومات المتوفرة عن تلك الأماكن، تحدث أيضاً عن صراعات الكاثوليك والأرثوذكس التي هي بالأساس صراعات روسية بابوية من أجل الاستحواذ على مفاتيح قبر المسيح.

Twitter: @ketab_n

بلثم سوداء ولا يظهر منهم سوى عيونهم المكحولة وما إن انتهوا من سلبنا حتى امتطوا جيادهم وهمزوا خواصرها وولوا هاربين تاركيننا في الغبار.

عدنا إلى عكا وقد نجونا من الموت والتقيت في خان الإفرنج بصديقي البرتغالي بيدرو التاجر الذي كان يخفي عن العثمانيين جنسيته البرتغالية مدعياً أنه فرنسي وساعدته في ذلك القنصلية الفرنسية، لأن البرتغال كانت على عداوة مع الدولة العثمانية ولا تسمح لرعاياها بوطء الأراضي العثمانية. واساني بيدرو ونبهني إلى أن الأفضل للمرء أن يتحرك مع القوافل الكبيرة التي تتعرض هي أيضاً أحياناً إلى غارات النهب. حدثني بيدرو كذلك عن تجارة الورق. كان يجلب الورق من مرسيلية ويبيعه في الميناء لتجار حلب والشام والقدس وبغداد. أخبرني بيدرو أن الورق بضاعة ثمينة وقد تصبح من أفضل الهدايا التي يقدمها المرء للولاة والباشوات. وحين أخبرته عن نيتي في الذهاب إلى حلب قال: «خذ معك كمية من الورق فستجني من بيعها ربحاً وفيراً».

عملت بنصيحته واشتريت منه كمية صغيرة وضعتها في أحد مخازن الخان. كنت قد صرفت في ميناء الإسكندرية بعضاً من التالرات واستبدلتها بعملة عثمانية كانت قد نزلت حديثاً إلى الأسواق اسمها قروشي جديد. كانت قيمة الآقجات العثمانية قد انخفضت كثيراً لذلك لم أشترِ إلا القليل منها. استبدلت بعض التالرات بعملة يسمونها

Twitter: @ketab_n

طغرالي وببعض الدنانير البندقية[1] التي يسميها بعضهم أسدي. كانت الأسديات قيمة جداً فكنتَ ترى بعض الصرافين يأتون إلى السفن القادمة من الغرب لشراء الأسديات الذهبية ويستبدلونها بما عندهم من طغراليات وعملة أخرى تسمى مَجَرْ آلتوني.

ولما قارب مكوثي في عكا على الشهر، رافقت قافلة الشام مع ما لديَّ من حمل الورق واتجهنا شمالاً.

***

كان الربيع في أواخره حين وصلت قافلتنا إلى دمشق. ازدانت البساتين بزهور بيضاء وزهرية جميلة لأشجار الكرز والمشمش والدراق والإجاص واللوز وغيرها. تذكرت حبة الكستناء التي أعطانيها هانس فأخرجتها وحدقت فيها. كانت قد ذبلت قليلاً. أعدتها مرة أخرى إلى مكانها وأنا أقول في نفسي: «ترى من ذا الذي سيصمد في الغربة أكثر؟ أنا أم حبة الكستناء هذه؟»

وحين اقتربنا من الخانات، أسرع إلينا وكلاء التجار وأنزل الحمالون

(1) للعملة البندقية أسماء عديدة منها الدوقات البندقاني أو الدوقية، آلتون فنديك، فلوري، فرنجي آلتون، سكه إفرنجيه، قزل قروش أو يلدز آلتون. وهذه العملة أغلى قليلاً من الأشرفي. الدينار البندقاني مشهور في بلاد العثمانيين ويشرف السلاطين بأنفسهم في دار السكة في الآستانة على دمغها بكلمة صح العربية دليلاً على أنها غير مغشوشة. كان كل دوقات يعادل آنذاك 315 آقجة عثمانية. كانت قوة العثمانيين تتضاءل بقدر ما تتضاءل قيمة عملتهم!

Twitter: @ketab_n

أمتعتنا عن ظهور الجمال وبدأت مساومات عاجلة هناك. ناديت بالعربية التي تعلمت قليلاً منها وبحياء الغريب: «ورق، ورق، ورق إفرنجي. ورق إفرنجيييييي». لفظت مفردة ورق، هكذا: وَرَكْ إذ لم أكن أستطيع لفظ حرف القاف، وإلى الآن لا أقدر تماماً على لفظه. بعد قليل من النداء الخفيض تقدم إليَّ أحدهم يرتدي سروالاً عريضاً ويعتمر قلنسوة، وصار يساومني على السعر. لم تطل المساومة بل بعته كل ما لدي من ورق بسعر جيد ثم توجهت إلى خانٍ عرفت فيما بعد أن اسمه خان الدكة[1].

في دمشق، حيث قضيت بضعة أيام في خان الدكة، رأيت المئات من الراغبين في الحج إلى مكة. كانوا قادمين من القسطنطينية التي تسمى إسطمبول أيضاً ويسميها الروس تساريغراد، كذلك رأيت حجاجاً قادمين من أنطاكية وقونية ودياربكر وبدليس ومدن أخرى كثيرة وتسمى هذه القافلة بالقافلة الرومية أما القافلة القادمة من جهات حلب وحمص وحماة فتسمى القافلة الحلبية بينما تسمى القافلة القادمة من جهات بلاد فارس قافلةَ العجم. جلب الحجاج معهم لأجل تمويل رحلة حجهم بضائع شتى مثل البسط الأصفهانية

(1) أمام هذا الخان توجد مصطبة حجرية أي دكة كما تسمى في العربية أيضاً. كانت الجواري والعبيد يصعدون تلك الدكة لعرضهم للبيع على التجار. ولقد رأيت ذات مرة عملية بيع إحدى الجواري. كان النخاس يتحدث عن الفنون التي تتقنها الجارية. رأيت المشتري يتحسس جسدها بيده، ردفيها صدرها نهديها وبين فخذيها وكل بقعة من جسدها. حتى أنني رأيته يفتح فمها ويشمه. بعض الناس يسمون هذا الخان خان الجواري.

Twitter: @ketab_n

والزعفران والدارصيني والفلفل والقرنفل والكافور والزنجبيل والنيلة والمصطكي أي اللبان القادم من جزيرة ساقز. كانت أكوام الزبيب والتين المجفف والجوز واللوز والبهارات وأنواع الأقمشة واللآلئ وحلي النساء تملأ كل الأسواق وكنت ترى في كل سوق بضعة حجاج مشغولين بفك أكياس نقودهم وشراء البضائع أو بيعها. وإلى جانب أولئك الحجاج المسلمين رأيت حجاجاً مسيحيين أيضاً أغلبهم من السريان والأرمن وبعض الكرج والروس. كانوا يريدون التوجه إلى القدس وبيت لحم. وقد كانت الخانات تعج بالأوروبيين من جنوة والبندقية وفلورنسة ومرسيلية والبرتغال وهولندا وفرنسا وبعض البلدان الأخرى[1].

في خان الدكة التقيت برجل ينوي الذهاب إلى أصفهان اسمه آلبرتو دي سيلفا[2] أصبح فيما بعد صديقاً حميًما لي. كان آلبرتو عازفاً بارعاً على الماندولين وله صوت عذب ناعم ورقيق كالحرير حين تصدح حنجرته بالأغاني التي تتحدث عن أوطان بعيدة ومحبوبات بعيدة ومدن بعيدة.

---

(1) إن التجارة بين العثمانيين والأوروبيين مزدهرة جداً. ففي بلاد العثمانيين ترى التجار من كل أوروبا في الشوارع والخانات والموانئ. هؤلاء التجار يقومون بجلب بضائع مثل الجوخ والألبسة الجاهزة والورق والرصاص وحتى النقود التي احتكر الفلورنسيون تجارتها ويبدو أن العثمانيين بحاجة ماسة إليها ولا تقوم تجارة إلا باعتماد تلك العملات.

(2) آلبرتو دي سيلفا ولد في البندقية لكنه كان في الأصل من لشبونة وكان جده ضابطاً في البحرية معروفاً في مسقط من بلاد عمان. وحين انهزم البرتغاليون وشُلّت أطراف إمبراطوريتهم هناك فخرجت الممالك من أيديهم كما ينسرب الماء من الكف، انضم إلى البنادقة وتزوج امرأة منهم ليستقر هناك.

Twitter: @ketab_n

وحتى الآن، حتى هذه اللحظة حيث ترميني أقدامي على طريق سعادة جديدة متوجهاً إلى صديقي آلبرتو، لم أر صديقاً وفياً صادقاً مثله.

لم أمكث سوى أسبوع في تلك المدينة القابعة أسفل جبل يسمى قاسيون، ولقد زرت خلال ذلك الأسبوع مع صديقي آلبرتو قبر صلاح الدين الكردي العظيم بجانب مسجد كان فيما مضى كنيسة. حين كنا صغاراً كان يرد في القصص والحكايات كثيراً اسم صلاح الدين ووقائع تسامحه وتعامله الطيب مع الأسرى الأوروبيين من أجدادنا. كذلك زرت في ذلك الأسبوع الحارات الضيقة المعتمة ونهر بردى لكن الحمامات كانت أكثر ما لفت نظري في دمشق. وقد ذهبت ذات يوم خميس إلى حمام من تلك الحمامات. كان ضوء حنون وساطع ينسرب من خلال القماري وهي منافذ صغيرة مسدودة بزجاج ملون. كاد المكيس الذي لم أكد أراه بسبب كثافة البخار أن يقصم ظهري من شدة الفرك. كما أن قرقعة القباقيب أضحكتني. والقباقيب هي أحذية خشبية يرتديها روادُ الحمامات درءاً للانزلاق تجعل المرء أطول مما هو في الحقيقة وتجعل مشيته غريبة مضحكة. عقب الانتهاء من الحمام قدموا لي قهوة يمنية. كان ذلك الحمام جزءاً من سحر الشرق، أما ذلك اليوم فقد كان وجهاً من وجوه السعادة.

قبل أن أغادر دمشق بيوم واحد سمعت جلبة بعض التجار. كان أحدهم قد اصطاد حمامة في رجلها رسالة فصار يقرأها لرفيق له بصوت مسموع. بدا أنهما مسروران. سألت رفيقاً لي من فلورنسة عن

Twitter: @ketab_n

فحوى حديثهما فقال لي إن هذه الحمامة من النوع الذي يطلق العرب عليه اسم الحمام الزاجل ويعرف تجارُ الشام عبر رسائل هذه الحمامات حالةَ الأسعار والبضائع في كل بلد. ورسالة هذه الحمامة التي أرسلها وكيل أحد التجار تقول إن البن قد ارتفع سعره في مرسيلية. وبعد أن ترجم لي رفيقي الفلورنسي ما جرى بين ذينك الرجلين بساعة ذهبنا إلى سوق التوابل. لم يكن قد بقيت حبة واحدة من البن لأن التجار أفرغوا الأسواق منها. بعد ذلك استأجر التجار الدمشقيون الأطفال وأرسلوهم مقابل حفنات من الحمص المشوي لالتقاط أية حمامة حتى لم تبق حمامة تطير في الجو. ولما وصل الخبر إلى والي الشام أحمد باشا حاجي كيراي منعَ صيد الحمام ثم سمعنا أنه احتكر صيد تلك الطيور لنفسه[1].

في اليوم التالي أعددنا العدة أنا وآلبرتو لمغادرة دمشق مع قافلة حلب. كانت قافلتنا صغيرة قليلة العدد بسبب موسم الحج. كنت قد اشتريت بالة قماش حجازي وثلاثة أكياس من القهوة اليمنية من تاجر مصري وحمَّلتها على ظهر ذلك الحيوان العجيب ذي الظهر الأحدب بينما ركبت أنا جملاً آخر يسير خلف الجمل الحمَّال. أما آلبرتو فجلب معه حملاً من المزهريات والقناديل والكؤوس وبعض الأساور والخواتم الزجاجية المصنوعة في مورانو من جمهورية البندقية ووضعها

(1) يصادف المرء في القوافل أقفاصاً كثيرة فيها ذلك النوع من الطيور. لا قافلة بدون حمام زاجل.

Twitter: @ketab_n

بين أكوام من القش والتبن مخافة أن تنكسر.

حين أوشكنا على الانطلاق رأيت جميع الأطفال يتوجهون بأبصارهم إلى السماء الزرقاء الصافية يبحثون عن أسراب الحمام. لم أجد نفسي إلا وأنا أحدق مثلهم في السماء.

وسارت القافلة.

***

- أووووه يا صديقي فرناندو يا صديقي الطيب. أشكرك على تحملك. أتعرف؟ لولاك لما عرفت لمن أقص حكاياتي. لقد أرسلك الله لي. ها قد أصبحت الساعة الحادية عشرة ولم نشعر بمرور الوقت. أرأيت كيف يمر لطيفاً رخياً! الوقت ثعبان. نعم إنه ثعبان. وهو يمضي سواء لدغك أم لم يلدغك. سنذهب إلى قصر شترونكده. إن تجملت بالصبر فيمكننا الذهاب إليه هذه الليلة أيضاً. ستبيع كل تبغك. ومن ذا يقدر ألا يشتري هذا التبغ الفاخر؟ نو بينسامينتوس[1].

ما إن انتهى غوستاف من جملته تلك حتى أخذ فرناندو نفساً عميقاً من غليونه ثم نفث سحابة من الدخان غطتهما كليهما. في الخارج كان

(1) بالإسبانية: لا تهتم.

Twitter: @ketab_n

ضباب كثيف يتلوى كأنه دخان ينفثه وحش من الأساطير، ضباب خريفي جعل من الصعب رؤية برج الكنيسة القريبة. كان ذلك ضباباً لا يشبه الضباب العادي الذي يبدأ انتشاره ليلاً ويبقى إلى الصباح ليتبدد مع ازدياد حرارة الجو. صدرت خشخشة لطيفة من الأوراق المتساقطة، كان بعض الصبية يستمتعون بالمشي فوقها. لم ينقطع غوستاف عن الحديث. تساقطت الكلمات من شجرة خياله كتلك الأوراق الصفراء. أبعد الدخان الذي تكاثف حول رأسه بيده فبدا أن أصبعاً فيها مقطوعة ثم قال: «يا فرناندو الطيب. لم أقل لك إن صديقي الكالفيني الفرنسي باول لم يخبرني أن مهمتنا الأساسية ستكون صيد الزنوج. هو لم يخبرني أن أعظم التجارات في تلك المستعمرة هي تجارة العبيد. لكنه أخبرني بعد مدة بالأمر. كان ذلك ذات ليلة سماؤها الفسيحة مزدانة بنجوم كبيرة بعد أن شربنا الخمر في عنبر الركاب على متن السفينة وصعدنا إلى السطح حيث لمحنا الراية البيضاء ذات النسر الأحمر تخفق بقوة. لقد انزعجت في بادئ الأمر واعتبرت أن تجارة العبيد عمل قبيح. لكن باول صار يأتيني بالحجج والأدلة حتى أقنعني. قال لي إن الكنيسة تبيح الاتجار بهم والعبيد يهتدون بذلك إلى الطريق القويم، طريق المسيح الحق. حدثني أيضاً عن المكاسب الكبيرة الكثيرة وعن كفر الزنوج وأنهم مخلوقات أقرب إلى الحيوانات من البشر. لكنني مع ذلك لم أستسغ تلك التجارة أول وصولي إلى غرب أفريقيا فانخرطت في جمع أنياب الفيلة. أووه. لماذا أوجع رأسك يا فرناندو الطيب؟

Twitter: @ketab_n

اعذرني لأنني أسرد على مسامعك هذه القصص السخيفة. لا بأس. سأختصر الأمر. المهم وبعد شهرين من سير السفينة في مياه الأطلسي اللازوردية وتحت سماء زرقاء صافية ووسط أمواج بيضاء كالثلج اقتربنا من ميناء قلعة كروس فريدريشبورغ في غانا.

كان الطقس حاراً رطباً وكدت أختنق وضاق نفسي وتصبب العرق من كل أنحاء جسمي. صارت رأسي مثل قدر موضوع على النار حتى كدت أسمع بقبقة دماغي. أية سواحل دبقة كانت تلك؟ كان هناك ميناء جميل مبني مقابل القلعة ترسو فيه العشرات من السفن والمراكب كلها تحمل نفس الراية البيضاء ذات النسر الأحمر. قبل أن تطأ قدماي اليابسة لمحت بضعة زنوج. خفت منهم فجفلتُ وتراجعت إلى الخلف من دون أن أنزل من السفينة. ضحك باول حين رآني جفلت وقال: «لا تخف يا صديقي. لقد روضنا وحوش الغابات هؤلاء. ليس لهم الآن أنياب ومخالب ولن يفترسوك. ألا ترى القيود في أقدامهم!»

كان أولئك الزنوج العراة إلا من خرق تستر ما بين أفخاذهم، قادمين من آكرا للعمل لدى الشركة وحينما لمحونا في تلك الظهيرة القائظة خروا ساجدين ثم قاموا ليرفعوا مظلات فوق رؤوسنا لتقينا حر الشمس. كم كانت أسنانهم بيضاء يا رجل!

بقيت هناك ثلاثة أيام أمسح العرق عن جسمي. لم أر أياماً حارة رطبة كتلك الأيام في حياتي كلها. في الليل لم أكن أستطيع النوم بسبب صرخات المساجين الزنوج في سجن القلعة. وكان يمزق أذني زعيقُ

Twitter: @ketab_n

الأطفال ممن كانوا يفصلونهم عن آبائهم الذين يرسلونهم إلى أمريكا. في اليوم الثالث جاء صديقي ليقول: «يا غوستاف إن كنت لا تريد الذهاب لصيد الزنوج فسنرسلك إلى شرق المستعمرة للعمل مع صائدي الفيلة». قبلت العرض وذهبت لأبقى هناك عشرة أشهر. هل رأيت فيلاً؟ يا لضخامته. للفيل أذن مثل تلك الستارة الكبيرة. أما خرطومه! كيف أصفه لك؟ كأنه عمود. عدت بعد عشرة أشهر وبدأ العمل الحق. هللويا.

***

حين وضعت القيد في يد ذلك الزنجي القادم من ميناء تاكورا والذي كان الخوف يلمع في عينيه، وكان أول صيدٍ لي في تلك البلاد، صاح رفيقي: «قيِّد قدميه أيضاً. قدميه». لم أعرف أن في إمكان ذلك الزنجي الهربُ كالأرانب بالرغم من يديه المقيدتين. قمت بوضع قيد تنتهي سلسلته بكرة من الحديد تزن عشرة باوندات في إحدى قدميه أيضاً ونهضت. نظر ذلك الزنجي بعيونه الوجلة وفمه الواسع الأهبل إلى أصابع يدي. ضحكت وقلت لرفيقي مازحاً:«أنظر كيف ينظر هذا الأسود إلى أصابعي. هل أفقأ عينيه بها؟». فرد رفيقي بلهجة كلها جد:«إياك أن تفكر بذلك يا غوستاف. لو عمي هذا الحيوان فلن نستطيع بيعه ولو بفلس واحد. يجب أن تكون بضاعتنا سليمة.

Twitter: @ketab_n

هل تعلم أن هناك كثيراً من العبيد عوران أو بيد واحدة أو أسنانهم ساقطة أو منخورة وباختصار فيهم عذر ما، كأن يعرجوا مثلاً! هؤلاء لا نضمهم إلى السليمين لأن سعرهم رخيص جداً».

كنت مقهوراً من تحديقه المستمر في أصابعي، فبسطت يدي ووضعتها أمام وجهه وقلت له بلغته الآكانية: «هي خمسة أصابع. خمسة. لماذا تعدها يا قرداً من نسل قرود؟».

آه يا فرناندو. لم أنتبه إلا وهو يغرز أسنانه في أصبعي التي تحمل الخاتم الأحمر الثمين. سمعت طقطقة السُّلامية في فمه. قطع أصبعي وابتلعها مع الخاتم. التهم أصبعي يا رجل! كدت أن أغيب عن الوعي من شدة الألم. أسرع رفيقي لنجدتي ووضع بذور نبات خبز القرود المسمى بوحباب على جرحي. لا تعرف تلك الشجرة أليس كذلك؟ لا. لا توجد في إسبانيا أشجار البوحباب. كنا نغلي أزهار البوحباب ونعمل منها لبيخة نضعها على جلودنا لتشفى من حروق الشمس.

بلغ بي الغضب حينذاك مبلغاً عظيماً. أيعقل أن أتعرض لقضم أصبع من أصابعي مع أول زنجي اصطاده؟ إذاً ستصبح يدي بعد عشرة زنوج بلا أصابع. ومع مئة آخرين سأصبح طعاماً لهم! والخاتم؟ أتعرف أن تاجراً من سورينام عرض عليَّ عشرة تالرات فلم أبعه! لكن ذلك القرد ابتلعه مجاناً. أتعرف ماذا فعلنا به؟ كان علينا أولاً أن نستخرج الخاتم من بطنه ثم نعاقبه عقوبة يستحقها. الطبيب الذي كان يرافقنا ناوله بالإكراه دواء ليجعله يتقيأ ويلفظ الخاتم لكن

Twitter: @ketab_n

القرد لم يتقيأ. اضطر الطبيب أن يناوله دواء آخر يسبب الإسهال. بقينا ثلاثة أيام نراقبه كلما تغوَّط كما ينتظر طفل إوزةً ليحصل على بيضها. كان أحد العبيد ينكش خراءه المائع بحثاً عن الخاتم من دون جدوى. لم يبق أمامنا مجال سوى أن نشق بطنه النتن ونبحث في أمعائه ونرى في أصبع أي عفريت استقر.

وذات صباح استيقظت فرأيت أن آلام أصبعي المقطوعة قد خفت لكن يدي مخدرة وأصابعي لا تتحرك، كانت مصابة بالشلل والشرايين متيبسة. أصبحت أشل. قال الطبيب إنني سأتعافى مع مرور الزمن. كنا محتارين في أمر ذلك الزنجي؟ إن قتلناه خسرنا ثمن بيعه وإن أبقيناه فالخاتم أيضاً ثمين. في آخر الأمر قرر مسؤول العمل أن نقتله. جعلناه يجثو على ركبتيه وسددنا سبطانة البندقية إلى رأسه. القرد! لم ينبس ببنت شفة وكأننا نهذر معه. بقي هادئاً صامتاً كمن لا يعرف الموت. طلقة وحيدة مني كانت كافية لتفجر رأسه وتجندله على الأرض. سددنا أنوفنا ثم شققنا جسده بالمباضع بدءاً من حلقومه مروراً بمعدته وحتى فتحة شرجه. لم نجد أثراً للخاتم. اختفى».

دخن فرناندو غليونه ونفث الدخان بشكل متسارع وهو يصغي بانتباه إلى تلك القصص التي لم يعرف أهي حقائق أم أنها خيال وأكاذيب. قرأ غوستاف سطور الاستغراب في عيني فرناندو اللامعتين وواصل كلامه: «لا تستغرب يا صديقي فلقد صادفتنا في تلك البلاد عجائب كثيرة وقصص أغرب من الخيال. صرنا بعد تلك الحادثة كلما

Twitter: @ketab_n

اصطدنا زنجياً عمدنا إليه فلجمنا فمه. كان بعضهم يهرب ولم نكن لنلحق بهم فقد كانوا كالثعالب والفهود يركضون من دون توقف من خلال الغابات التي لم نجرؤ على اللحاق بهم داخلها خوفاً من الثعابين الضخمة والحيوانات المفترسة. كم كانوا حمقى يا رجل؟ لماذا كانوا يهربون؟ كنا نصطادهم ونأخذهم إلى السفن لنرسلهم إلى سورينام. هناك يعمل العبيد في مصانع السكر ويأكلون لقمة هنية. أليس هذا أفضل من حياتهم التي تشبه حياة القرود. ها؟ أليس هذا أفضل من أن يقتاتوا على الحشرات والديدان؟ صرنا نضع أطواق الحديد في رقابهم. صنع الحدادون الذين رافقونا آلاف الأطواق والأصفاد وحلقات الحديد وكراته. كان في كل طوق من تلك الأطواق أربعة سفافيد كل سفود بطول ذراع وصرنا نضع تلك الأطواق في رقاب من نخاف هروبهم، فإذا هربوا علقت السفافيد بأغصان الأشجار واستطعنا الإمساك بهم من جديد. أحياناً كنا نمسك ببعض الزنوج الهزيلين الذين يقل وزن أحدهم عن مئة وخمسة وثلاثين باونداً. هؤلاء كنا نضطر أن نعلفهم مدة شهر كامل حتى يسمنوا قليلاً ونبيعهم للتجار. أي نعم يا صاحبي. لم يكن ذاك عملاً يسيراً. صحيح أنه يدر علينا أرباحاً طائلة لكنه محفوف بالمصاعب الكثيرة يا فرناندو. هللويا.

ولقد هدينا تلك الوحوش التي اصطدناها إلى سواء الصراط بفضل الكلمات المقدسة لمارتين لوثر المدونة في كتابه دي *سيرفو آربيتيريو*[1].

---

(1) في ذلك الكتاب يقول مارتين لوثر: «إن الله يقتل ويهب الحياة أيضاً. يرسل عبداً إلى =

Twitter: @ketab_n

كلهم كانوا وثنيين يخلطون بين إرادة الرب وإرادة تلك الأوثان. ما عرفوا أنه لا إرادة سوى الإرادة الأزلية المقدسة لإلهنا الرحيم. ويا ليتهم عبدوا وثناً واحداً. إن لكل قبيلة بل كل عائلة معبودها الخاص. وهم يعبدون أي شيء: الجراد، الضب، الحية، الشمس، القمر، النجوم، الغيوم، البَرَد، المطر، الطيور، الجبال، الأنهار، قوس قزح، الأشجار وحتى أرواح الآباء والأجداد أيضاً. أهؤلاء بشر؟ هللويا. أنظر يا فرناندو فقد اكتسبنا رضا إلهنا الرحيم أيضاً عن طريق عملنا الذي درَّ علينا الذهب. أرشدنا تلك الوحوش إلى طريق المسيح ونور الإنجيل المقدس. لقد وزعنا بذور البشارة المقدسة للأرواح الحائرة في تلك البلاد المتوحشة. انشغل القسوس بتعميدهم مع أطفالهم ونسائهم بالماء المقدس وأطلقوا عليهم أسماء طاهرةِ. أطلقنا عليهم أسماءً بشرية. لو سمعت بأسمائهم الأصلية لضحكت كثيراً. صحيح أنهم كانوا يتحولون إلى عبيد لكنهم اكتسبوا حياة جديدة ونُفِخَت في أبدانهم أرواحٌ نقية[1].

كانوا يظفرون بالسعادة لكنهم لم يقدروها حق قدرها. كانوا وحوشاً تهرب مما يسعدها. كنا نوجههم إلى الحقيقة لكنهم استساغوا

= الجحيم ويريه طريق الخلاص أيضاً. وهكذا فإنه يخفي رحمته الأزلية تحت ثياب غضبه، عدله خلف قسوته، ولكي تكون مؤمناً حقاً بأن الله رحيم جداً لكنه لا يظهر إلا القليل، عليك أن تعتبر ذلك عدلاً. وكما يقول إيراسموس: إن السعادة كامنة حتى في الوقائع الأشد قسوة».

(1) أيها العبيد اصغوا لأسيادكم بقلب صادق كما تصغون للمسيح نفسه. باولوس. رسالة إلى المؤمنين في أفسس. 6,5

Twitter: @ketab_n

التمرغ في مستنقع الضلالة. ألم تكن عبوديتهم فرصة جيدة لهم؟ أيبقوا عبيداً للسحالي أفضل أم يصبحوا عبيداً لنا وأتباعاً لكلمة الرب وابنه المسيح المخلص؟؟».

وضع بائع التبغ الإسباني الكاثوليكي غليونه من فمه وابتسم ثم نظر في عيني غوستاف اللتين لمعتا وقال بلهجة مغلفة بالسخرية: « نحن أيضاً وقبل مئتي عام فعلنا ذلك في أمريكا. نحن أيضاً نشرنا ديننا الحق في تلك البلاد النائية وأوصلنا نور كنيستنا إلى تلك الشعاب والوديان والسواحل والجبال في بلاد أولئك الهنود الحمر الوحوش العميان. والآن ها نحن نجعل الحقيقة تبغاً يحترق في غلايين المارشالات. ففي هذا الصيف مثلاً اشتبك تسعون ألف جندي فرنسي مع ثمانين ألفاً من القوات المتحالفة من البروسيين والهولنديين والإنجليز. أميرك الذي قصم ظهر الترك وشاركتَ في الحرب تحت رايته، أقصد الأمير أوجين الشهير، يتقدم الآن الجيوشَ الكبيرة ويقتل المسيحيين. عن أية حقيقة تحدثني يا صديقي؟ إل توباكو لا أونيدا فيرداد[1]». ونفث من غليونه حلقات زرقاء أطلقها فوق رأسه. تبع غوستاف بعيون جاحظة تلك الحلقات وأخلد إلى الصمت.

انعقد الضباب في الخارج أكثر حين اقترب الوقت من الظهر. تكاثف الدخان فوق رأس غوستاف وفرناندو أيضاً حتى أخفى أحدَهما عن الآخر وأخفاهما عن عيون الآخرين أيضاً.

(1) بالإسبانية: التبغ هو الحقيقة الوحيدة.

Twitter: @ketab_n

***

«إيه يا فرناندو أيها الإسباني الطيب. فلنترك حديث الكاثوليك واللوثريين الآن. دعنا لا نعود إلى موضوع الحرب القائمة الآن وكذلك حرب الثلاثين عاماً يا صديقي. دع هذا الأمر لله وللزمن. سأحدثك عن تلك الحياة العجيبة. اسمعني أرجوك فقد اقتربت النهاية. أعذرني. لا أستطيع كبح جماح هذه القصص ولا أرى نفسي إلا وأنا أسرد عليك بعض السخافات».

بعد برهة قصيرة قام غوستاف وتوجه صوب زجاجات الخمر فاختار من بينها زجاجة نبيذ أحمر وجرها من كوة في الجدار. رفعت العجوز المشغولة بحياكة زوج الجوارب وقالت[1]: «لقد ارتفع سعر النبيذ. أتعرف ذلك؟ سبع سنوات من الحرب ترفع سعر الروث أيضاً». وضع غوستاف يده في جيب سترته وهو يبتسم، أخرج خمسة وثلاثين فلساً ووضعها في يد العجوز وقال مزهواً: «خمسة فلوس لأجلك أيتها العجوز الطيبة. اشتري بها الصوف وحيكي لنفسك وشاحاً. يُقال إن شتاء السنة سيكون قاسياً». ورفع رأسه نحو الأعلى.

(1) الراهب الذي نام مع هيدفيك تلك الليلة لم يعد يتركها بل صار كلما ذهب الآخرون مساءً للصلاة ينزل إليها ويفك خيوط قميصها بسرعة ليختلط أنينه بصلوات رفاقه وصدى الأرغل. في ذلك الوقت كانت هيدفيك تقضي وقتها بحياكة جوارب لرفيق ليالي الشهوة واللذة. مات الراهب فيما بعد قبل أن تكتمل الجوارب. اختفى مرض انتفاخ البطون الذي انتشر في الدير كالوباء بعد وفاته.

Twitter: @ketab_n

ألقى نظرة على عنكبوت كانت تلف خيوطاً بيضاء واهية على ذبابة. ومن دون أن يقول شيئاً حمل زجاجة النبيذ وعاد إلى طاولته. ملأ كأس فرناندو ثم كأسه وشرع يواصل حكاياته: «دي نادا فرناندو[1]. هذا نبيذ كاتالاني من منطقة أراغون اسمه آنيما نيغرا. أنظر: *buen Vino: realizados en Aragón*[2]. *إنه يشبهك*. لا ينحاز لا لآل هابسبورغ ولا لآل بوربون. هاهاهاها. لقد ازداد سعر الخمرة بسبب الحرب التي تجري منذ سبع سنوات لكن لا بأس فالبضاعة الفاخرة غالية حتى في زمن السلم. هللويا. تعال فلنشرب وسأقص عليك حكايتي مع الفتاة السوداء ليبرتا نيغرا. هذه الخمرة ذكرتني بها. عندنا مجال حتى الظهيرة. ماذا قلت؟» قال ذلك وأخرج من دون أن ينتظر جواباً من فرناندو المسكين، زجاجةً صغيرة من جيب داخلي في سترته مضيفاً: «وهذا روم يا فرناندو الطيب. جربته بلا شك. يسمون هذا المشروب عندكم رون». ثم رفع الزجاجة ليقرعها بكأس فرناندو التي كانت ما تزال على الطاولة.

سالوت.

ثم أفرغ في جوفه كل ما كان في الزجاجة بجرعة واحدة ليواصل سيره في أدغال الحكاية: «بعد مرور عام كانت شركتنا قد اصطادت العبيد بالآلاف وأرسلتهم عبر المحيط الأطلسي إلى أمريكا. ربحت

(1) بالإسبانية: تفضل يا فرناندو.

(2) بالإسبانية: خمرة فاخرة: صنعت في أراغون

Twitter: @ketab_n

الشركة جراء ذلك عشرات الألوف من التالرات ولم يكن نصيبنا من هذه الأرباح قليلاً. كنا نتفرق في تلك الأنحاء ونصطاد الزنوج ونقتلعهم من قراهم كما يُقلعُ الجَزَر. ذات مرة حاصرنا قرية وأسرنا كل من في القرية. كان نصيبي عائلة صغيرة، أب وأم وأربعة أطفال: فتاة في السادسة عشرة وثلاثة صبيان أصغر منها. أزعجني صراخ الصغار جداً. قمنا على الفور بوضع خاتم العبودية على الوالدين. نعم نعم. لشركتنا خاتم خاص من حديد نحميه ونضعه على أجساد أولئك الزنوج حتى لا يختلط عبيدنا مع عبيد الشركات الأخرى. وحتى لو هرب أحد عبيدنا فسيتم التعرف عليه من خلال خاتم الشركة أينما كان. ولقد كان يتم دمغهم على متن السفن مرة أخرى. لكل سفينة أيضاً خاتم خاص. كانوا يشبعون أختاماً. هللويا. عمَّ كنت أتحدث؟ عن عائلة صارت في سهمي أليس كذلك؟ أجل أجل. ربطنا الوالدين أحدهما بالآخر وألقينا الأصفاد في أرجلهما والطوق في عنقيهما ونقلناهما فوراً إلى السفينة وتم تسفيرهما إلى سورينام. أمّا ابنتهما ذات الستة عشر عاماً فقد حاولت أن تهرب لكننا ربطناها بإخوتها الثلاثة الصغار: أخ بيدها اليسرى وآخر بيدها اليمنى والثالث بإحدى قدميها. لو عاملناهم حسب قوانين الفرنسيين الذين هم أيضاً كاثوليك مثلك لما كان بإمكاننا أن نفرق بين أفراد تلك العائلة. يقول الفرنسيون إن القيم الإنسانية تفرض ألا يتم تفريق أفراد عائلة العبيد أي يجب عدم فصل الآباء والأمهات عن الأولاد. لكن ما لنا وللفرنسيين! قوانيننا

Twitter: @ketab_n

لنا وقوانينهم لهم. نعم يا فرناندو الطيب للرق أيضاً قوانينه ألا تعلم؟ ألم تسمع بوثيقة Code Noir؟[1]. إنها وثيقة لا عدل فيها حيث تحصر تجارة العبيد في يد الكاثوليك وحدهم! أعذرني يا فرناندو سأقول هذه الحقيقة: الكاثوليك أنانيون جداً.

لنعد إلى قصتنا. تلك الفتاة كانت مثل لبوة متوحشة لو رأيتها لامتلأت رعباً. جميلة ومتوحشة! قامتها ممشوقة وشفتاها مكتنزتان وعيناها أكثر مهابة من غابة وأشد سواداً من ليل. كانت حيواناً ضارياً. هللويا.

لن أخفي عنك يا فرناندو فما إن وقعت عيناي على تلك الفتاة ذات الشفتين الغليظتين واللحم البض حتى اشتهيتها. عرضت شراءها على رب العمل فقال لي: «وماذا ستفعل بهذه الدابة؟ إنها قذرة وملوثة يا غوستاف». كنت أشتهي اللحم يا فرناندو الطيب. اللحم اللحم. لو أبعدتَ حماراً عن أتانه ربيعين لأصابه مس من الجنون. لن أطيل عليك. تجادلنا أنا ورب العمل كثيراً إلى أن قال أخيراً: «سأعطيك هذه القردة لمدة عام، فإذا أعجبتك يمكننا تمديد عقد التأجير». وافقت بلا تردد. استأجرتها مقابل زجاجة خمر وسبعين فلساً. أقسم بالمسيح كنت

---

(1) من بنود هذه الوثيقة:

- أبناء العبيد هم أيضاً عبيد.
- لا يجوز للعبد حمل السلاح من دون إذن مالكه.
- العبد الذي يضرب مالكه أو فرداً من عائلة مالكه، يُعدم.
- إذا مات مالك العبيد، فهم يُعتبرون جزءاً من التركة ويُوزعون مثلها.

Twitter: @ketab_n

مستعداً لدفع عشر ماركات ذهبية من ماركات كولن. هللويا.

في الليلة الأولى، وكانت الفتاة قد صارت أَمَتي، ذهبتُ إلى الكوخ الذي تقطن فيه مع إخوتها. كانوا نائمين. تمددت على القش بجانبها. فاحت منها رائحة العرق، كانت رائحة أنثوية أسكرتني. أنهك العويل والبكاء إخوتها الثلاثة المقيدين إليها فناموا. مددت يدي إليها والتصقتُ بها فانتبهت من نومها. أصبحتُ مثل الثور الهائج أمام رداء أحمر. لم تشأ أن تزعج إخوتها لذلك صمتت مع امتعاض ظاهرٍ على وجهها. رأيت في الظلام عينيها تلمعان بوحشية. حاولت أن تصرخ لكنني سددت فمها على الفور بمنديلي واعتليت صدرها. استيقظ أحد إخوتها فرآني على تلك الحالة. ارتجفت شفتاه وأوشك أن يبكي فحدجته بنظرة فأغمض عينيه من جديد. ثم استيقظ الصغار ثلاثتهم وصاروا يبكون بصوت واحد كأنهم في كورس. صارت أختهم التي أطلقت عليها اسم ليبرتا نيغرا، تتحدث بالآكانية بفمها المسدود بالمنديل. لم أفهم منها ذلك الوقت هل هي تزجرهم أم تشتمني؟ وحتى لو لم يكن فمها مسدوداً أكنت سأفهم كلمة من حديثها؟ نهضت وسحبت المنديل من فم ليبرتا نيغرا ثم خرجت لأحدق بسعادة غامرة إلى القمر. بدا القمر طبقاً فضياً على قطعة مخمل أسود، كان يبتسم لي. ملأت رئتيّ بأنسام السحر العليلة وعدت إلى مهجعي.

صباح اليوم التالي فككنا قيود الصغار الثلاثة وهم يبكون بكاء مراً مزعجاً وأرسلناهم إلى الميناء. كانت إحدى سفن شركة من شركات

Twitter: @ketab_n

السكر التي اشترت مجموعة من الأطفال راسية تتأهب للانطلاق إلى جزيرة غوريه. كسبت في تلك الصفقة ثلاثين تالراً بالإضافة إلى تلك اللبوة السوداء.

في الأسبوع الأول حاولت كثيراً استمالة ليبرتا نيغرا. كانت تمانع. هل تصدق يا رجل أن تلك السوداء الكافرة لم تكن ترضى بي أنا المسيحي الأبيض؟ أليس هذا الأمر من الأعاجيب. ها؟ المهم ما إن انقضى أسبوعٌ حتى استسلمتْ لقدرها فصرت أفك في الليل قيودها ما عدا كرة الحديد المربوطة بقدمها لكيلا تهرب. بعد عدة شهور سكنت وصارت تستأنس بي ونسيت إخوتها وأباها وأمها. حتى أنها باتت تضحك فتظهر أسنانها كأزهار البوحباب. لكن الحزن العميق لم يغادر عينيها. كانت نظراتها مليئة بحزن مجهول ولقد رأيتها في كثير من الليالي تبكي. كنت أجلس بجانبها وأمسح دموعها. لا أخفي عنك يا فرناندو الطيب، صرت أحبها. أخذتها معي إلى كل مكان. حتى أنها رافقتني إلى صيد الزنوج أيضاً. كانت تمسك بنفسها بالفتيات وتضع أيديهن في القيود. كانت تكلمهن بالآكانية وتهدئ من روعهن. وقبل أن ينقضي عام على استئجاري لها، مللت منها. لا أخفي عنك يا فرناندو العزيز فلقد رأيت أرخص منها وأجمل. لم يكن هناك بد من أن أعيرها للعمال الجدد القادمين من إمدن وشتيرنبيرغ ودرامبورغ وبرلين. كل ليلة بخمسة فلوس. في شهرين كسبت ثلاثمئة فلس. هل تصدق؟ هللويا.

حين انقضى العام جاءني رب العمل ذات صباح، بعد أن عاد من

Twitter: @ketab_n

أمريكا، وقال لي:«أتعرف أن عقدنا ينتهي اليوم؟ يجب أن تسلمني الفتاة».

أحضرت ليبرتا نيغرا ووضعتها على الميزان. كانت قد زادت في سنة واحدة عشرة باوندات. فرح رب العمل كثيراً. مسح بيده على ردفيها، عصر نهديها، فتح فمها ونظر في أسنانها، تحسس أضلاعها ثم ضرب خاصرتها ضربات خفيفة وقال: «كل شيء على ما يرام. هي سليمة».

في الساعة الثانية عشرة تماماً وقَّعتُ عقد تسليم ليبرتا نيغرا أمام بوابة قلعة كروس فريدريشبورغ ثم وليت ظهري تلك اللذة السوداء.

Twitter: @ketab_n

الساعة الثانية عشرة

قرع جرس الكنيسة اثنتي عشرة مرة معلناً منتصف النهار. ظهر من دقات الناقوس الرخيمة الهادئة أن مزاج الخوري في تلك الظهيرة كان رائقاً. كان لحناً جميلاً ذلك القرع اللطيف[1] الذي رافقته ثلاث رنات من أجراس صغيرة.

بالرغم من ذلك أغلق طالب اللاهوت من مونستر المخطوطة التي يقرأ فيها بامتعاض وصار ينتظر أن تنتهي تلك الرنات التي تدعو المؤمنين للصلاة. ومع الرنة الثانية عشرة تنفس الصعداء وعاد إلى مواصلة القراءة. ولما سمع جلبة من الغرفة المجاورة لم يعرها اهتمامه. جذبته قصص المخطوطة التي بين يديه إلى نهر الخيال الساحر العذب ففتح المخطوطة على الصفحة التي وصل إليها واستمر يقرأ:

***

(1) كان كارل يتذكر مع كل رنة مدينته كارلوفيتز وكنيستها والنجار برانكو مورافاتش. كانت قد نشأت بينه وبين النجار الشهير علاقة سرية جداً حيث كان في ورشة النجارة قبو أصبح ملتقى تبدأ فيه نجارة الأجساد وقرع نواقيس الشهوة المحرمة كل مساء. في تلك الظهيرة أيضاً استعد كارل للقاء شهواني.

Twitter: @ketab_n

أصبحت الساعة الثانية عشرة وما زالت قافلتنا تسير تحت شمس حارقة. تصبب العرق منا وصرنا نمد أيدينا إلى أباريق الماء الفخارية الملفوفة بأكياس خيش رطبة وفوقنا الشمس تجرُّ ثوبها الذهبي في السماء مثل أميرة. مع اقترابنا من حمص اعتدل الجو قليلاً فرفعت الشمس ثوبها قليلاً وامتلأت السماء ببعض الغيوم الداكنة وهطلت قطرات خجولة كعاشقة في لقائها الأول مع حبيبها. فجأة هطلت أمطار غزيرة. أخبرَنا قائد القافلة عن خان قريب أمامنا سنحط فيه الرحال إلى أن يتوقف الزخ. كان رفاقي أصحابَ تجارب ويعلمون أن المنطقة منطقة أمطار دائمة لذلك فقد غطوا بضائعهم بالمظلات. أما أنا وآلبرتو دي سيلفا فلم يكن لدينا أي شيء نرميه فوق البضائع. وحينما سمعنا قصف الرعد العظيم وكأنه صوت انفجار قذيفة مدفع حربي ثارت الجمال وسقطت الأحمال. ولولا أنها كانت مربوطة بعضها ببعض لهرب كل جمل إلى جهة. حين حانت مني التفاتة إلى الخلف رأيت رفيقي آلبرتو يتدلى من بطن جمل وقد تناثرت صناديقه بعيداً عنه. شاهدت رجلاً هب لنجدته وأناخ الجمل فبرك على الأرض. كانت كل الأواني الزجاجة الثمينة قد تحطمت. وبينما أنا أواسيه وأقول له: «المهم الآن سلامة روحك وليذهب المال إلى الجحيم»، إذ سمعت صوتاً ينادي بالعربية: «القهوة، القهوة يا خواجه». أدركت أنه يعني حِمْلي من القهوة فركضت إليه ليصدمني المشهد! كانت حبات البن قد تناثرت في كل مكان. ماذا أفعل؟ لم يكن عندي أي مجال لجمع تلك

Twitter: @ketab_n

الحبوب المتناثرة فوق الطين فتركتها على حالها ولحقت بجملي وفي الطريق إليه صادفت حبة الكستناء التي لم أدر كيف سقطت مني. كانت متسخة مبللة بالطين. حملتها بحنان وحرص ومسحتها بمنديلي ثم أعدتها إلى جيبي. لم يستغرق زخ المطر ذاك سوى ربع ساعة لكنه بعثر كل حاجياتنا وبضاعتنا.

وصلنا إلى الخان في حالة يرثى لها. توقف المطر وأشرقت شمس لطيفة من وراء الغيوم. وضع بعض التجار أحمالهم من القماش على مصاطب في باحة الخان لكي تجف تحت وهج الشمس. في المساء هطلت مرة أخرى أمطار غزيرةٌ. حاولت كثيراً مواساة آلبرتو دي سيلفا بسبب ما خسره. أراد عدة مرات أن يعزف على الماندولين لكنه أحجم عن ذلك في كل مرة. كان حزيناً جداً وقال إن تاجراً حلبياً ينتظر بضاعته وخاصة تلك المزهرية الجميلة وأنه كان سيبيعها لوالي حلب فيكسب مبلغاً كبيراً من المال من ورائها. صباح اليوم التالي استيقظنا على صهيل الخيول ورغاء الجمال وجلبة التجار الذين انشغلوا بشد أمتعتهم على ظهور الدواب. بدت السماء صافية شديدة الزرقة وكأن مطر البارحة لم يهطل إلا ليفسد علينا سفرنا ويذهب بأرزاقنا.

تحت تلك السماء الصافية انطلقت قافلتنا من جديد صوب حلب.

***

Twitter: @ketab_n

حين سمع غوستاف أول رنة من رنات الناقوس الاثنتي عشرة، امتعض واربد وجهه. كان يريد أن يواصل سرد قصصه لكن القرع المستمر لم يسمح له بذلك. وحين سمع آخر قرع للناقوس قال: «أف! لن يدعنا هذا الصوت نكمل قصصنا. إلى أين وصلنا يا فرناندو العزيز؟ وهذا الضباب؟ عجيب يا رجل؟ هذا ليس ضباباً يا صاحبي. إنه برازٌ أبيض كبراز الكلاب. هللويا». ومن دون أن ينتظر رداً من فرناندو الصامت، مدَّ يده إلى علبة أمامه وأخرج منها قليلاً من التبغ ليضعه قرب أنفه ويشمه بعمق. ثم حمل زجاجة الروم التي أفرغها قبل قليل ليرميها بعنف أسفل الطاولة. تناول كأس الخمر ورشف جرعة كبيرة ثم حك لحيته الصهباء بأربع أصابع من يده اليسرى. جدد فرناندو -الذي كان يحدق في الرسام- تبغ غليونه وقال من دون أن يشعله:« قل فأنا أسمعك».

واصل غوستاف: «تبغك فاخر يا هذا! البضاعة الكوبية تُعرف من رائحتها. يبدو هذا جلياً. سنبيعها كلها فلا تهتم. أين وصلنا في الحكاية يا رجل؟ ها. تذكرت. قلت إنني وقعت عقد تسليم ليبرتا نيغرا. نعم وقعت العقد وعدت مع رفيقي باول إلى العمل. كثرت الفتيات. ما إن تشتهي واحدة حتى تصبح ملكك. تحصل عليها مقابل زوج أحذية، قنينة خمر، مزهرية، حفنة بن، بضع قطع من السكر. وأحياناً مقابل باوند من التبغ كان يمكن للمرء أن يحصل على إحدى الإماء لعدة أيام. حتى إنني حصلت ذات يوم مقابل علبة فضية على فتاة قادمة من

Twitter: @ketab_n

قرية غربي نهر تانو. في الحقيقة رهنت علبتي عند صديقي باول مقابل أن تبقى الفتاة عندي أسبوعاً قبل أن تصل سفينة نقل العبيد. كانت سوداء تشبه ليلة ليلاء أما لحمها فناعم بض كأنه حرير أسود ولشفتيها الغليظتين طعم جوز الهند، شفتان كدت ألتهمهما. هللويا.

كانت قامتها كشجرة كاكاو. شعرها الأشعث يشبه فروع الأناناس. لكنها كانت حلوة يا فرناندو حلووووة. صغر سنها زادها حلاوة على حلاوة. إنها بلاد الثمار الحلوة يا فرناندو الطيب. أسماؤهم أيضاً غريبة مثل أسماء جبالهم وأنهارهم وأشجارهم. أتعرف ماذا كان اسم تلك الفتاة التي شفتاها من فانيلا؟ اسمها غَنيمة! هللويا[1]».

ما إن أنهى غوستاف جملته حتى ضحك ضحكة مجلجلة ثم صار يطبق عينيه الصغيرتين إطباقات سريعة ويمسح بيده على صلعته ثم عاد من جديد إلى سرد حكاياته على مسامع فرناندو الذي بدأ يتململ على الكرسي مبدياً بذلك عدم رغبته في سماع المزيد لكن غوستاف

---

(1) ذهبت غنيمة ورفيقاتها ذات يوم جميل إلى ضفة نهر تانو وصرن يجمعن حبات الذهب التي يأتي النهر بها مع حصياته. هناك بدأن يغنين للإله تاكورا، راعي ذلك النهر الذي يقيم في منبعه حسب أساطير تلك المنطقة. كانت غنيمة ذات الاثنتي عشرة سنة تحمل وعاء من الخزف وتحمل به الطمي ثم تتفحصه حين ترفعه بحثاً عن التبر. في الثانية عشرة ظهراً هجم بعض الفرسان البيض المسلحين فجأة على القرية وحاصروها ومنعوا فرار أي فرد منها. كانت غنيمة قد وجدت لتوها حبة ذهب فانتابها سرور عظيم لكن سرورها لم يكتمل بسبب تلك الغارة فلم تجد بداً من ابتلاع حبتها الذهبية حفظاً لها. ألقى الفرسان أطواق الحديد حول رقبتها ورقاب صاحباتها لكنها بقيت تفكر في خبيئتها الذهبية. لم تفهم مغزى تلك الأطواق ولماذا يقودونهن إلى جهة البحر. في الأماكن التي توقفن فيها لم تجد فرصة للبحث عن الحبة بين برازها. لم تدرك غنيمة أنها صارت عبدة لأولئك البيض حتى حين ختموا على ردفها وتحت كتفها الأيسر بسفود محمي عريض بخاتم الشركة.

Twitter: @ketab_n

لم يأبه بذلك بل واصل حكايته فقال: «لا أدري كيف انصرمت السنوات الثلاث الأولى هناك؟ الذي أعرفه أنني كسبت الكثير من المال ونسيت كل شيء. وحده كلبي لم أستطع نسيانه. لو رأيته لمنحتني الحق في ذلك. كان ذكياً نبيهاً وهادئاً. لم أحدثك عنه أليس كذلك؟ أخذته معي من هيرنه إلى هناك. كان من نسلٍ إيطالي، جميلاً مثل أيقونة كاثوليكية. أذناه عريضتان طويلتان متدليتان. أما وبره فكان شديد النعومة لطيفاً وذيله مثل ذيل السناجب. كان ذكاؤه يظهر من عينيه الصافيتين. رافقني في رحلاتي بالسفن وفي الصيد وحتى أثناء صفقات البيع. ذات مرة أراد أحد التجار أن يشتريه مقابل ثلاثة من العبيد لكنني لم أبعه. أنا طلبت عشرة عبيد لكننا لم نتفق. وماذا كنت سأفعل بثلاثة عبيد فقط مقابل كلبي؟ كنت قد دربته على شم رائحة العبيد ذوي النوايا الخبيثة وصار يتعرف على كل عبد ينوي الهروب فيعوي عواء يدع العبد يتسمر في مكانه ولا يجرؤ أن يخطو خطوة زائدة. وآه يا فرناندو آه. ليت كلبي لم يرافقني ذلك اليوم إلى الصيد. كان الصباح باكراً تكاثف فيه ضباب مثل هذا الضباب على ضفتي نهر آنكورا. كنا قد أعددنا العدة منذ المساء للإغارة على القرية الواقعة على ضفة النهر. وحين جهجه الضوء هاجمنا نحن الخمسون صياداً مسلحاً بالبنادق والرماح القريةَ. كان الأطفال ما يزالون نائمين أما الكبار من النساء والرجال فقد تجمعوا على ضفة النهر يستعدون للنزول إليه لجمع حبات الذهب. أسرنا أولاً الأطفال جميعاً وجمعناهم في بيت

Twitter: @ketab_n

من القش ثم قال باول اذهبوا واقبضوا على الرجال أما أنا فسأبقى مع الأطفال. لم نكن نعلم أنهم مسلحون وسيقاوموننا. كان أولئك الوحوش قد تعلموا القتال ضد صياديهم حتى إنهم ما كانوا ليذهبوا إلى قضاء الحاجة من دون قوس ونشاب. وحين أحسوا بنا في ذلك الضباب سارع الرجال ليتخذوا مواقعهم فوق الأشجار وأمطرونا بوابل من السهام. لم نكن نريد قتلهم لذلك كنا نطلق الرصاص على السماء المحجوبة بالضباب لكنهم كانوا يريدون قتلنا. في تلك الأثناء أسرنا بعض النساء وقيدناهن وقدناهن إلى مكان آمن بعيد. وحين رأى الرجال على الأشجار نساءهم في الأسر هاجوا واضطربوا كثيراً وصاروا يرشقوننا بالسهام بغزارة. سقط بضعة رجال منا. كان كلبي بجانبي يهز ذيله بسرور حين فاجأه سهم كالبرق من جهة ما فأصابه وانغرز في قائمته الأمامية اليمنى فقفز ذراعاً في الهواء. أسرعت إليه ونزعت رأس السهم وقمت بمداواته في المكان نفسه ثم وضعته في حضني. لكن أنينه لم يتوقف. كان جرحه عميقاً لكنني لم أجد الوقت الكافي للاهتمام به. بذلنا كثيراً من المحاولات لكي نقنع أولئك السود أن ينزلوا من فوق الأشجار ويستسلموا لكنهم لم يفعلوا. فقررنا أن نهاجمهم مهما تكن النتيجة. صار كلبي يئن أكثر بسبب جرح قائمته. شعرت بألمه فتقطع قلبي. استمرت معركتنا مع أولئك الزنوج مدة ساعتين لكننا التقطناهم في النهاية مثل ثمار ناضجة، عشرة رجال وخمسة عشر امرأة وثلاثين طفلاً، وربطناهم جميعاً بمرس من أمراس

Twitter: @ketab_n

السفن. أما الآخرون فقد تمكن بعض منهم من الهروب بينما قُتِل بعض آخر فقطعنا رؤوسهم وعلقناها بالأغصان ثم حملنا جثث رفاقنا القتلى على ظهور الخيل وتوجهنا إلى كروس فريدريشبورغ.

ازدادت حالة كلبي الوفي سوءاً. لم يعد يأكل ولم يعد يشرب وفقد رغبته في اللعب. أصبح يئن طول الوقت ويلعق جرحه. ولما مضت أربعة أيام خارت قواه نهائياً فتمدد على الأرض وصار ينظر إليَّ بعينيه المليئتين بالتضرع. فحصه الطبيب فتجهم وجهه وقال بلهجة يائسة: «السهم الذي أصابه كان مسموماً بسم أفاعي الغابات. لن ينجو الكلب». كدت أفقد عقلي يا فرناندو. ألم أقل لك إنهم وحوش! في اليوم الخامس في الساعة الثانية عشرة تماماً مات كلبي. مات وهو في حضني وعلى وقع نشيجي. بللت وبره الجميل بالدمع. آه يا ليتني عرفت من هو ذلك الزنجي الذي أصابه بالسهم لكويت جسده من كعب قدمه حتى شحمتي أذنيه. لسلخته وملأت جلده الأسود بروث الفيلة. إنهم وحوش».

في تلك اللحظة رأى فرناندو دمعتين صافيتين تنحدران من عيني غوستاف الصغيرتين وتتدحرجان على وجنتيه المحمرتين لتبللا لحيته الصهباء ثم تناول من جيب بنطاله المخطط منديلاً مجعداً حائل اللون فمسح به وجهه ثم صلعته التي تصبب منها العرق وأعاد المنديل إلى مكانه.

Twitter: @ketab_n

انخفض صوت عزف الكمان كثيراً. أراد العازف أن يتوقف فرفع القوس عن الأوتار وصار ينظر إلى رواد الحانة كأنه يبحث عن صيحات الاستحسان. وحين رأى عدم اهتمام الحاضرين قلب بيده التي تحمل القوس ورقةً من دفتر أمامه وصار يعزف لحن «أيها السيد المسيح ارأف بنا» من تأليف صديقه في فايمار يوهان سيباستيان باخ.

كان عازف الكمان في طريقه إلى أمستردام بناء على رغبة صديقه باخ الذي بدأ نجمه يسطع في سماء فايمار. وقد أرسل باخ رسالة لعازف الكمان وطلب منه أن يشتري له آلة كمان من صنع يد هيندريك ياكوب الهولندي. كان هيندريك قد مات لكن شهرة آلاته لم تمت وصار العازفون من باريس ومدريد وبرلين والحواضر الأخرى يتسابقون لاقتناء ما صنعته يداه البارعتان.

ما إن بدأ العازف بعزف تلك القطعة حتى خرج فرناندو إلى باب الحانة من دون أن يقول شيئاً وصار ينظر بصمت إلى الضباب الكثيف كبخار يعلو قدراً اتقدت تحته نار عظيمة. أخذ نفساً عميقاً من غليونه ثم نفث الدخان ليختلط بالضباب وعاد إلى طاولته. ابتسم غوستاف وشعر أن فرناندو قد ضجر من طول حكاياته فقال: «يا فرناندو الطيب يا عزيزي. الصبر جميل. بعد قليل سنتناول الغداء ونذهب. سنبيع تبغك كله فلا تخف أيها الصديق العزيز. لقد بعنا الزنوج بعشرات الألوف فهل نعجز عن بيع خمسة عشر باونداً من التبغ الكوبي؟».

كان صمت فرناندو الذي لم يجد أية فرصة في الكلام، يشجع

Twitter: @ketab_n

غوستاف على المضي في سرد حكاياته فقال: «اعذرني يا فرناندو. أعرف أنني أطلت في الحديث وصدعت رأسك. لكن لم يبق سوى القليل. الصبر جميل يا صاحبي. سأحكي لك عن قصة سفري إلى سورينام. تلك السفرة الخرافية. ألا يسمون تلك المنطقة بالعالم الجديد؟ إنها فعلاً عالم جديد لا يمكنك تخيله. جرى ذلك في سنة تنصيب فريدريش ملكاً على بروسيا. لم يكن قد مضى على وصولي إلى أفريقيا سوى ثلاثة أعوام. كان كلبي العزيز قد مات وكنت شديد الغيظ حتى لو أنني قتلت وقتها مئة زنجي لما طابت نفسي. ساء الوضع في الشركة بعد أن دخلت عشرات الشركات الجديدة في مضمار المنافسة ولم تكن سفننا كما عليه الحال لدى الإنجليز والهولنديين الذين وضعوا أيديهم على تجارة العبيد وغلبونا في ذلك. في بداية الأمر كانت شركتنا تبيع ضعفي العبيد الذين تبيعهم الشركة الأفريقية الملكية في أمريكا. لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ انخفضت نسبة مبيعاتنا وصار الآخرون يسبقوننا إلى الصيد وصرنا كلما ذهبنا إلى منطقة وجدنا قراها محروقة ولا أحد فيها سوى المسنين. تلك القردة الهرمة لم تكن تساوي فلساً واحداً. حتى إننا أصبحنا نقتل بعضهم من شدة غيظنا. انهارت الشركة بسبب المنافسة الحادة من الإنجليز والبرتغاليين والإسبان والفرنسيين. كاد الصراع على العبيد أن يشعل حروباً بيننا. لم نستسلم يا فرناندو. انطلقنا إلى مناطق أخرى لم يستكشفها أحد لكن من دون جدوى. أتعلم لماذا أنا هنا الآن يا عزيزي؟ سأبني شركة بمفردي وعلى حسابي. سآخذ من

Twitter: @ketab_n

هنا مئة شاب ليعملوا معي. تستطيع أن تصبح شريكي بخمسين تالراً إذا شئت. شركتنا الأساسية لا تقبل بأقل من مئتي تالر كسهم شراكة أولية. كثير أليس كذلك؟ شاركني يا فرناندو. ضع خمسة وعشرين تالراً سهماً مبدئياً. صدقني نحن سنبيع الزنجي الواحد في أمريكا بعشرات التالرات. سنختار بضاعتنا من الزنوج الأصحاء الشباب طوال القامة والأشداء، وسنبيعهم في المكان الذي نصطادهم. لا حاجة بنا لأن نأخذهم إلى أمريكا. ولا يهمنا من يكون المشتري، إنجليز، هولنديون، سويديون، برتغاليون، فرنسيون، بولونيون وحتى لو كانوا كفاراً عثمانيين. بعد ذلك سنوسع آفاق تجارتنا فنشتري سفينة أو سفينتين وسنفرغ تلك الغابات وضفاف الأنهار والقرى ذات البيوت القشية من السود لنرسلهم إلى سورينام ونبيعهم ونشتري بأثمانهم القطن والفواكه والسكر وشراب الروم لنبيع كل ذلك في أوروبا».

كان الزبد يتطاير من فمه وهو يسرد حكايته الطويلة هذه فيصيب رذاذُه وجهَ فرناندو. صمت غوستاف قليلاً وأخذ جرعات كبيرة من النبيذ إلى أن أفرغ كأسه ثم عمد إلى كأس فرناندو فأفرغ ما فيها في جوفه بدفعة واحدة. أخيراً وضع رأسه على زنديه وغط في نوم عميق.

***

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فترة الظهيرة

الساعة الواحدة

سُمعت رنة يتيمة لكنها قوية من ناقوس الكنيسة الذي أعلن الواحدة ظهراً[1]. لم يسمع طالب اللاهوت جلبةً وقت الغداء من الأسفل. أما سرب الحمام الذي كان على البرج فقد طار بعيداً لكن الطالب لم يسمع رفرفة أجنحتها ولا سمع صوت تلك الرنة اليتيمة أيضاً. لقد جذبته مخطوطات مارتين إليها وأوقعته في شراكها. انتبه إلى مخدته فرآها محشوة بالريش ورأى ريشة أخرجت رأسها من بين نقوش

(1) كارل الذي كان اسمه في السابق بوريسلاف قرع الناقوس وأصدر تلك الرنة القوية ثم نزل إلى القبو حيث كانت هناك عشر جرارٍ من الخمر المعتق مسنودة إلى جدار تفوح منه رائحة العفونة. شرب ثلاث طاسات من الخمر ليتغلب على برودة القبو قبل أن يأتي صبي الكنيسة جورج. كان جورج صبياً يتيماً يعمل في الكنيسة منذ أن كان في العاشرة. في أول يوم له في الكنيسة اشتهاه كارل الصربي وصار يراوده عن نفسه حتى استطاع بعد مدة أن يدفعه إلى فخاخه.

Twitter: @ketab_n

مطرزة على حواف المخدة مثل سجين يحاول الهروب من زنزانته. حررت تلك الوسادة التي كانت تسجن الأرياشَ عصافيرَ خياله وجعلتها تطير صوب الشرق. مد طالب اللاهوت يده إلى تلك الريشة، أمسك بطرفها وسحبها برفق وحررها فرآها ريشة إوزة. «ريش الإوز بيِّنٌ»، قال لنفسه ثم نفى تلك الريشة الحرَّة إلى صفحات المخطوطة التي بين يديه. سكن برهة ثم عاد للقراءة:

***

قبيل الغروب لمحنا بناء شاهقاً فوق تلة. صرخ آلبرتو فرحاً: «هذه حلب وها هي قلعتها». كان آلبرتو قد نسي أوانيه التي انكسرت في الطريق فمد يده إلى آلته الموسيقية وصار يعزف وهدرت حنجرته بأغنية لطيفة. لم أفهم سبب سروره البالغ ذاك ولم أعرف أيضاً ما الذي يخبئه القدر لي في تلك المدينة. كنت متجهاً إلى عالم مجهول متهيباً مما ينتظرني لكن إغراء الحصول على كتاب الإفادة في إكسير السعادة كان يكفي لكي تتبدد كل مخاوفي[1]. كنا مرهقين نكاد نغفو أمام الهواء العليل الذي كان يأتينا من جهة المروج الغربية. كانت تلك المرة الأولى

(1) قبل أن نصل إلى حلب قال أحد أفراد القافلة أن ثمة عمياناً يجلسون على باب المساجد يحفظون الكتب عن ظهر غيب. في حلب صادقت الكثيرين من أولئك العميان الأذكياء النابهين. وقد لفت نظري من بين الجميع ضرير اسمه نور الدين. كان آية في الذكاء والفصاحة.

Twitter: @ketab_n

في حياتي أتعرض فيها للشمس ذلك الوقت الطويل. الشمس في بلادنا تشبه اللصوص فما إن تبدو من وراء الغيم حتى تغيب من جديد، أما في هذه البلاد فإنها سلطان الطبيعة على مدى ستة أشهر.

اقتربنا من المدينة حتى وصلنا إلى أسوار القلعة فترك صديقي آلبرتو فجأة آلته من يديه وكفَّ عن العزف والغناء ثم قال لي: «عليك أن تستأجر غرفة بجانب غرفتي في الخان حتى يكون لك عنوان معروف لدى القنصليات الأوروبية في حلب». فرحت حين سمعت كلمة القنصليات التي أزالت عني الخوف من الغربة قليلاً فسألت: «وهل توجد قنصليات في هذه المدينة؟»

- هذه حلب يا مارتين. هذه مدينة تربط العالم بعضه ببعض، إنها إبرة تخيط الشرق بالغرب. لم تر شيئاً بعد.

- وهل خاناتها كبيرة مثل خانات دمشق وعكا؟

- ثمة مثل شائع هنا يقول: الخانات خانات حلب، والمساجد مساجد اسطمبول والحمّامات حمّامات دمشق. فلنذهب إلى خان الهوكيدون قبل أن تظلم السماء ويغلق الأوضه باشي باب الخان.

لم أفهم شيئاً من حديثه. ما هو الهوكيدون؟ ومن هو الأوضه باشي؟ ولماذا يغلق الأبواب؟ هل سننام في قلعة أم أننا سنبيت في سجن؟

ذهبنا إلى الخان. كان جميلاً وصغيراً. رأينا شخصاً ضخم الجثة يوشك أن يغلق الباب الكبير العالي. تحدث آلبرتو دي سيلفا قليلاً معه ثم استلم مفتاحاً ودخلنا.

Twitter: @ketab_n

ونحن ندخل ونصعد الدرج قال آلبرتو:

- نحن محظوظون جداً يا مارتين. لو لم يكن الآن موسم الحج لما رأيت مكاناً شاغراً في الخان.

- أي حظ يا آلبرتو؟

- في هذا الخان يقيم الأرمن الذين يحجون إلى بيت لحم. وقد كان الخان يعج بهم حتى قبل ثلاثة أيام كما يقول الأوضه باشي. الآن ليس فيه سوى بعض التجار والرحالة وعجوزان تخلفا عن قافلة الحج.

حصلت على غرفة بجانب غرفة آلبرتو في ذلك الخان الهادئ الذي لم يكن يُسمع فيه سوى صوت سعال رجل وثرثرة امرأة.

في الفجر سمعت صوتاً ذا وقع جميل فاستيقظت. كان صوتاً رخياً تحمله الأنسام العليلة، كان ذاك صوت الأذان يعلو من مسجد قريب. خرجت من فراشي واتجهت إلى نافذة غرفة آلبرتو. كان يغط في النوم.

***

كنت أستيقظ كل فجر خلال الأسبوع الأول من إقامتي في حلب على صوت الأذان فأبقى متمدداً في فراشي أستمع حتى ينتهي المؤذن[1].

(1) أدركت فيما بعد أن مؤذن المسجد القريب من الخان كان يؤذن للفجر على مقام =

Twitter: @ketab_n

كان ذلك يزعجني في البداية ويؤرقني فلا أستطيع النوم. أما آلبرتو فسرعان ما كان يغط في النوم غير عابئ بشيء. وبعد انقضاء الأسبوع تعودت مثل رفيقي على الجلبة والأذان وأصوات بائعي الحليب أمام باب الخان.

صرنا أنا وآلبرتو نخرج قبل الظهر لنتجول في المدينة حيث لفتت نظري بيوتها المبنية بالحجر الأبيض وأزقتها وحاراتها الضيقة، كذلك ورودها الجورية، ياسمينها وقرنفلها الذي ملأ الأجواء بعبق زكي. كنا نسير في الأزقة الضيقة حتى نصل إلى باب القلعة ثم ندخل الأسواق المسقوفة حيث تسكر المرءَ الروائحُ التي تفوح من القرفة والزعفران والكمون والكزبرة والحناء وكثير من التوابل الأخرى.

لم أكن أمل من السير بجانب المساجد والأديرة وعلى الطرقات وفي الأسواق والقيصريات، ولولا خوفي من أن أبيت خارج الخان لما عدت إلا حين ينتصف الليل. لقد كان الأوضه باشي يغلق الباب بمجرد أن تظهر بعض النجوم في السماء وتظلم الدنيا. حتى إنه سمى أحد النجوم باسم قفل الخان فما إن يظهر ذلك النجم حتى يغلق الباب ولا يفتحه لأي كان.

كان البحث عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة سبباً رئيساً لحركتي وتجوالي، فقد كان مثل نحلة تطن في رأسي. كتبت الاسم على

= النهاوند، ويؤذن لصلاة الظهر على مقام البيات، والعصر على مقام الصبا، أما في أذان المغرب فقد كان يستعمل مقام الرصد أو العجم. صلاة العشاء كان يدعو إليها المؤذن على مقام الحجاز بصوت شجي حتى يتخيل المرء أن النجوم والكون كله يصغي إليه.

Twitter: @ketab_n

ورقة وصرت أعرضها على كل من أتوسم فيه علاقة بالكتب. ردد آلبرتو مراراً: «الكتاب الذي تسعى وراءه يا مارتين غير موجود. ها أنت تسمع بأذنيك أنه وهم فلا تتعبنا بالبحث عنه». وكنت أرد عليه: «هب أننا نسعى وراء كنز من الكنوز مطمور تحت الأرض. إن عثرنا عليه كان بها وإلا فإن تجوالنا متعة وليس بخسارة لنا».

لم يقصر آلبرتو معي، بل رافقني إلى جميع الخانات والمكتبات والمساجد وحجرات الدرس والناسخين والوراقين. كنا كمن يبحث عن قطرة ماء انسربت إلى البحر. بقينا على هذا المنوال عشرين يوماً من دون جدوى. عرض بعض الناسخين علينا نسخاً من كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء الذي يقال إنه يساوي وزنه ذهباً. لكنني لم أعره أي اهتمام إذ ما الذي سأفعله بكتاب يريني مسالك البلدان وأطراف البحار وطرق الجبال ودروب الأنهار؟ كنت أبحث عن الكتاب الذي يدلني إلى طرق الحصول على السعادة الأبدية[1].

أدهشتني الكتب المصفوفة على الرفوف بجمالها وترتيبها وتنوعها ورائحة الحبر الطازج التي تفوح منها. أصبحت تلك الرائحة تسكرني حتى لكأن تلك الكتب مكتوبة بالخمر لا بالحبر، وهي كلها كتب مخطوطة غير مطبوعة فأهل الشرق لا يعرفون المطابع.

(1) رأيت ذات مرة نسخة من كتاب تقويم البلدان عند تاجر أصفهاني. طلب مني ثمنها خمسين طغرالياً ذهبياً. تصفحت الكتاب قليلاً فإذا به شاملٌ لمسالك العالم كلها من سمرقند حتى طنجة وحدود فرنسة. لكن معرفة تلك المسالك لم تكن تهمني بقدر ما كانت تهمني مسالك السعادة.

Twitter: @ketab_n

وذات مساء قال لي آلبرتو: «تعال لآخذك إلى أحد علماء حلب لترى كيف يعمل النساخون عنده في نسخ الكتب. وربما نلتقط هناك رأس خيط يدلنا إلى كتابك الذي تبحث عنه». طلبنا الإذن من الأوضه باشي بعد أن رشاه آلبرتو ببعض النقود. الرشوة تلين الحجر وفي بلاد العثمانيين يمكنك أن تفك حتى تكة سروال زوجة الوالي إن رشوته.

وصلنا إلى بيت ذلك العالم الحلبي وكان في حارة قريبة من القلعة مزدانة بقناديل مضيئة. توسط باحةً الدار حوضُ ماء تحلق حوله بضعة نُسَّاخ يصححون نسخة من أحد الكتب على ضوء شموع موضوعة على حواف الحوض. راقبت ذلك المشهد الشرقي بإمعان فلفت نظري أنامل أولئك النساخ الملوثة بالحبر. قرأ أحدهم الكتاب بصوت عالٍ بينما انحنى الآخرون يدققون: كلٌّ في النسخة التي بين يديه، ويصححون الأغلاط. كانوا يتوقفون بين الفينة والأخرى ليحتسوا شراب التوت ثم يعودون للتصحيح.

أخيراً، وحين انتهى التصحيح، عرَّفني صاحبُ الدار العالم الحلبي صديق آلبرتو برهط النساخ ذاك. تعرفت إلى نور الدين الضرير أيضاً. كان آلبرتو ترجماني في تلك الليلة المليئة برائحة الحبر والقراطيس وصرير الأقلام.

وعندما علم الجميع أنني أبحث عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة دهشوا وصار كل واحد يفرك صدغيه ويضيق ما بين عينيه. أنكر بعضهم وجود الكتاب، فيما زعم آخرون أنهم سمعوا بوجوده في

Twitter: @ketab_n

المدينة الفلانية أو الفلانية. قال أحدهم إنه سيبحث في مكتبة الجامع الكبير، في حين قال آخر إن الكتاب قد يوجد لدى الرهبان السريان أو المارونيين ثم تجادلوا في ذلك حتى كادوا يتخاصمون. بدا من تململ نور الدين الضرير في مكانه أنه يريد الخوض معهم وتحديد مكان ما لكنه لم يتكلم. لم أصل من تلك الجلبة إلى نتيجة فعدنا أنا وآلبرتو آخر الليل إلى الخان.

***

كان في خان هوكيدون، حيث أقمنا، عجوز أرمني يسمى وانيس مع زوجته زاره[1]. وقد تخلف هذان الزوجان عن ركب الحجاج المسيحيين إلى القدس بسبب مرض ألم بهما. كانت تلك هي المرة الخامسة لهما وقد زارا في المرات الأربع السابقة القدس ومسقط رأس يسوع المسيح في بيت لحم. ولأنهما تخلفا عن قافلة الحج الأرمنية فقد أرادا البقاء صيفهم ذاك في حلب حتى يعود الحجاج ليرجعوا إلى بلادهم.

كانت نوبات السعال تنتاب وانيس كثيراً حتى يكاد يختنق ثم يهدأ فيبقى صامتاً لهنيهة وتعلو وجهه المخدد كآبة عظيمة ليقول أخيراً

(1) عرفت في ذلك الخان أن هناك قوماً اسمهم الأرمن يدينون بالمسيحية، ففي فسيفساء الشرق العجيب ذاك تصادف قوماً جديداً ما إن تخطو خطوتك التالية. وفي الأماكن التي تتجاور فيها الملل والأقوام تكثر العداوات والإحن. وإن حياة هادئة بين ملتين أو أتباع ديانتين مختلفتين لهي معجزة ربانية.

Twitter: @ketab_n

بصوت واهن: «كنت أريد زيارة الضريح المقدس هذه المرة أيضاً ثم إن جاءني الموت فمرحباً به. أشعر أنه قد دنا أجلي ولم يبق بيني وبين قبري سوى خطوات قليلة. ليت الرب منحني هذه السعادة في آخر عمري»[1].

السعادة مرة أخرى؟ ينظر إليها كل شخص بمنظاره الخاص ويعرفها حسب هواه. لكن لا أحد أحاط بها، لا أحد يستطيع تحديد الإنسان السعيد. كنت أمني نفسي بالحصول على ذلك الكتاب الذي يعرِّف السعادة وأحضره معي إلى بلادي إن عدت ذات يوم لأترجمه وأشرح ما فيه وأنال بذلك حظوة كبيرة لدى ملوك أوروبا وأمرائها لم ينلها أحد قبلي. من الشرق تعريف السعادة وفي الغرب تحقيقها! وما بين التعريف والتحقيق مسافة سنوات من سفر شاق محفوف بالمخاطر.

بدأت أتعلم اللغة العربية رويداً رويداً. كان لفظ بعض الحروف عسيراً كما لو أنه حسكة عالقة في حلقي. مراراً ضحك الحلبيون على تلفظي تلك الحروف وسخروا مني لكنني لم أعرهم أدنى اهتمام.

هناك بعض الناس يألفون الأماكن بسرعة حتى لو كانت تلك الأماكن سجوناً. وأنا كنت من هذا الصنف من الناس إذ لم يحزنني بعدي عن الوطن وكنت أستغرب من رفاقي الذين كانوا يتحدثون

(1) أحيناً تصدق أحاسيس المرء. إذ يقول بعضهم أن أجلهم قد دنا ويموتون فعلاً فيستغرب الآخرون ويتساءلون عن سر ذلك! هم يرجعون هذا الأمر إلى قوى خفية. أما العجوز الأرمني وانيس وزوجته زاره فقد عادا مع القافلة إلى بلادهما ولا أدري ما الذي جرى لهما.

Twitter: @ketab_n

عن آلام الغربة وأعجب لهذه المشاعر كيف تنتاب من في رأسه عقل؟

تعودت على الحياة في الخان إذاً من دون أن أتعلم اللغة العربية بسرعة. كانت في غرفتي طاولة منقوشة بالصدف بجانب النافذة أكتب عليها في الليل وعلى ضوء شموع ثخينة يومياتي في حلب. أعد آلبرتو العدة للسفر إلى أصفهان مدفوعاً بشوقه إلى حبيبته روناز[1]. أراد أن يأخذني أيضاً معه، لكن لمن كنت سأترك عيني كوثر الكردية؟

***

الخانات في هذه البلاد ليست أمكنة لراحة المسافرين والتجار فقط، بل هي أسواق وبازارات أيضاً يستطيع كل من لديه بضاعة أن يعرضها هناك. وفي الصيف تصبح خانات حلب مثل خلايا النحل وتعج ببضائع قادمة من الصين والهند وبلاد العجم وإزمير ودياربكر والقسطنطينية واليمن والحجاز وروسيا ومرسيلية والبندقية وجنوة وسائر الممالك الأوروبية. وكما تختلط البضائع في سوق الشرق حلبَ، كذلك تتجاور الألسنة والأقوام والأديان والمذاهب مثل نقوش في بساط عجمي.

ولقد كان خان هوكيدون أيضاً، وبالرغم من صغره واسمه البعيد من معاني التجارة وأخلاق التجار، مكاناً لتبادل التجارة بين الشرق

(1) يقول آلبرتو إنه تعرف على روناز خلال إحدى أسفاره إلى أصفهان. وقد وعدني بسرد قصتها حين تسنح الفرصة.

Twitter: @ketab_n

والغرب. ولقد ندمت لأنني لم أشتر أحمالاً من الورق بكل ما عندي من مال.

وذات صباح، كنت أنا وآلبرتو قد تناولنا فطورنا للتو وصرنا نستمع لسعال وانيس وثرثرة زاره، دخل الخان رجل في أواسط العمر يرتدي سروالاً فضفاضاً وسترة مخططة وله شاربان معقوفان أشيبان، وتمسك بيده فتاة ترتدي ثوباً طويلاً بلون السماق وتحمل بضعة أكياس صغيرة.

وضع الاثنان ما معهما من متاع ثم جلست الفتاة على طرف الحوض واستطعت أن أميز، وأنا أراقب المشهد، عينيها الوحشيتين اللتين لمعت فيهما آلاف البروق. لا أعرف أية قوة جعلتني أنزل إلى فناء الخان. لم أجد نفسي إلا وأنا أقف قبالة الفتاة أحدق في البروق التي تلمع في عينيها. هي بدورها صارت تحدق فيَّ باشتهاء، أو هكذا ظننت، من دون أن ترفع بصرها عني.

حين أحس ذلك الرجل ذو السروال الفضفاض بقدومي التفت إليَّ وقال بصوت مبحوح مبتسماً: «صابون صابون. صابون غار».

بقيت الفتاة جالسة في مكانها مستمرة في التحديق إليَّ. كانت تضع على رأسها منديلاً مورداً يخفي نصف شعرها. أخرج الرجل الضرير من أحد الأكياس قطعة صابون وصار يشمها بعمق ثم أعطاني إياها لأشمها أنا بدوري. شممت تلك القطعة من الصابون الذي سأعرف فيما بعد أن اسمه صابون الغار وأنني سأتحمم به طوال إقامتي في

Twitter: @ketab_n

حلب. عبقت منها رائحة طيبة مجهولة فاشتريت قطعتين ونقدته ثمنهما وقلت له بعربيتي المكسورة مثل عربيته: «شكراً حجي»[1].

كانت الفتاة غارقة في الصمت وكان وجهها هادئاً جميلاً كأنه حرير هندي أو قطن مصري مندوف، لكن نظرات عينيها كانتا حادة مثل خناجر الأكراد[2]. وحين حمل الرجل الضرير أكياسه، أطبق عينيه إطباقات سريعة ثم قال للفتاة بحنان: «رابه قيزى»[3].

نهضت الفتاة وحملت الكيس الذي أمامها. عدّلت منديلها الذي حسر عن رأسها ثم أمسكت بيد الرجل ومضت من دون أن تنظر إليَّ. وحين ابتعدت قليلاً سنحت لي الفرصة لأرى قامتها من الخلف. كان ثوبها الطويل حتى كعبيها يرسم حواف جسدها وسهوله ووديانه وتفاصيله. يا إلهي أية قامة كانت تلك؟ لقد نحتها الرب بمزاج رائق.

وحين خرج الاثنان عدت إلى غرفتي. كان العجوزان وانيس وزاره قد لاذا بظل شجيرة برتقال يشاهدان ماء الحوض في وسط فناء الخان. ارتفع ماءٌ أبيضُ نحيلٌ في اتجاهات ثلاثة بقدر ذراع ثم صار ينزل

(1) حجي هو من زار الحجاز وذهب إلى الحج الذي هو ركن من أركان الإسلام. في الشرق يقال لكل رجل مسن قليلاً حجي سواء كان حاجاً أم لا. هذه الصفة من صفات الاحترام هناك. ولقد لاحظت أن حجي أكثر تأثيراً من كلمة أفندي.

(2) في الأسبوع الماضي اشتريت من أحد الأكراد خنجراً معقوف النصل بمقبض من خشب الجوز المفضض والمزين بالخرز الملون وغمد من جلد النمر.

(3) تعني بالكردية هيا يا بنت. كان ذلك الرجل كردياً من قوم صلاح الدين. كان أصفر الوجه ذابلاً وأدركت أنه مريض بالسل. أما الفتاة فقد كانت ابنته كوثر. كوثر الكرداغية. كوثر التي ستأخذني معها إلى الجنة لتضعني على حافة حوض الكوثر وتعيدني ظامئاً من هناك ثم تلقيني في الجحيم حتى يهترئ قلبي وتتفحم عظامي.

Twitter: @ketab_n

في هيئة أقواس إلى الحوض يرافقه خرير عذب واهتزاز لماء الحوض مما جعل بتلات الورد الجوري الطافية على الماء تدخل حلقة الرقص.

سلمت على العجوزين وصعدت إلى الأعلى من دون أن أنتظر ردهما على تحيتي. ألقيت بنفسي على السرير تحت الناموسية المنصوبة مثل خيمة. كان يوماً شرقياً حاراً. نزعت عني ثيابي قطعة وراء قطعة وبقيت عارياً تماماً ثم وضعت ساعديَّ تحت رأسي لأتخيل أمامي جسدَ كوثر مثل غيمة هفهافة حبلى بالمطر. كان ذلك جسداً أسمر أنضجته الشمس مثل حبة تين. لقد رأيته بخيالي قبل أن أراه عياناً. كان جسداً أنثوياً فتياً أحضره خيالي ليعرضه أمامي. أحضر خيالي تلك الغزالة الكردية وساقها إلى الشرك المنصوب في أعماق الوعي. وحين نزعتْ منديلها، في الخيال، تدفق شعرها الأسود مثل شلال من المسك. لم يكن جسدها ذاك سوى قرص عسلٍ ولم أكن إلا دباً جائعاً غرز فيه مخالبه. انقطعت عن الدنيا. انقطعت عن جلبة السوق المسقوف، عن قرقعة حوافر الحمير والبغال والخيول، عن صيحات الباعة في الأزقة الضيقة وعن سعال وانيس وثرثرة زاره. لم أعد أسمع أي صوت سوى أنفاسي وآهات اللذة المخنوقة في غرفتي. قلت في نفسي: «إن كانت هذه الغزالة الكردية الجميلة لذيذة هكذا في الخيال، فكيف ستكون في الواقع يا ترى؟»

***

Twitter: @ketab_n

قبل أن يتوجه آلبرتو إلى أصفهان في بلاد العجم، قال لي ذات يوم: «تعال يا مارتين لأعرفك إلى أحد الصاغة. أصله من حماة وهو إلى جانب كونه صائغاً، رسامٌ أيضاً وعنده علم بالمخطوطات لأنه كان يتاجر بها في وقت ما. سنذهب إليه فربما نجد ضالتنا عنده. ألا يقولون إن الثعالب تظهر من المكان الذي لا تتوقعها فيه؟»

وذات صباح بدا حاراً من بدايته ذهبنا مستظلين بأفياء الجدران في الحارات الضيقة حتى وصلنا إلى أسفل القلعة عند باب قنسرين الذي هو أحد أبواب حلب الستة عشر ويقع بين باب أنطاكية وباب المقام. من هناك عرجنا على سوق مسقوفة تتراصف على جانبيها حوانيت الصاغة. ما لفت انتباهي في تلك الدكاكين أن الحلي الذهبية مثل الخواتم والأساور والأقراط والقلادات والمناطق والخلاخيل وكل الأنواع الأخرى كانت موضوعة في الأقفاص لحفظ الذهب من اللصوص. لم تكن جلبة تلك السوق تشبه جلبة الأسواق الأخرى وظهر لي أن صوت المشترين خافتٌ وأدركت من ذلك أنه كلما علت مرتبة صنعة ما أصبحت العلاقة بين الباعة والمشترين أكثر تمدناً. أحببت تلك السوق الظليلة المنعشة لكن أغاظني مرأى أولئك النسوة اللواتي لم يكن يظهر منهن أي شيء. كن ملتحفات بالسواد من مفارق رؤوسهن إلى أخامص أقدامهن إلا بعض الفتيات والنسوة القادمات من القرى فقد كن كاشفات الوجه يلبسن الثياب والمناديل الملونة.

لم نمش كثيراً في تلك السوق فقد كان حانوت زكريا الصائغ في

Twitter: @ketab_n

أولها فدخلناه وبعد التحية باشر آلبرتو بتعريفي قائلاً: «هذا مارتين». ثم دخل في حديث حول الكتب والمخطوطات. كان في آخر الحانوت صبي يافعٌ منكباً على إصلاح سوار معوج، وحين سمع حديث المخطوطات وضع السوار من يده ثم التفت إلينا بوجهه الغض وصار يصغي إلى الحديث. لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى نهره الصائغ وقال له: «لماذ تحملق فينا كالسكارى يا عبد الله؟ هيا آتنا ببعض الماء البارد لهذين الأفنديين»، ثم التفت إلينا وقال مبتسماً: «هذا هو ابني عبد الله. أريد أن أعلمه صياغة الذهب لكنه يهوى الكتب».

تبادلنا الابتسامات ثم رأينا عبد الله وهو يضع أمامنا طبقاً فضياً عليه ثلاثة أقداح بللورية رشيقة من زجاج حلب المشهور. احتسينا الماء وصار زكريا يحدثنا عن السوق وكساده ثم عرج على الحديث عن الكتب حتى بلغنا كتاب الإفادة في إكسير السعادة وفهمت من محادثته مع آلبرتو أن الكتاب ليس له أثر. لم أعد مهتماً بالكتاب والحصول عليه كما في السابق لذلك فضلت الإنصات لما يتحدثان به وإلى جلبة المتسوقين الهادئة خارجاً.

وفجأة دخلت الحانوت فتاة كنت قد لمحتها وهي في الخارج. خفق فؤادي وقلت لنفسي: «ترى أليست هذه كوثر الكرداغية؟»

***

Twitter: @ketab_n

كانت هي، هي نفسها. بتلك القامة الأسطورية وفمها البرعمي ومنديلها المورَّد. وحين خشخش ثوبها البنفسجي الفاتح المنقوش بزهور سوداء صغيرة، فاحت رائحة الفردوس. تصادمت نظراتنا مثل مراكب القراصنة. دُهشتْ هي أيضاً حين رأتني وسرعان ما تفجر ينبوع ابتسامة حلوة على شفتيها. عرفها زكريا الصائغ فنادى ابنه: «يا عبد الله قم وانظر ماذا تريد كوثر».

كان آلبرتو وزكريا قد انتهيا من حديثهما عن الكتب وانتقلا للحديث عن السجاد الأصفهاني، والأواني الزجاجية من صناعة مورانو في البندقية، وتلك المزهرية الفاخرة التي تحطمت خلال رحلتنا إلى حلب، عن البن اليمني وصابون الغار الحلبي والورق السمرقندي والحرير الهندي. صارا يتحدثان عن المسيحيين والخلاف الذي نشب بين فرقهم في البلاد الإفرنجية وانتقال ذلك الخلاف إلى مسيحيي الشرق. أما أنا فقد كنت أشاهد وأصغي إلى حسيس نار الشهوة التي أوقدها ذلك الجسد في قلبي. ذلك الجسد أشعل نيران صراع عظيم بين قلبي وعقلي، بين شعوري واللاشعور، ووضعني في أرجوحة من لهب تتأرجح بي بين الشهوة والحب. قمت وتوجهت صوب عبد الله وزبونته[1] وحين وصلت إليهما طرحت سؤالًا بالإيطالية مغلفاً بحرير الرجاء على مسامع عبد الله: «هل لك أن تسأل هذه الفتاة إن كانت

(1) كان آلبرتو، كلما تذكر ذلك اليوم، يضحك ويقول لي: «لقد انتبهت إليك فرأيتك مثل إبليس تنسل من بيننا وتذهب لتقف بجانب كوثر. أدركت أنك وقعت في غرامها. فلقد كانت كذلك قصة حبي مع روناز».

Twitter: @ketab_n

تستطيع أن تعلمني اللغة العربية؟».

أجابني زكريا: «لو شئت فإن عبد الله يستطيع تعليمك العربية قراءة وكتابة وحديثاً». ثم استدرك وكأنه علم باشتهائي لكوثر قائلاً: «لا يجوز لكوثر أن تعلمك. الأمر هكذا في هذه البلاد. لا يجوز يا مارتين، لا يجوز. هي مسلمة وأنت مسيحي».

عدت صامتاً إلى مكاني. تحدث زكريا إلى كوثر قليلاً وكلما كان اسمي يمر في الحديث كانت كوثر تبتسم وتنظر إليَّ ثم غادرت ففاحت تلك الرائحة الفردوسية من ثوبها البنفسجي من جديد.

صباح اليوم التالي توجه آلبرتو مع إحدى القوافل إلى أصفهان في بلاد فارس. وقبل أن يغادر ترك آلته الموسيقية في غرفتي وقال: «يا مارتين الغبي هنا الشرق. لا تستطيع فتاة أن تبقى لوحدها حتى مع ابن عمها. ألم تسمع ما يقولونه هنا؟ إنهم يقولون لا يجتمع فتاة مع شاب إلا والشيطان ثالثهما. إن حبيبتي روناز أرمنية ومسيحية ومع ذلك لا أراها إلا خلسة. اهتم بنفسك».

بعد رحيل آلبرتو فكرت في طريقة أتمكن بها من لقاء كوثر. كانت تلك اللبوة قد أنشبت أنيابها في قلبي. سكرت بخمرة حبها واعتبرت ذلك امتحاناً من الرب. عرفت أنني لو اتبعت هوى قلبي فإنه سيرميني في المهالك. القلب دليل أعمى والحب فخ لامرئي. أما أنا فلقد كنت بلا تجربة ولم أقو على مواجهة عاصفة الحب. كان قلبي يقودني إلى ذلك الفخ اللامرئي. كنت لوحدي مثل شجرة يتيمة يكاد السيل أن يقتلعها

Twitter: @ketab_n

من الجذور.

اضطررت أن أنشغل عن ذلك الحب الجارف الذي كان من طرف واحد، بتعلم اللغة العربية ونجحت في ذلك إلى حد ما.

صرفت كل وقتي في تعلم العربية على يد عبد الله بن زكريا. بدأت بتعلم النحو والإملاء في حجرة صغيرة لصق الكنيسة الأرمنية الكبيرة[1].

كان راهب حلبي اسمه جرمانوس فرحات، يقيم الآن في دير بجبل لبنان، قد ألف كتاباً لطيفاً عن قواعد اللغة العربية حفظه معلمي الفتى عن ظهر قلب. صار عبد الله يعلمني كتابة الأحرف العربية التي بدت لي شبيهة بالصور فتعلمتها لكنني كنت أخلط المذكر بالمؤنث ما يثير ضحك الأستاذ الصغير وحتى خجله من أخطائي لكنني كنت أواسيه وأقول: «يا أستاذ إن الذي يخطئ هو أنا ولست أنت. ينبغي أن أخجل أنا لا أنت».

***

الآن وأنا على هذه الطريق لا أتذكر كثيراً من الأشياء التي جرت لي في حلب. أصبح بعض الذكريات مثل ضباب أحاول رؤيته على

(1) كان اسمها كنيسة الأربعين شهيداً. على اسم أربعين جندياً اعتنقوا المسيحية في عهد حاكم بيزنطي في أرضروم فألقاهم الحاكم البيزنطي في ليلة شديدة البرودة عراة على الجليد حتى ماتوا جميعاً.

Twitter: @ketab_n

ضوء خيالي. بعضها كالمرايا الواضحة الصقيلة أرى فيها كل شيء. إنني بحاجة إلى الراحة لأكتب. لكنني أفتقدها في طريق الهرب هذا. هربت الراحة مني كما هربتُ أنا من حلب. في هذه القافلة حيث نعيش هاجس الخوف من قطاع الطرق لا أتذكر كثيراً من الأحداث.

كان بطريرك حلب اللبق، راعي خراف كنيسة الروم الأرثوذكس الملكيين أثناسيوس الثالث دباس دائم الترحال من وإلى قبرص سعياً وراء مصالح رعيته. وذات سفرة من أسفاره عرَّج على بلاد الأفلاق[1] فحصل من عند أميرها على مطبعة وجلبها معه. أصبح معلمي الفتى عبد الله، الذي سموه الزاخر لغزارة علمه وشبهه بالبحر في سعة مداركه، من عمال هذه المطبعة إلى جانب أخيه نعمة الله والراهبين الحلبيين جرجس وميخائيل البزي.

كنت قبل ذلك، لحاجتي إلى بيع بضاعتي من الورق وازدهار تجارتي، قد أشرت على البطريرك بضرورة جلب مطبعة تستطيع طبع مئات النسخ أجمل وأقل أخطاءً مما يفعل النساخ فاستحسن الفكرة. كنت أعرف أن ما عندي من أكداس الورق سيتحول إلى نهر أبيض يتدفق إلى أسواق حلب إن عملت المطبعة في طبع ونسخ الكتب.

ولقد كان يوماً مشهوداً في حلب حين وصلت آلة الطبع ووضعت في وسط باحة الكنيسة. قام البطريرك وغمس باقة من نبات الزُّوفا في الماء المقدس ثم رفع الباقة ورسم بها صليباً في الهواء باتجاه المطبعة وقال

(1) رومانيا الحالية. المترجم

Twitter: @ketab_n

وهو ينثر المطبعة بالماء: «جاء في الكتاب المقدس أنه في البدء كانت الكلمة. نعم الكلمة. وها نحن اليوم سنخدم تلك الكلمة بهذه الآلة. فليباركها الرب. آمين».

أما المسلمون فقد نظروا إلى الآلة بعين الشك، ولقد فشلت كل محاولاتي في إقناع مشايخ حلب وعلمائها بضرورة طبع الكتب بها. كانوا يقولون: «هذه آلة شيطانية ومن الكفر أن تُنسخ كلماتُ الله وحروفُ القرآن بها».

كنت أكتب حينذاك يومياتي التي بدأتها من يوم خروجي من قريتي هيرنه وحتى وصولي إلى حلب وما جرى لي فيها. لكنني اكتشفت ذات يوم أن تلك اليوميات التي كنت أدونها على دفاتر خاصة قد سرقت مني. سكبت فصولاً من حياتي على مئات الأوراق السمرقندية لأنها أقوى من الورق الإفرنجي وأكثر مقاومة للزمن والرطوبة. الأوراق السمرقندية، كالتي أكتب عليها الآن، صقيلة ولا تتشرب الحبر.

كانت تلك أوراقاً ناصعة البياض لكنني سودتها بحياة حافلة. ففي كل ورقة دونت حادثة سعيدة، مليئة بالأمل، هزيمة مُرَّة أو صورة من صور هذا الشرق الساحر. بحثت عن أوراقي تلك كما لم أبحث عن أي شيء آخر لكن من دون جدوى. حتى صار الناس يتهامسون ويشيرون إليَّ كلما رأوني قائلين: «هذا هو الإفرنجي الذي سُرقت دفاتره».

صرت أسأل كل من أصادفه إن كان قد رأى دفاتر بعلامات معينة! حتى إنني أخبرت القنصليات والمبشرين وطلبة الفقه الإسلامي.

Twitter: @ketab_n

ثم ذهبت أخيراً إلى البطريرك أثناسيوس الثالث وأخبرته بما جرى لمخطوطتي. قال لي البطريرك مواسياً: «لا تأسف على أوراقك الضائعات يا ولدي. لقد ضاعت كثير من الكتب المقدسة. لقد ضاعت الألوف من الكنوز الكنسية واحترقت في الحروب».

لم أقتنع بكلام البطريرك إذ كيف سأنسى دفاتري وما كتبت فيها من فصول حياتي مذ غادرت قريتي؟ كيف سأنسى ما وصفته هناك من محن صادفتها وآمال وأيام سعادة وشقاء؟ كان لا بد لي أن أخبر الوالي أيضاً بذلك. أمر الوالي المحتسبَ أن يجمع لصوص المدينة وصعاليكها فجمعهم لكنهم قالوا: «نحن نسرق كل شيء. نحن نسرق الأحذية من أمام أبواب المساجد ونسرق شموع الكنائس وحتى أكفان الموتى لكن نقسم برأس السلطان والوالي ألا مصلحة لنا في سرقة الدفاتر».

صارت دفاتري كما إبرة في بيدر حنطة فتركت السؤال عنها والسعي وراءها.

***

تعلمت اللغة العربية واللهجة الحلبية جيداً. ذات مرة أثنى عليَّ معلمي الفتى عبد الله الذي بات يقضي أوقاته في كنيسة الروم مع البطريرك النبيه قائلاً: «يا خواجه مارتين لا أحد يتعلم حتى الألفباء العربية بهذه السرعة الفائقة». أما صديقي رسام الأيقونات نعمة

Twitter: @ketab_n

الله بن يوسف المصور والد حنانيا، والذي انشغل لمدة عامين برسم أيقونته الشهيرة الدينونة، فقد أخبرني أن من الأفضل تعلم العربية على يد المشايخ لأن كل أسرار تلك اللغة، كما قال، تقبع تحت عمائمهم.

وفي السنة التي أزيح فيها السلطان مصطفى الثاني عن عرش السلطنة جاء إلى حلب خطاط اسمه ياووز[1]. أخذني هذا الخطاط ذات مرة إلى مسجد يبعد بضع مئات من الخطوات عن خان هوكيدون. المسجد الذي كانت مئذنته تبدو لي دائماً من خلال نافذتي المطلة على جهة الشمال تقابل برج كنيسة الأربعين شهيداً.

استقبلنا إمام المسجد الشيخ مصطفى الترمانيني ذو العمامة الكبيرة في حجرته واتفقنا على مبلغ معين مقابل تعليمي اللغة العربية لمدة ستة أشهر[2].

كان هذا الشيخ متزمتاً في الدين لكنه لم يكن أكثر تزمتاً من أولئك الذين كانوا يشيرون عليه بألا أدخل المسجد. كرهوني لأمور كثيرة بالإضافة إلى ديني ومنها وجهي الكوسج وعيناي الزرقاوان. رد الشيخ عليهم مستشهداً بنتف من سيرة النبي محمد قائلاً: «لقد دخل مسيحيو نجرانَ مسجدَ النبي أيضاً. وأنا لست أفضل من النبي ولا

(1) بعد أن تعرفت على هذا الشخص العجيب ذي الوجه المشوه والفم الأعوج أدركت أنه يدمن على أكل الإقط الذي هو عبارة عن لبن خاثر مالح متيبس. ذقته عدة مرات لكنني لم أستسغ طعمه.

(2) حين دخلنا وأخبر ياووز الإمامَ الحنفي المذهب أن اسمي مارتين وأنني إفرنجي يريد تعلم العربية، امتعض الإمام واربدَّ وجهه. لكنني حين نفحته الدنانير الذهبية اللامعة، برقت عيناه وانشرح صدره وانفرجت أساريره وطفح وجهه بالبشر مثل أرض تستقبل المطر.

Twitter: @ketab_n

مسجدي أكثر حرمة من مسجده ولا هذا الكوسج مارتين أشد كفراً من مسيحيي اليمن أولئك».

وحين تحسنت لغتي العربية أكثر اشتريت من عند أحد الوراقين كتاب حكايات ألف ليلة وليلة مقابل رطلين من الورق[1] وأصبحت آخذه معي في بعض الأحيان إلى حجرة الشيخ الترمانيني من دون أن يلفت نظره. في آخر مرة، كانت الساعة الثالثة ظهراً ذهبنا إلى المسجد أنا وياووز الذي أصبح زبوناً وصديقاً لي. وقع نظر الشيخ على الكتاب فتجهم وجهه وقال: «يا خواجه مارتين إن قراءة هذا الكتاب لا تليق برجل عاقل ولا يجوز لهذا الكتاب أن يدخل بيوت الله». سألته: «ولماذا يا جناب الشيخ؟». فقال: «إنه يعج بالفسق والفجور، وإن المرء ليذوب خجلاً مما فيه من قذارات». فسألته مرة أخرى: «وهل قرأته يا جناب الشيخ؟».

كان سؤالي بريئاً لكنني حين طرحته على الشيخ ارتبك وصار يمسح على لحيته الشهباء بيده اليسرى ثم أخرج السواك باليمنى ليمرره على أسنانه[2] ونهض فجأة وهو يقول: «صار وقت الصلاة. سأذهب» ثم خرج من الحجرة من دون أن يجيب بنعم أو بلا. لم أحبب ذاك الشيخ

(1) المجلدات الخمسة الجميلة من ذلك الكتاب الفاتن سرقت مني. لم أكن قد انتهيت من حكاياته. كنت قد وصلت إلى الليلة الثلاثمئة التي تتحدث حكايتها عن الخليفة هارون الرشيد وعلاء الدين. مازالت هذه الحكاية عالقة بذهني حاضرة بتمامها في ذاكرتي.

(2) السواك عود له رائحة طيبة يأتي به المسلمون من صحراء الحجاز حين يحجون. يباع في حوانيت حلب. يبلغ طول كل عود سواك قدر سبع أصابع ورأسه مثل فرشاة ينظفون بها أسنانهم. لا يمكن أن ترى مسلماً بدون سواك في جيبه.

Twitter: @ketab_n

قط لكنه كان داهية في اللغة العربية يحفظ عشرات القصائد والغزليات العربية بالإضافة إلى القرآن. وبالرغم من علمه الغزيز فقد كانت معاملته سيئة نفرت منه ومن أخلاقه فتركته قبل أن أكمل ستة أشهر كما اتفقنا وتركت مسجده وراء ظهري لألتحق بحجرة إمام مسجد البهرمية وأكمل تعليمي هناك.

نسيت هانس، نسيت هيرنه وطبيعتها، شتاءها الأبيض وخريفها الملون. لكن روحي هذه، روحي التائهة هذه بقيت غريبة. لم تألف روحي الظامئة مياه هذا الشرق أبداً. لم تبق زاوية لم أبحث فيها عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة. كان نور الدين الضرير كلما التقيته على باب مسجد زكريا يقول: «إذهب إلى فلان فستجد الكتاب عنده، إذهب إلى فلان فإن لديه كتباً عتيقة» فعلت ما كان يشيره عليَّ لكن من دون جدوى.

كسبت الكثير من الأموال. عرفت الكثير من النساء واحترق قلبي بما فيه الكفاية. رأيت الحب والصداقة، عانيت من الخيانة، ارتكبت الخطايا الكبيرة، رأيت الحياة بكل أوجهها في حلب.

كانت تهب عليَّ أحياناً رياح الشوق إلى ملاعب الطفولة، وتثور في وجهي عواصف الشعور بالغربة إلا أن بريق الذهب خفف من أثر تلك الرياح والعواصف.

أرسلت مرتين رسائل إلى أصدقائي في قريتي وأولهم هانس وغوستاف لكنني لم أكن أعرف إن كانت رسائلي تصل أم لا! لم يأتني

Twitter: @ketab_n

أي رد. حبة الكستناء التي وهبني إياها هانس يوم خروجي رافقتني في كل مكان. صنعتُ لها صُرَّة صغيرة من جلد الأرنب وحفظتها فيها. هي معي حتى الآن وأنا في طريق الهرب من حلب. إنها القطعة الوحيدة الباقية معي من وطني.

***

Twitter: @ketab_n

إن السعادة هدف يسعى إليه كل شخص في الدنيا. وتختلف الطرق التي يسلكها الناس للوصول إلى السعادة من فرد إلى آخر وهي متنوعة كثيرة بعدد من جاء إلى الدنيا من البشر. كذلك يختلف معنى السعادة وتعريفها من امرئ إلى آخر. بل تختلف معاني السعادة لدى الشخص الواحد من مرحلة في العمر إلى مرحلة أخرى. وربما كان منتهى السعادة في الطفولة قطعة سكر أو حفنة من الحمص المشوي أو قليلاً من اللوز الأخضر المملح أو كوز ذرة. أما في المراهقة فتصبح السعادة عند نفس ذلك الشخص قبلة من فتاة. يمكن أن تكون السعادة في هيرنه زيارةَ حلب وفي حلب تكون السعادةُ الكبرى عودةً إلى هيرنه.

ولقد صرت سعيداً حين اكتشفت أنني أحب كوثر. في البداية كان ذلك شهوة أكثر مما كان حباً. والشهوة أساس الحب. وربما جعلني فرطُ اشتهائي جسدَ كوثر أظنه حباً. لقد أصبحت سعادتي في احتضانها وشمِّ إبطيها والتمتع بجسدها. وبقدر ما كان حبها مؤلماً فإنه منحني السعادة أيضاً. كان ذلك الحب سعادة مؤلمة أو ألماً سعيداً. صرت بفضله أشعر بمعنى جديد لحياتي. صرت أدرك أن وراء خروجي من بلدي وتغربي معنى آخر غير الحصول على كتاب السعادة. أصبحت أفكر أنه لولا هذا الحب فأي معنى سيبقى للحياة؟ أهو كتاب الإفادة في إكسير السعادة؟ لا، لأن الحب نفسه أصبح سعادتي القصوى ولم أعد بحاجة لما يعرفني عليها. ذات يوم شاهدت كوثر بالقرب من الخان. لا أعرف ماذا جرى لي! دارت بي الدنيا فلم أعد أرى أمامي حتى كدت أسقط.

Twitter: @ketab_n

لحقت بها من الخلف وقلت لها بالعربية: «أنا أحبك جداً».

ما زلت إلى الآن أتعجب من جرأتي تلك التي لم أكن أتمتع بها حتى في هيرنه. كنت مثل الرهبان لا أقرب الفتيات وأقضي جلَّ أوقاتي بين صفحات الكتب. أما أقصى درجة للشجاعة في قريتي فقد بلغتها ذات يوم أحد خلال عرس أحد القرويين. خرجنا في ذلك اليوم من الكنيسة وقبلت فتاة صادفتها كانت تشارك في العرس وكنت قد التقيت بها مرة أو مرتين قبل ذلك. مشيت معها حتى بيتها في شارع اكتسا جانباه بشجيرات الورد وحين علمت أن الشارع خالٍ من المارة قطفت وردة وأعطيتها للفتاة ثم خطفت قبلة من خدها المحمر. كان ذلك كل شيء.

بعد أن قلت لكوثر: «أنا أحبك جداً»، لم أجد تغيراً في ملامح وجهها. لم تحمر وجنتاها. كانت فتاة شديدة السمرة فكيف ستحمر وجنتاها؟ ابتسمت قليلاً وكأنها كانت تنتظر تلك الجملة، وحين رأيت أنها لا ترد أتبعت جملتي بجملة أخرى: «غداً صباحاً سأكون في حانوت زكريا. تعالي إلى هناك»[1].

صباح اليوم التالي سبقتني كوثر إلى هناك. كانت ترتدي ثوباً خمري اللون وعلى خصرها زنار من الكتان الأبيض و منديل أصفر يغطي

---

(1) كانت كوثر تحيرني بعدم تقيدها بالنقاب. سألت زكريا الصائغ قبل أن أبدأ تعلم اللهجة الحلبية عندها: « هذه الفتاة الكردية لا تشبه فتيات حلب، تبدو غير متقيدة بشيء!» فقال لي: «هذه فتاة من جبل كرداغ وقد حاول الحسبة أن يجبروها وفتيات مثلها بارتداء الحجاب فأذعنت الفتيات جميعاً إلا كوثر فقد ادعت الجنون والإسلام لا يحاسب المجانين على خطاياهم».

Twitter: @ketab_n

شعرها، وكان عبق حمامات المدينة يفوح منها.

لم يكن زكريا قد جاء بعد لكن ابنه عبد الله، معلمي، كان قد فتح الحانوت وحين رآني سُرَّ كثيراً واستقبلني بحفاوة ثم سألني: «هل تعرف الإيطالية يا خواجة مارتين؟».

ولأنني أعرف اللاتينية القريبة من الإيطالية أجبت: «أفهمها جيداً»، فقال عبد الله: «كوثر تعرف الإيطالية». شعرت حينها أن جبلاً من الجليد يذوب بيني وبين تلك الفتاة الجامحة وتكاد أمواج السعادة تقلب زورق قلبي. سررت كثيراً فتوجهت إليها بالكلام قائلاً: «È vero?». أي هل هذا صحيح؟ فقالت: «Sì è vero» أي نعم. فقلت بفرح: «إذاً ستعلمينني العربية». لم تجبني. أحنت رأسها كأنها تبحث عن شيء ضائع وبقيت صامتة حتى خرجت فناديتها: «ستعلمينني اللهجة الحلبية أليس كذلك؟»[1].

(1) إلى الآن ما زلت أتعجب من حمقي ومن تهور كوثر. هي لم تخبرني أن لقاء بيني وبينها غير جائز على الإطلاق. ولقد كان العثمانيون يحكمون على الأوروبيين الذين تثبت عليهم تهمة الاختلاء بامرأة مسلمة بالحرق أحياءً أو في أفضل الأحوال كانوا يأخذون منهم غرامات باهظة وينفونهم من المدينة. وقد حدث ذات صيف أن مجموعة من النساء كن بين أشجار التوت الأبيض وينثرن ورقها على الأرض لتربية دود القز وحدث أن مر تاجر من البندقية من هناك وأراد أن يتفرج على ذلك المشهد وما تصنعه النساء في تربية الدود لكن ما إن لمحته النساء حتى بدأن بالصراخ فجاء بعض الجنود وقبضوا على التاجر البندقاني ولولا تدخل وشفاعة القنصل الفرنسي لذبحوا التاجر المسكين بالسيف. وقد سمعنا أن ذلك التاجر قد انتحر بعد ذلك. انتحر لأنه أفلس في التجارة. لم يفلس هو وحده بل إن البندقية التي كانت تحمل في يدها مفاتيح تجارة المشرق قد بدأت تفلس هي أيضاً. كان البساط يُسحب من تحت أقدام تلك الجمهورية البحرية. الإنجليز والهولنديون ثم الفرنسيون ضيقوا الخناق عليها. كما أن البرتغاليين نافسوا تجارها منافسة حادة في =

Twitter: @ketab_n

كانت معرفتها بالإيطالية شيئاً لافتاً للنظر أشعل نار الفضول لديَّ وأردت السؤال عن ذلك لكنها ذهبت فلم أعرف كيف تمكنت هذه الفتاة المسلمة في حلب من تعلم لغة إيطاليا؟

وفي الحقيقة فقد كانت اللغة الإيطالية مألوفة في حلب وكانت قد أصبحت لغة التجارة ولم يكن هناك تاجر ولا ترجمان لا يعرف تلك اللغة لكن معرفة كوثر بها لم تكن بالأمر المفهوم.

بعد ذلك اللقاء تجولت قليلاً في المدينة، مشيت في الأزقة الضيقة التي زينت جدرانَها أغصانُ الياسمين المتدلية والعابقة زهورُها برائحة زكية، ملأ الورد الجوري والبنفسج والقرنفل والزنبق وغير ذلك الأجواءَ بهجةً تحيي الأرواح. لم تفارقني على امتداد طريق العودة إلى الخان صورة كوثر وقامتها الرشيقة وصدرها العامر. أذهلتني صورتها عن كل ما حولي فلم أعد أرى شيئاً حتى رأيتني وصلت إلى باب خان هوكيدون الذي أقيم فيه. توجهت إلى غرفتي من دون أن أسلم على العجوزين الأرمنيين، أغلقت بابي ورائي وأسدلت الستائر وغرقت في نهر اللذة و بحر من الخيال المضيء يشبه عيني كوثر.

= تجارة البهارات بالإضافة إلى أن جوخ البندقية الأحمر المسمى إسكارلاتو لم يعد قادراً على منافسة الجوخ الإنجليزي المسمى باللوندرين. ذلك التاجر البندقاني أصبح ضحية إفلاس بلده وكساد أجواخ بلده.

Twitter: @ketab_n

الساعة الثانية

سُمعت رنَّتان توأمان من ناقوس الكنيسة الصدئ[1]. توقف طالب اللاهوت الذي كان يتابع الأحرف بريشة الإوز مثل صياد، قليلاً عن القراءة ثم وضع رأس الريشة عند كلمة كوثر في آخر جملة من الصفحة السابقة. كان يقرأ قصص مارتين بشغف كبير. وبالرغم من أنه كان ظامئاً فإنه لم ينزل إلى الأسفل ليشرب. لم تتوقف الجلبة من الغرفة المجاورة. سرت منها همهمة خفيضة مثل أغنية. لم يفهم شيئاً من تلك الهمهمة. من صمت الحانة أدرك أن كل واحد قد ذهب إلى غرفته لينال قسطاً من الراحة. لم يكن من صوت سوى نغمة هادئة إلهية الوقع تشبه ريش النعام حين يمر على الوجوه برقة. كان ذلك أنغام كمنجة[2].

---

(1) قبل أن يصعد جورج اليتيم إلى الأعلى ويسحب حبل الناقوس ويقرع مرتين، طالب كارل بمئة فلس عن عشرة أيام سابقة. قال له كارل إنه سيوفيه حقه مساءً ثم حلف له بالصليب المقدس أنه صادق في وعده هذه المرة. لم يصدق جورج كثيراً لكنه قال في نفسه إن حبل الكذب قصير وليس المساء ببعيد. ارتدى سرواله على عجل وأسدل مئزره البني عليه ثم صعد الدرج على أصابع قدميه. أما كارل فقد صار يحدق من خلال نافذة السرداب إلى ساحة الكنيسة وصار يتنصت ولما لم يسمع شيئاً صعد هو أيضاً وأشعل شمعة في البهو.

(2) حين رأى عازف الكمان من مولهاوزن، صديق يوهان سيباستيان باخ أن الجميع انتهى من الطعام أراد أن ينعش أرواحهم قليلاً. عزف مقطوعة لرفيقه باخ اسمها: =

Twitter: @ketab_n

أغمض طالب اللاهوت عينيه وكاد أن ينام حين تناهت إليه نغمات تلك الكمنجة. لكن جذبه من جديد قرع نواقيس الكلمات في تلك المخطوطة ففتح عينيه ونظر من النافذة. كان الضباب كثيفاً جداً. اختفت تحت غلالات الضباب أسطحُ المنازل القرميدية الحمراء التي لمعت صباحاً تحت وهج الشمس كما تلمع الكمنجات في ضوء الشموع في كاتدرائية. أدار ريشة الإوزة في يده قليلاً، عدل من وضع الوسادة خلف ظهره وبدأ يقرأ المخطوطة من جديد بالإيقاع ذاته:

= الرب مَلِكي Got ist mein König. أغمض عينيه وتخيل ذلك اليوم البارد من شهر شباط من العام الفائت. وصل الثلج في ذلك اليوم إلى الركب وغطى أسطح المنازل القرميدية. جلس أعوان البلدة صامتين في صالة كنيسة ديفوس بالسيوس ذات النوافذ الطويلة على كراسيهم المنجدة بالقطيفة الحمراء. بينما جلس باخ على كرسي بدون مساند، كان يعتمر باروكة ويرتدي معطفاً طويلاً أسود من الجوخ المارسيلي الثمين المبطن بمخمل أخضر غامق. كان صف من الأزرار الذهبية يزين شِقَّ المعطف وكميه. تنقل عازف الكمان ببصره بين صديقه باخ والمدعوين الجالسين وهو يضع ذقنه على صندوق الكمان. ترددت الأنغام في الأرغل الكبير مثل رفرفة أجنحة الملائكة، بل كان ذلك صدى أنفاس الرب بذاته يتردد بين جنبات الكنيسة، تدفقت أنفاس الرب من بين أنامل باخ ذلك الصباح في تلك الكنيسة ذات النوافذ المستطيلة المديدة مثل أنات المسيح على الصليب.

Twitter: @ketab_n

احتلت تلك الفاتنة الكردية حيزاً كبيراً من تفكيري وخيالي وأحلامي. كانت فاكهة حلوة بعيدة المنال، فصرت أبحث عن طريقة لألتقي بها ولو في الشهر مرتين. أصبح الحب جوادَ عشقٍ جامحاً يعدو في قلبي. كانت تلك أول مرة أعيش فيها مشاعر قدسية لذيذة وممزوجة بالخوف والتمنيات وألم مجهول. كان ذلك هو الحب، حبٌّ شبيه بوادٍ مليء بالشوك يمشي عليه قلبي حافياً أعمى. لقد وقعت في هوى تلك الفتاة المسلمة، المهرة الكردية الجامحة التي تعرف الإيطالية!

مضت بضعة أيام من دون أن أراها. تكفل خيالي باستحضارها فصرت أراها أحياناً في منامي وأحياناً أخرى كنت أتخيلها عارية في فراشي أو أراني أضمها في زاوية من الزوايا المعتمة.

بعد أسبوع جاءت مرة أخرى إلى الخان. كانت لوحدها وتحمل بضع باقات من الياسمين. لم أصدق عيني فنزلت مسرعاً إلى الأسفل لأرى العجوزين الأرمنيين، وانيس وزاره يستظلان بشجيرة البرتقال ويأكلان العنب. ارتفعت جلبة التجار الذين كان بعضهم يخرج من الخان وبعضهم يأتي من المدينة. سلمت على بعض من أعرفهم ثم وصلت ووقفت قريباً من كوثر. تخيلت أن جميع من في الخان يسمعون نبض قلبي ويعرفون سره. كانت كوثر ترتدي ثوباً من الشال الهندي سماوي اللون تزينه أزهار صغيرة، ثوب واسع يخفي تضاريس جسدها. غطى منديلٌ من الأطلس الأصفر شعرها لكن لم يكن أي شيء قادراً على أن يخفي عني نظراتها الجارحة ونداء الشهوة

Twitter: @ketab_n

فيهما. تقدمتُ صوبها كما عاشقٌ غِرٌّ. لم أكن أفهم إلى تلك اللحظة هل مشاعري تجاهها مشاعر اشتهاء أم حب صادق؟ في الحقيقة فإن مبتدأ كل حب شهوةٌ قبل أن يصبح ضرام عشق. تقلبت على جمر مشاعر متناقضة من الجنون والحب. ترددت. لكنني تقدمت صوبها كأي عاشق جبان يمنحه الحب جرأة مفاجئة وقلت بالإيطالية أحبك. وكما يوم قلت لها بالعربية أحبك جداً، لم يكن رد فعل كوثر يشبه ردود أفعال فتيات في سنها أو فتاة تسمع لأول مرة هذه الكلمة التي تبهج الروح. ظننت بداية أنها لم تفهمني أو لم تسمعني. بقيت صامتاً لبرهة قصيرة مثل صياد يراقب من مخبئه فريسة تقترب من الشرك. لكنها، لكن تلك الفريسة فاجأتني بجملة نطقتها بالإيطالية مثل موجة بحر: «وأنا أيضاً أحبك» وأرفقتها بابتسامة ذات مغزى على شفتيها الشبيهتين بحبتي عنب خريفي وصارت تديم التحديق إليَّ. أيقظت تلك الابتسامة الحلوة كرومَ الأسرار الغافية في قلبي أما نظراتها فقد جعلتني أتوه للحظات. أدركت حين شاهدت ابتسامتها أنها هي من تستطيع أن تمنحني السعادة التي أسعى وراءها وأبحث عنها في هذه البلاد. اختلط لديَّ الخوف بالسرور فتحولا إلى شعور غريب جرف قلبي أمامه. وفجأة خاطبتني بكلام أذهب خَدَرَ روحي فقالت: «إن شئت علمتك اللهجة الحلبية»[1].

---

(1) أجبتها من دون تردد أنني أرغب في ذلك. أخبرتها أيضاً أن اجتماع فتى أجنبي مسيحي بفتاة مسلمة أمر غير ممكن فقالت لي: «ذلك شأني». ولم يمر أسبوع حتى وجدت كوثر طريقة لاجتماعنا. يا إلهي أية طريقة كانت تلك؟ لا مثيل لها إلا في كتاب ألف ليلة وليلة.

Twitter: @ketab_n

***

نساء الشرق يصنعن الأعاجيب. وإن أرادت واحدة منهن أن ترقِّص الأفاعي وتدع الأشجار تمشي لفعلت. إن مجتمعهن الذي يسيطر فيه الرجال جعلهن يحققن مآربهن عبر الحيلة والخداع. وفي كتاب ألف ليلة وليلة قصص وحكايات كثيرة عن الأحابيل التي يتقنَّها، ففي الليلة التاسعة مثلاً يصادف المرء حكاية الحمَّال والفتيات الثلاث حيث يظهر من خلال تلك الحكاية جانب من حيل النساء الشرقيات. تستطيع نساء الشرق أن يضللن البطاركة والشيوخ ويدفعن القديسين والأولياء إلى مخادعهن. النساء يخدعن الرجال أينما كنَّ لكن نساء الشرق أمهر النساء قاطبة في هذا الباب. أما كوثر فلم تكن فقط امرأة شرقية عادية بل كانت نسيجاً وحدها في فنون الخداع، وحينما حدثتني ذات يوم عن بيترو البندقي وكيف أنها علمته اللغة ذهلت حقاً.

قالت لي كوثر، كما كانت قد قالت من قبل لبيترو البندقي، إن والديها عمياوان وإنني أستطيع أن أتنكر بأن أرتدي عباءة من العباءات التي ترتديها النسوة وأذهب حين يشتد الحر عند الظهيرة من دون خوف ومن دون أن يتعرف عليّ أحد إلى بيتها الذي لم يكن بعيداً كثيراً عن الخان.

كنت مخموراً بلحاظ عينيها وابتسامة شفتيها فعملت ما قالته لي من دون أن أفكر في العواقب الوخيمة والتي قد يكون من بينها موتي

Twitter: @ketab_n

ونهاية حلم السعادة.

لكنني كنت قد أصبحت عاشقاً حقيقياً ولم أعد أبصر أمامي ككل العشاق. ألم أكتب ذات مرة أن الحب دليلٌ أعمى!

خرجت في اليوم الذي حددته كوثر لي وارتديت في زاوية من الزوايا الخالية عباءة سوداء غطت كل جسمي ثم اتجهت إلى بيتها. كان قلبي يخفق بشدة مع كل خطوة وجلة سريعة حتى وصلت إلى باب بيتها فطرقته طرقتين متتاليتين[1]. لم أنتظر كثيراً. فتحت كوثر الباب على عجل وقادتني إلى غرفة في نهاية الدار.

حين دخلنا تلك الغرفة ونزعتُ عن نفسي العباءة السوداء كنت غارقاً في العرق. نزعت كوثر بدورها غطاء رأسها فانسدل شعرها مثل ليلة شتوية وقالت بالإيطالية: تفضل إجلس[2].

وصرنا نتحدث باللغة الإيطالية التي كنت قد تعلمتها في حلب بسرعة فائقة بسبب كوني أعرف اللاتينية.

وحين لاحظت كوثر أننا نتبادل الحديث بالإيطالية، التي يتحدث بها كل تجار حلب، قالت لي: «لن تتعلم اللغة هكذا. عليك أن تعيد ما

---

(1) كانت ثمة مطرقتان على الباب إحداهما رأس غزالة نحاسية وأعلى منها قليلاً مطرقة أخرى عبارة عن برثن نمر. والمطارق السفلية للأطفال والنساء أما العلوية فهي للرجال. كنت أعرف هذه المعلومة لذلك طرقت على مطرقة الغزالة. وفي الحقيقة فالمطارق المخصصة للإناث تصدر صوتاً رقيقاً يناسب النساء.

(2) كانت كوثر تتقن الإيطالية لأن التاجر البندقي بيترو قد علمها تلك اللغة. وقد أسرت لي أنه كان يسكن خان البنادقة وقد قضى معها سنة كاملة. كان يتاجر ويتعلم العربية ويقضي وطره منها في الوقت نفسه. لم تكن كوثر امرأة حافظة للسر.

Twitter: @ketab_n

أقوله». وبدأت تعلمني. كانت أول جملة تنطقها كوثر لأتعلم لفظها هي: «بحبك موت»[1].

وحين انتهينا من الدرس قامت كوثر وحضنتني من الخلف وألصقت جسدها بجسدي. شعرت بها كقطعة من نار. انتفض قلبي مثل عصفور أصابته طلقة صياد وارتجفت ركبتاي وتسارعت أنفاسي. سكرتُ حين أدنت فمها من فمي بشكل شهواني وقبلتني. كانت قبلتها ربيعاً حطَّ على شفتيَّ. ضعت وتهت عن الدنيا. عانقتها بحرارة ، أنا الظامئ الذي لم يذق في حياته طعم امرأة، وتدحرجنا سوية على أرض الغرفة. ارتفع صوت أنَّاتي فوضعت يدها على فمي وقالت: «هسسسس. صحيح أن والديّ ضريران لكنهما ليسا أصمَّين يا خواجة مارتين».

امتزجت لدي مشاعر الخجل واللذة بمشاعر السرور والخوف ومشاعر أخرى مجهولة. كنت في عالم آخر، كنت على حافة حوض الكوثر أشرب من دون أن أرتوي.

***

(1) تعني هذه العبارة أنني أموت في حبك. كان حرف الحاء القادم من أعماق الحلق عصياً على اللفظ بالنسبة لي. هذه الحروف، مثل العين والحاء، صعبة لكل أجنبي يريد تعلم العربية. وكانت كوثر كلما أخطأت في اللفظ قبلتني قبلة حتى صرت أتقصد الأخطاء لأحظى بمزيد من القبل.

Twitter: @ketab_n

استمر تعلم اللهجة الحلبية لعدة أشهر. كلما كان أذان الظهر يرتفع من المآذن وتخلو الشوارع من المارة، كنت أرتدي العباءة السوداء وأتبرقع ثم أمضي صوب بيت كوثر. في هذه الأثناء مات والدها بمرض السل. لم أجد في ملامح كوثر ما يشير إلى حزنها على أبيها. بعد ساعتين مرَّتا على دفنه جاءت إليَّ لتدعوني إلى الدرس. وقد أصبحت مفردة الدرس كلمة السر بيني وبينها ومفتاحاً نفتح به باب الشهوات. سهرنا حتى صباح اليوم التالي على موت أبيها[1].

صار حضن كوثر هو سعادتي. في تلك اللحظات المليئة بالرعب، تحت تلك العباءة السوداء، وفي المسافة بين خان هوكيدون وبيتها، صارت السعادة بساطاً أمشي عليه يشبه ذلك البساط الأصفهاني الذي أحضره آلبرتو معه من بلاد العجم. نسيت الكتاب. حبة الكستناء التي جلبتها معي من بلادي تيبست حتى صارت تخشخش كقطعة جلد بقيت في الشمس. صار حنيني إلى وطني كرة ثلج يذوب في حضن كوثر. كنت أحزن قليلاً حين أرى حبة الكستناء. كنت أتذكر بيتي وأصدقائي

(1) لن أنسى ما حييت الثمن الذي دفعته في تلك الليلة المليئة باللذة. من المفروض أن يعود كل أجنبي إلى الخان الذي يقيم فيه بحلول المساء. في ذلك اليوم لم أعد إلى الخان. أخبر الأوضه باشي كل القناصل الأوروبيين بغيابي. سألوا عني كل من كان يعرفني في حلب. بل شطح بهم الخيال فظنوا أنني قضيت نحبي. لم أكن أدري أن الأمر سيكون بذلك الجد. وحين عدت صباح اليوم التالي وعرفت أنني خرقت قانوناً من قوانين الإقامة في الخانات، عمدت إلى تبرير غيابي بالقول إنني أردت السفر إلى الإسكندرون لاستقبال بضاعة لي هناك لكنني سمعت في الطريق أن السفينة ستتأخر في الرسو فاضطررت إلى النوم في إحدى القرى. بعد تلك الحادثة لم أكرر المبيت خارج الخان.

Twitter: @ketab_n

وقريتي. لكن سرعان ما كان حجاب السعادة ينسدل ويخفي عني كل ذكرى من الوطن. عرفت أن السعادة هي تلك اللحظات العسلية في حضن كوثر. عرفت أن السعادة لا تسعها الكتب. السعادة حياة، هي الحياة نفسها. السعادة امرأة، وليست شيئاً آخر سوى ذلك.

بعد حوالي سبعة أشهر تعلمت كل الجمل المهمة التي تستعمل بشكل يومي في اللغة العربية وكذلك تعلمت اللهجة الحلبية لكن من دون أن أتخلص من اللحن واللكنة في الكلام. أما الكتابة والقراءة فقد تعلمتهما على يد عبد الله بن زكريا الصائغ. كان يكتب بخط جميل وكنت أحاول تقليده في ذلك. الكتابة العربية صعبة فهي تبدأ من اليمين ولا بد من وصل الحروف بعضها ببعض. وهناك بعض الحروف تلتصق بما قبلها ولكن تبقى نهاياتها حرة، وحروف أخرى ترتبط بما قبلها وبما بعدها من حروف. والحروف العربية تتغير حسب موقعها في الكلمة، فالحرف في أول الكلمة يختلف في شكله عن الحرف نفسه في وسط الكلمة أو في آخرها.

***

عام خرجت من بلدي متوجهاً إلى هذه البلاد، وقَّع العثمانيون والأوروبيون معاهدة سلام في كارلوفيتز. كانت نتائج تلك المعاهدة إيجابية بالنسبة لنا نحن الفرنجة الذين نعيش في بلاد العثمانيين.

Twitter: @ketab_n

زالت بعض القيود المفروضة على التجارة وانتعشت حركة المبشرين وتضاعف عدد السفن القادمة من موانئ مرسيلية والبندقية وجنوة وأمستردام وغيرها إلى موانئ الشرق. بالإضافة إلى ذلك فقد ازدادت المنافسة بين التجار حتى أفلس بعضهم وازدهرت تجارة آخرين. أما أنا فلم أكن ذلك التاجر الكبير في السوق. كنت سمكة صغيرة في بحر يعج بالحيتان. وبالرغم من زوال المعوقات من طريق التجارة بفضل تلك المعاهدة إلا أننا بقينا بعيدين عن إمكانية النفوذ إلى المجتمع العثماني المسلم وبقيت علاقتنا بالمواطنين العثمانيين علاقة سطحية فلم نكن نذهب معهم لا إلى الصيد ولا إلى حفلات السمر وما كنا ندعوهم إلى السهرات التي كنا نعقدها. لم نكن نتشابه لا بالدين ولا بالشكل ولا بالعادات والتقاليد والطقوس. كل شيء بيننا كان مختلفاً.

في الأديرة والكنائس، في البيوت التي كنت أزورها وفي كل مكان يضم المسيحيين احتدمت نقاشات كبيرة حول الكاثوليك واللوثريين والمذاهب الأخرى. كنا نناقش إلى ما لا نهاية نمط العلاقات الذي يجب أن يسود بين المذاهب المختلفة، بين المسلمين والمسيحيين. تجادلنا حول الحقيقة التي يمتلكها كل طرف. لكن ما لفت نظري أكثر هو تلك الخلافات العميقة والفروق الضخمة بين مذاهب المسيحيين أنفسهم. لم أكن على دراية بأن تلك الخلافات موجودة لدى المسيحيين في كل العالم. كنت أظن أنها ملك لمسيحيي الغرب المساكين. كنت أعتقد أن تلك الخلافات العميقة التي جرفت شعوب أوروبا وتركت مئات

Twitter: @ketab_n

الألوف من القتلى واليتامى والأرامل واللاجئين والمكتبات المحترقة والقرى المنهوبة وكل الفظاعات التي تسببها الحروب الكبيرة التي لا معنى لها هي محصورة في حدود أوروبا وحدها.

اكتشفت في تلك النقاشات نفاق دولنا الأوروبية أيضاً. فكل دولة تعتبر نفسها حامية حمى الصليب المقدس وتريد أن تستحوذ على مفتاح قبر يسوع المسيح. الروس، الفرنسيون، بابا روما والإنجليز كلهم مجتمعين يتصارعون على قبر المسيح وأحقية كل طرف بحيازة مفاتيحه. أما العثمانيون فلا يمنحون المفتاح إلا لمن يدفع المزيد من الذهب.

ظننت أن الشرق موطن نور تسبغه عليه الأرض والسماء والروح والفكر والعقائد. رددت كثيراً أن المسيح جاء إلى الدنيا في الشرق لذلك سيكون أرضاً مقدسة جديرة بأن يولد فيها المسيح المخلص. لكنني رأيت بأم عيني كيف أن مسيحيينا يكفر بعضهم بعضاً هنا. يؤلفون كتباً يطعنون فيها في عقائد بعضهم بعضاً ويثبت فيها كل فريق بطلان عقيدة الآخر حتى إنهم يتخاصمون في الشوارع أحياناً. رأيت كيف أنهم يوقدون نار حرب ضروس ضد الكاثوليك أكثر مما يوقدونها ضد اللوثريين والكالفنيين. كان الأرثوذكس التابعون لكرسي أنطاكية الذي يتبع بدوره للقسطنطينية يخبرون الدولة العثمانية بكل التحركات التي يقوم بها خصومهم ويعملون كل ما بوسعهم لكسر شوكة أولئك الخصوم من الفرنسيسكان واللاتين والكالفنيين واللوثريين القادمين من أوروبا للتبشير، والذين كانوا ينشرون مذاهبهم أينما حلوا.

Twitter: @ketab_n

كانت طبيعة المسيح وهل هو إله أو إنسان، لاهوت أم ناسوت، وكذلك ولادته وهل أمه إلهة أم أنها أمُّ الإله، وهل تناول المسيح العشاء ليلة الأحد المقدس؟ وأي طعام تناول ليلتئذ؟ بالإضافة إلى أسئلة كثيرة مثل هذه أصبحت سبباً للصراعات والنقاشات الكبيرة في المجتمع المسيحي. كانت كنائس حلب، والأصح أن نقول كانت الحيرة تنهش كنيسة أنطاكية بأسنانها. أصبحت كنيسة أنطاكية أرجوحة تتنقل بين روما والقسطنطينية. تنظر بعين إلى هذه وبعين أخرى إلى تلك.

كان معلمي الصغير عبد الله بن زكريا الصائغ يشارك مع صغر عمره في تلك النقاشات ويدافع بحماس عن المذهب الأرثوذكسي. أراد أن يحيد بي عن طريق الضلال كما كان يسمي مذهبي اللوثري. كان يكثر من الاستشهاد في كلامه بالأناجيل ويحفظ قصص القديسين والرهبان. ولقد انشطر أتباع الكنيسة في حلب إلى قسمين، قسم بقي أرثوذكسياً وقسم آخر انشق وصار يتبع المذهب الكاثوليكي ومن ضمنهم عبد الله الذي لم يكتف بالانشقاق عن الكنيسة الأرثوذكسية بل صار يكتب الرسائل الدينية في صوابية المذهب الكاثوليكي.

أما مجالس المسلمين فلم تخلُ بدورها من النقاشات الكبرى. كانوا هم أيضاً يمسكون قرون الحقيقة ويدفعون بها إلى المسلخ لينحروها بسكاكينهم الحادة.

في عامي الأول هناك، وذات يوم جمعة من أيام الشتاء غطت فيه الثلوجُ الشوارعَ، عدت ملتحفاً بعباءتي السوداء من درس تعلم العربية

Twitter: @ketab_n

أي من حضن كوثر الدافئ[1]. نزعت في زاوية خالية تلك العباءة التي بللها الثلج ووضعتها في حقيبة ثم مشيت. شاهدت مجموعتين من الرجال تقف كل واحدة منها في ناصية شارع وفي يد أفرادها الغاضبين خناجر وهراوات. رأيتهم يصرخون فينطلق البخار من أفواههم ومناخيرهم مثل دخان يعلو المواقد. وما إن مضت دقائق قليلة حتى التقى الجمعان ونشبت المعركة. لم أكن أعرف سبب العراك الذي استغرق نصف ساعة تقريباً أصيب خلالها الكل بالجراح. ولم يتوقف المتقاتلون إلا حين ظهرت مجموعة من العساكر الانكشارية نزلوا من جهة القلعة وصاروا يضربون المتقاتلين بالسياط ويفرقونهم.

أردت أن أعرف سبب ذلك العراك فسألت عجوزاً واقفاً هناك فابتسم ثم سرد عليّ حكاية تلك المعركة قائلاً: «هؤلاء أحناف وشوافع. ألم تشاهد معاركهم يا بن أخي؟ هم على هذه الحالة دائماً».

بعد عدة أيام اطلعت على حقيقة ذلك العراك. كان قروي من أطراف حلب قد سأل أحد الشيوخ في المسجد الكبير قائلاً: «يا جناب الشيخ لقد لمست، حاشاك، ذكري من دون قصد مني فهل انتقض وضوئي أم لا؟» رد الشيخ الذي كان على المذهب الشافعي من دون

(1) كانت الخانات تغلق أبوابها في أيام الجمعة ويمنع القائمون عليها الأوروبيين من مغادرتها والتجول في الشوارع. فسر بعض الناس ذلك بأن العثمانيين يفعلون ذلك لحماية الفرنجة من هجمات المتزمتين المسلمين، لكن آخرين قالوا إن العثمانيين لا يفعلون ذلك إلا لحماية أنفسهم فقد أشيع منذ القديم أن الفرنجة، أي أهل أوروبا، سيهجمون بلاد الإسلام في يوم جمعة ويفتحونها.

Twitter: @ketab_n

تردد: «بكل تأكيد يا هذا. لقد انتقض وضوءُك بحسب حديث النبي القائل من مسَّ ذَكَره فليتوضأ». كان هناك قريباً منهما طالب فقه من الأحناف يعتم بعمامة بيضاء على رأسه وما إن سمع جواب الشيخ حتى نهض متوجهاَ إلى القروي قائلاً له: «لا يا بن العم، لا ينتقض وضوءك. أليس ذَكَرُك عضواً من جسدك؟ لماذا ستتوضأ إذاً؟ على مذهبنا الحنفي لا ينتقض وضوءك بموجب جواب النبي على سؤال أحد الصحابة عن ذلك حين قال: إنما هو بضعة منك» ثم توجه طالب الفقه ذاك إلى الشيخ الشافعي وقال له: «إن الدين يسرٌ يا جناب الشيخ لكنكم أنتم الشافعية تشددون فيه وأدلتكم ضعيفة». احتد الشيخ الشافعي مستغرباً وقاحة طالب الفقه ذاك ثم رمى مسبحته الطويلة في وجهه وهو يقول بغضب: «يا قليل الأدب. أنت ما زلت فرخاً صغيراً وتتجرأ على الإفتاء؟ أنتم الحنفية كلكم قليلو أدب والذنب ذنب إمامكم الأكبر أبي حنيفة». ودخل الاثنان، طالب الفقه الحنفي والشيخ الشافعي، في جدال وتراشق بالكلمات حتى تعاركا وتدحرجت عمامتاهما في فناء المسجد. ثم ما لبث أن اجتمع أتباع المذهبين وحصل هرج ومرج من دون أن يحصل القروي المسكين على جواب شافٍ لسؤاله ولم يعرف هل انتقض وضوءه أم لا! لم يفهم أية حقيقة في ذلك العراك من أجل الحقيقة.

في خضم تلك الصراعات، كنا، أنا مارتين المسيحي الإفرنجي وكوثر الكردية المسلمة، نخوض حروب توحيد العقائد والأفكار

Twitter: @ketab_n

والأجساد والخيال والحقائق والآلام والآمال. أصبح ديننا هو تلك اللحظات الساخنة التي كانت تحرق أرواحنا في غرفة كوثر الصغيرة التي أصبحت علاقتي الحميمة بها هي الحقيقة وهي السعادة. ولقد كانت فنونها التي تظهرها لي، تدهشني! أخبرتني أنها تعلمت كل ذلك من الكتب. أيمكن أن تضم كتب المسلمين مهارات الوصال وفنونه؟ كانت تدعني أحلق طائراً في السماوات حين تشمني، تضمني، تحرقني، تعصرني، تجننيٍّ ثم تتركني ملقى في الفراش مثل جثة.

***

Twitter: @ketab_n

انتبه طالب اللاهوت فرأى أن يده تمتد إلى فخذه. نظر حوله بعفوية ثم سحب يده بسرعة ونهض واقفاً ليرسم بيده التي سحبها صليباً في الهواء عدة مرات. ثم عمد إلى الريشة فوضعها على الصفحة التي بلغها في القراءة وأطبق المخطوطة ونحّاها جانباً ليتمشى قليلاً في غرفته. سمع من الغرفة المجاورة همهمة متواصلة لكنه لم يعرف من يقيم فيها. رغب في أن يغفو قليلاً إلا أن روحه أصبحت معدنًا انجذب إلى مغناطيس تلك المخطوطات. مد يده ثانية إلى المخطوطة التي بقي على نهايتها صفحات قليلة وفتح على الصفحة التي علّمها بالريشة. استند بظهره إلى الوسادة ثم قرأ ما تبقى من صفحات:

***

أتراني دفعت غزالة السعادة إلى شراكي. أم تراها هي التي صادتني؟ لا يهم. المهم كنت سعيداً وحسب.

للسعادة ألف وجه ووجه لكن المرء لا يرى منها إلا وجهاً واحداً فقط. أما السعادة الحقيقية فهي أن ترى كل الوجوه. وحين تعرفت على كوثر الكردية ونسيت كتاب الإفادة في إكسير السعادة اكتشفت أن الإنسان يعجن عجين السعادة بيديه، يُسَجِّرُ تنورَها ويخبز خبزَها فيتناوله حتى يشبع. اكتشفت أيضاً أن الإنسان لا يتعلم السعادة، فكل امرئ منا يخلق سعادته بنفسه.

Twitter: @ketab_n

عاد صديقي آلبرتو من سفرته إلى أصفهان وشحن بضاعته عبر ميناء الإسكندرون إلى لشبونة والبندقية. كان سعيداً جداً بعد أن أقام فترة مع عشيقته روناز الأرمنية وجلب معه بسطاً فاخرة ثمينة. عرض آلبرتو عليَّ الشراكة وطلب مني مرافقته في رحلاته إلى بلاد فارس لكنني لم أقبل. ما أردت أن أترك حضن كوثر الرائع ولا مبادلته بملك الشاه عباس كله. تعودت على الآثام وخَطَفَ فارسُ الشهوات مني اللجام. قنعت بالقليل من التجارة وأصبحتُ أُعِين التجار الذين لا يقيمون في حلب كثيراً في صرف بضائعهم مقابل مبلغ من المال أتقاضاه منهم. نسيت قريتي تماماً. كانت هيرنه قد غاصت إلى أعماق مجهولة في بئر الذاكرة. لم أنس فقط قريتي في أول سنة لي هناك، بل نسيت أهلي وأصحابي وأرضي وكل شيء. وقبل ذلك نسيت الكتاب الذي أتى بي إلى هذه الديار. كان صدر كوثر قد أضحى كتابي المقدس وطريقي الذي يأخذني إلى ينبوع السعادة. لكننا ضجرنا من اللقاءات الحميمة في حجرتها الصغيرة ورغبنا في تغيير المكان. قالت كوثر ذات مرة حين رأتني لا أقدر على الاقتراب منها: «موجود في الكتب أن تغيير الأماكن يقوي الرغبة في الباه ويزيد نيران الشهوة».

أردنا أن نذهب أعمق وأعمق في بحر الآثام اللذيذة ولكن من أين كنا سنحصل على مكان يضمنا في تلك المدينة؟

وذات يوم كنت في غرفتي في الخان أعدُّ بسبب ضجري الأعمدةَ التي تسند السقف. سمعت وقعَ أقدام في الخارج. ولما نظرت من

Twitter: @ketab_n

النافذة شاهدت بدوياً يرتدي ثوباً مخططاً ويلقي على كتفه عباءة من وبر الإبل وعلى رأسه كوفية سوداء ينتصب وسط الخان. لم آبه لهذا المشهد فقد شاهدت سابقاً كثيراً من البدو يأتون إلى الخان لبيع الخناجر والعباءات، وعدت إلى سريري. لكن وقع أقدام ذلك التاجر البدوي ازداد أكثر فأكثر وصار يُسمَع بوضوح حين شعرت به يقترب من باب غرفتي. سمعت طرقاً لمرتين متتاليتين على الباب فصحت وأنا في مكاني: «لن أشتري شيئاً. دعني أنام».

وكم دهشت حين سمعت صوتاً أنثوياً يقول: «جئت لأعطيك درس اللغة يا خواجه مارتين». كانت هي كوثر. لم أصدق أذني فمثل هذا الأمر لا يحدث حتى في الأحلام. نهضت وفتحت الباب فرأيتها متنكرة في ذلك الزي. لم تمنحني أية فرصة للكلام ودلفت إلى الغرفة على عجل ثم أغلقت الباب وراءنا. كانت رائحة الأنوثة تفوح من تحت تلك العباءة. ثملت بها بينما كان المؤذن ينادي لصلاة الظهر.

***

قضيت عدة شهور على ذلك المنوال. تعددت لقاءاتي الحميمة جداً مع كوثر في السر، عقدت صداقات مع أعضاء المجتمعات والجمعيات الأوروبية وخاصة الإنجليز. كان الإنجليز يخرجون في الصباح الباكر إلى صيد الأرانب والقطا والعصافير. أمضيت أوقاتاً كثيرة في سباق

Twitter: @ketab_n

الخيل[1]. كذلك قضيت كثيراً من الوقت في لعب الورق والسهر في بيوت المسيحيين الحلبيين وفي دروس اللغة العربية وقضاء أيام السبت والأحد في حانة القنصلية الفرنسية حيث كنا نحتسي خمرة الجنوب الفرنسي حتى الفجر.

كانت حياتي عامرة بالمتع والملذات فتركت البحث عن الكتاب وراء ظهري.

في كل مكان كنا نشاهد آثار معاهدة كارلوفيتز. راجت حركة التجارة وامتلأت الأسواق بالبضائع ورفعت القيود السابقة عن تجار البندقية نهائياً وصرنا نشاهد في حلب وغيرها من الإسكالات العشرات من التجار البنادقة وغيرهم أيضاً وكثيراً آخرين مع غلمانهم يمشون في الأزقة متوجهين إلى الأسواق. وحدهم التجار الهولنديون كانوا نادرين لأنهم وجدوا لأنفسهم طرقاً تجارية خاصة بهم ومراكز لصرف بضائعهم غير حلب وإزمير.

لم تعد حبة الكستناء التي كانت الذكرى الوحيدة من وطني تثير أشجاني كما كانت في السابق. أصبحت قطعة منسية بين أشيائي المهملة ولكن لا أعرف لماذا لم أتخلص منها! كنت أنظر إليها بين الفينة والأخرى وأهزها. كانت تخشخش. تيبست وهرمت مثلما تيبس لديَّ

(1) كان لي جواد أصيل اسمه رعد، سريع العدو قوي من سلالة الخيول النجدية. وكان خادمي الشركسي يسرجه كل يوم أحد لنذهب إلى الصيد مع قناصل الدول الأوروبية. مع أن العادة قد جرت في حلب وإزمير وباقي البلدان العثمانية ألا يركب الفرنجة الخيول ويسيروا بها إلا في القليل النادر. وكان كثير من الأوروبيين يدفعون رشاوى كبيرة ليمتطوا صهوات جيادهم.

Twitter: @ketab_n

شعور الحنين إلى الوطن. كنت أنا أيضاً حبة كستناء انقذفت خارج غلافها. كنت ذلك الطفل الذي خرج لتوه من بطن أمه فنسي الرحم وظلماته وتعلق بالثدي الذي يرضع منه.

كان العديد من الرعايا الأوروبيين يتحدثون، حين نتسامر، عن طفولتهم وشبابهم وقصص حبهم وكذلك كانوا يتحدثون عن عائلاتهم. بعضهم كان يحترق بنيران الشوق ولا يصدق متى يرجع إلى دياره، ومنهم من ترك كل شيء وراءه وعاد إلى وطنه، حتى إن تاجر صابون مرسيلياً انتحر من شدة الكمد. أما أنا فلم أكن كذلك وكأنني كنت أحمل في صدري حجراً لا قلباً.

السعادة التي كنت أعيشها، حب كوثر ونشاطي الكثيف لم يفسح أي منها المجال لي لكي أعيش مشاعر الحنين. لم يعد الوطن يراودني حتى في الأحلام. أصبحت شجرة اقتلعت من جذورها، شجرة معلقة في الهواء.

مر وقت طويل على تلك العلاقة بيني وبين كوثر. فوجئت ذات يوم أنها تطلب مني أن أفتضها وصارت تحدثني عن أنها تريد مني ولداً. ذهلت حين سمعت منها ذلك وأخبرتها أن ما تريده بعيد كل البعد عن الحكمة والعقل. أنا مسيحي أوروبي وهي مسلمة عثمانية! لم يكن ما تريده ممكناً بأي حال من الأحوال. لكنها أصرت على ذلك وحين أخبرتها بما يجول في خاطري قالت لي: «ليس هناك أسهل من هذا الأمر. فإن كنت تحبني حقاً عليك أن تعتنق الإسلام». يا للفضيحة. القوانين

Twitter: @ketab_n

التي وضعها قناصل الدول الأوروبية وكذلك قوانين الدولة العثمانية كانت تعرقل شيئاً كهذا. على المرء أن يعلم أن حياة التجار الأوروبيين في الموانئ والإسكالات الشرقية صعبة جداً. إنهم لا يستطيعون جلب زوجاتهم معهم كما لا يجوز لهم أن يتزوجوا من النساء العثمانيات حتى المسيحيات منهن.

لقد سعى زعماء الجاليات الأوروبية، أو المِلَّتْ باشي كما يسمون، من وراء ذلك إلى منع الاستقرار وإنشاء الأسر في الشرق. ومن القوانين التي وضعوها قانون يفرض عودة الأوروبي إلى بلاده بعد مضي عشر سنوات من الإقامة في الشرق. كما أن وجود النساء الأوروبيات كان يثير كثيراً من المشكلات للجاليات الأوروبية، فقبل بضع سنوات كان يقيم خياط فرنسي في حلب له زوجة باهرة الجمال عشقها شاب حلبي وكان يلتقي بها، على ذمة الراوي، سراً. ولما علم الخياط الفرنسي بذلك اعتنق الإسلام لينتقم لشرفه من الشاب الحلبي. اضطربت الجالية الفرنسية في حلب كثيراً، فهي لم تكن قادرة على إعادة الخياط إلى الدين المسيحي من جهة ولم تكن قادرة على فعل شيء ضد الشاب الحلبي من جهة أخرى. بذل القنصل الفرنسي في ذلك الوقت دو آرفيوس جهوداً جبارة حتى تمكن من إنقاذ الزوجين الفرنسيين من تلك المحنة وأرسلهما على جناح السرعة إلى ميناء الإسكندرون ومنه إلى مرسيلية.

ومع ذلك فقد تزوج بعض الأوروبيين مع مسيحيات حلب وأنجبوا ذرية أصبحت موضع استحقار العثمانيين والأوروبيين على حد سواء.

Twitter: @ketab_n

وكان الصدر الأعظم المشهور قره مصطفى قد أصدر منشوراً أعلن فيه أن كل أوروبي يتزوج من إحدى رعايا الدولة العثمانية يصبح هو أيضاً من رعاياها ولن تبقى له امتيازات الأوروبيين. وعلى هذا يجب أن يدفع هو وأولاده الإتاوات والضرائب للدولة العثمانية كما يدفعها أي مواطن عثماني. ودرءاً لحصول إشكالات من زواج أوروبيين بعثمانيات فقد أجبر القناصل الأوروبيون أبناء جالياتهم على أن يحلفوا أيماناً مغلظة ويوقعوا على عهود ومواثيق مكتوبة بأنهم لن يتزوجوا من الفتيات العثمانيات. وقد أعيد كل من رفض هذه الإجراءات إلى بلاده. ولقد حلفت بدوري أمام القنصل الإنجليزي في حلب ووقعت وثيقة عدم الزواج من رعايا الدولة العثمانية.

لم تكن كوثر تعترف بهذه القوانين ولا تهتم بها، كانت تحاول أن تدوسها كلها وتقول: «القانون هو قانون القلوب لا قانون دونوه على الورق».

لكن مشاعري تغيرت تجاهها. تحول الحب إلى الاشتهاء المحض وطلب اللذة، أما نبض القلوب وسعادة اللقاء فقد تحولا إلى رغبة عارمة في امتلاك ذلك الجسد الحامي والصدر الفردوسي. لقد ذابت حقيقة الحب وظهرت عوضاً عنها الرغبة في علاقة مستمرة بلا حدود وقطف ثمار جسد تلك الكردية الشهية. وبالعكس من الحكايات التي ينشأ فيها الحب من السعي إلى اللذائذ الحسية ثم تتدرج المشاعر حتى تصبح حباً خالصاً، فقد ذابت كل مشاعر الحب ولم يبق لديّ سوى

Twitter: @ketab_n

محاولات الوصول إلى جنة الملذات ولقاء الأجساد. ومع ذلك فقد كنت أخاف أن ينكشف الغطاء عن علاقتنا السرية يوماً ما وأتضرر جراء ذلك. وربما قطعوا رأسي أو أحرقوني حياً أو في أحسن الأحوال طردوني وغرَّموني بأموال كثيرة وتركوني عرضة للإفلاس والديون وحتى التسول.

لم أكن أعلم كيف تنظر إليَّ كوثر. لم ألحظ عليها أي فتور تجاهي بل على العكس كانت كلما مضى علينا الوقت تزداد تأججاً وحرارة عند اللقاء ولكنها صارت كلما التقينا تطالبني بالزواج منها واعتناق الإسلام. صرت أبحث عن فرصة للتخلص من كوثر.

كنت أعرف صرافاً يهودياً، يعقوب الصراف المشهور في حلب كلها ويملك أموالاً طائلة ونفوذاً كبيراً لدى الوالي والقناصل والتجار والقضاة وقادة الجند وحتى الشيوخ والقسسة والمطارنة والدفتردارية والمِلَّت باشية. كان صديقَ الرب والشيطان في وقت واحد. وكذلك فقد أصبح صديقي الحميم أيضاً وكثيراً ما ذهبت إليه بدنانيري البندقانية ليصرفها لي ويعطيني بدلاً منها الآقجات العثمانية.

كان لهذا الصراف اليهودي بيت في حارة اليهود في حلب اتخذناه أنا وكوثر وكراً للقاءاتنا[1]. كنت آخذ المفتاح من يعقوب الصراف في الأسبوع مرة وأذهب لذلك البيت لأقطف ثمار جنة كوثر. ألحت

(1) كان ثمة يهود آخرون يديرون بيوتاً يلتقي فيها التجار الأوروبيون بالعاهرات. وكان العثمانيون على علم بما يحدث في تلك البيوت لكنهم كانوا يغضون الطرف عن ذلك بسبب الرشاوى الكبيرة التي كان يدفعها من يدير تلك الدور.

Twitter: @ketab_n

عليّ كوثر في لقاءاتنا هناك أيضاً أن أتزوجها. كانت تبكي وتنوح، تخاصمني، تتدلل عليَّ، تبعدني عنها وتمنعني من أن ألمسها. وذات يوم لاحظت أن كوثر تتصرف وكأنها مخمورة، فأشعلت النار في الهشيم الكامن لديَّ وأوقدت من جديد شمعة الشهوة وقالت لي: «أريد منك ولداً، ولداً أزرق العينين مثلك». لكنني تراخيت كأن أفعى لدغتني فارتديت ثيابي على عجل. بقيتْ هي ممددةً هناك. كان شعرها مبعثراً على الوسادة مثل جناحي نسر هائل. قلت لنفسي: «عليَّ أن أضع حداً لهذه العلاقة الخطيرة. عليَّ أن أنهي هذه الحكاية. عليَّ أن أبوح بمشاعري وليحدث الطوفان». استجمعت قواي وقلت لها بلهجة لامبالية: «يكفي يا كوثر. ليس من تناسب بيننا. الجدران التي تفصلنا لم نشيدها نحن ولسنا كذلك بقادرين على هدمها. فليذهب كل واحد في طريقه».

لم تتكلم. نهضت فجأة وجاءت لتقف في مواجهتي. جمعت كل ما في فمها من لعاب وبصقت على وجهي. لم ألحظ متى وكيف خرجت. لكنني لم أشعر بنفسي إلا وأنا بقرب المذبح في الكنيسة القريبة من الخان. كنت واقفاً أمام أيقونة تمثل السيد المسيح والعذراء مريم. حدقت في الأيقونة وصرت أبكي[1].

***

(1) في دفاتري الضائعة كتبت بالتفصيل عن علاقتي بكوثر وكيف افترقنا. الآن لا أتذكر كل شيء لكنني أعرف أننا لم نلتق بعد تلك اللحظة إلى أن جاء ذلك اليوم النحس الذي سأكتب عنه إن سنحت الفرصة.

Twitter: @ketab_n

مضى وقت طويل على اللقاء الذي جرى بيني وبين كوثر في بيت يعقوب الصراف من دون أن أسمع عن أخبارها شيئاً. لقد أنهت علاقتنا الممتعة بتلك البصقة الكبيرة على وجهي ولم أرها بعد ذلك. سرَّني ذلك طبعاً إذ لم تعد عندي رغبة في اللقاء بها، وفي الحقيقة صرت أخاف منها. لم أكن أخاف منها هي بالذات بل من فعل متهور قد تقوم به وتسلم بذلك رقبتي للسيف أو لنارٍ متقدة تحرقني حياً. عشت هاجس أن تعود فجأة. لم أعد أشعر بأنها تحبني. كانت تنوي شيئاً لم أفهمه. ولو أنها أخبرت السلطات العثمانية بعلاقتنا لجعلوني وقود نيران الشريعة. أو كان عليَّ أن أعتنق الدين الإسلامي وربما ترتب عليّ دفع غرامة باهظة لوالي حلب ثم أُطرد مفلساً إلى بلادي[1]. ولو كنت مواطناً إنجليزياً أو فرنسياً لهان الأمر قليلاً لأن التجار من فرنسا وإنكلترا يعينون زملاءهم التجار الذين من بلادهم. أما أنا فمن كان سيعينني في محنتي لو حصلت؟ لم يكن في حلب لا جالية ألمانية ولا قنصل ألماني.

ومع كل ذلك لم أكن قادراً على نسيان كوثر. كنت خلال كل تلك المدة الطويلة أترقب مجيئها وأقول لنفسي: «ستظهر الآن. لقد غضبت وتتدلل عليَّ. لا شك أنها سافرت إلى قريتها في كُرداغ وستعود». كنت أخاف من عودتها من جهة وأترقبها بشغف من جهة أخرى.

(1) اعتناق الإسلام ليس أمراً سهلاً. فالذين كانوا ينوون الدخول في هذا الدين كانوا يتعرضون للنفي والعودة من قبل قناصل بلادهم. أما إشهار الإسلام فينبغي أن يكون علنياً مما يشكل فضيحة للرجل الأوروبي. وسآتي على هذا الموضوع مفصلاً.

Twitter: @ketab_n

تكوَّن لديَّ شعور غريب هو مزيج من الخوف والأمل ولا توجد كلمة مناسبة تعبر عنها في أية لغة. لكنها لم تظهر، لم تعد كوثر فنسيتها وانشغلت بأمور تجارتي.

أصبحت وكيل آلبرتو ي سيلفا وصرت أوزع بضائعه التي تأتي عبر الموانئ ومع القوافل على تجار حلب. تحسن وضعي وازدادت مشاغلي التي أنستني كوثر. لكن ذكرى تلك الفتاة، وكأنها جرحٌ أو حُمَّى، كانت تؤلمني وتؤرقني في الليالي حتى بعد مضي أشهر كثيرة على فراقنا. ثم أصبحت تلك الذكرى، في نهاية الأمر، مثل أطلال في صحراء غمرتها رمال عاصفة رملية.

وفي أحد الأيام جاءتني رسالة من عكا. آه ما أصغر الدنيا على كبرها! ففي أقل من شهر يمكن لرسالة أن تصل من مدينة مثل عكا إلى عنوان في مدينة مثل حلب. ومع أن خدمة البريد في البلاد العثمانية ليست على ما هي في بلادنا إلا أنها ليست سيئة على كل حال.

كنت على سريري أستمع لصوت الأذان يتردد بمقام البيات الذي يسمى أبو المقامات وأمامي كوز خمر أتيت به من سرداب في الخان أحتسيه بهدوء. سمعت صوتاً قادماً من الأسفل وينادي: «مارتين مارتين». نهضت ونظرت من النافذة. كان ثمة رجل قصير غليظ الرقبة ينظر إلى نافذتي ويناديني. نزلت بسرعة فاهتز الدرج الذي تُزين جانبيه أصصٌ مزروعة بالزنبق. كان الذي يناديني أرمنياً في حدود الأربعين من العمر عائداً من الحج في القدس، سلم عليَّ بوجه مبتسم

Twitter: @ketab_n

وقال بالبرتغالية : «بون ديا» أي صباح الخير. كنت أعرف رد التحية بالبرتغالية لكن لخشيتي من أن يتمادى الأرمني في برتغاليته فلا أفهم منه شيئاً، سلمت عليه بالعربية التي يفهمها كل أهل الشرق: «مرحبا». لم يكن الأرمني القصير ذاك يعرف العربية لكنه فهم ما أرمي إليه واختصاراً للوقت قال لي: «بيدرو. بيدرو دل فارو».

فهمت أنه يحمل إليَّ رسالة من ذلك التاجر البرتغالي الذي التقيت به في عكا.

لكن كيف عرف بيدرو البرتغالي أنني أقيم في خان هوكيدون؟ هذا ما لم أُحِط به علماً إلى الآن.

***

جاء في رسالة بيدرو دل فارو البرتغالي أنه بحاجة إلى وكيل تجاري عوضاً عن وكيله التجاري الذي لم يعد يصلح للمهمة. عرض عليَّ أن يرسل إليَّ أحمالاً من الورق المستورد من أوروبا والذي يمكنني استلامه في عكا أو الإسكندرون أو بيروت أو أي ميناء متوسطي آخر تربط أمواجُه الشرقَ بالغرب. لم أتردد كثيراً. كتبت له رسالة قصيرة: «أجل. سأصبح وكيلك التجاري بكل سرور». ختمت الرسالة وبعثتها مع قافلة البريد المتجهة إلى دمشق.

وهكذا أصبحت في حلب وكيلاً حصرياً للتاجر بدرو ومحتكر تجارة

Twitter: @ketab_n

الورق الإفرنجي وخاصة القادم من مرسيلية[1].

كان زبائني من الوَرَّاقين والنُّسَّاخ والمُجَلِّدين والصَّحَّافين في حلب وما حولها. بالإضافة إلى المشايخ والمدرسين والخوارنة وطلبة العلم ومريدي التكايا وصبيان الكنائس وصغار التجار وحتى الرهبان المنزوين في الجبال. كان النساخ هم أكثر من سببوا رواج سوق الورق فقد كانوا ينسخون كتب الطب والشعر والفلسفة اليونانية المترجمة كذلك كتب الفلك والتنجيم والمنطق والنحو والصرف العربي والجبر والهندسة والحساب وتفسير القرآن بالإضافة إلى كتب اللاهوت المسيحي التي ألفها مسيحيو حلب من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية في المشرق.

كما كان في كل مسجد وكنيسة مكتبةٌ تضم رفوفُها كتباً كثيرة، بالإضافة إلى مكتبات المدارس وبيوت الوجهاء والأعوان وأصحاب الرتب العالية. أما في سوق الوراقين فقد تعرفت على الوراقين والناسخين وصادقتهم حين كنت أبحث عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة. أحياناً كنت أشعر أن أرض حلب وسماءها من ورق.

ولما لم تكن في حلب آلات طباعة كما عندنا فقد خطر على بالي أنه لو كانت في حلب ماكينات طباعة فإن جبالاً من الورق لن تكفي حاجة هذه المدينة. لذلك أخبرت معلمي الصغير عبد الله بالأمر وهو بدوره

(1) أظهرت لي السعادة هنا وجهاً آخر من وجوهها. تحولت السعادة من صدر كوثر السمراء إلى الأوراق المرسيلية البيضاء.

Twitter: @ketab_n

تداول الموضوع في الكنيسة. كان البطريرك أثناسيوس الثالث قد شاهد مطبعة خلال إحدى رحلاته إلى بلاد الأفلاق (رومانيا)، ولما تم الحديث عن الموضوع في الكنيسة تذكرها البطريك وفي آخر زيارة له إلى هناك جلبها معه إلى حلب. هناك عمل عبد الله الصائغ الماهر، على نحت قوالب الحروف العربية من الرصاص المذاب. لم ينس البطريرك فضلي في تنبيههم لضرورة وجود المطبعة فكان كلما رآني يبتسم حتى تظهر أسنانه البيضاء التي تغطيها شواربه ويقول: «لك فضل كبير في وجود هذه المطبعة يا بني. أنت مسيحي صالح».

***

ما إن أصبحت وكيل بيدرو دل فارو حتى تركت العمل كوكيل لصديقي آلبرتو الذي لم يعد يجلب الكثير من البضاعة ويقضي أغلب وقته في بلاد فارس. لقد رأى سعادته في حضن روناز الأرمنية وصار يفضل ذلك الحضن على حلب كلها.

تحسن وضعي كثيراً وصارت الأموال تنهمر عليَّ مثل زخ المطر. وبقدر ما انهمرت عليَّ الأموال فقد تعرفت على كثير من النساء فهن ينجذبن إلى رائحة المال أينما كان. لأن رائحة الشيطان تفوح من النقود وهي رائحة تميزها النساء جيداً.

أراد الكثيرون أن ينافسوني في السوق ويقهروني. أرادوا تحطيم

Twitter: @ketab_n

أجنحتي الورقية وإحراقها ودفعي خارج السوق لكنهم لم يستطيعوا. وقد كان يتزعمهم تاجر سبقني في السوق يأتي بالورق من بغداد. وحين رأى هذا التاجر إقبال الناس عليَّ وتركهم له ولبضاعته نهب الحقد قلبه فوضع يده في يد تاجر أنطاكي كان يتاجر بالورق الشامي والمصري والسمرقندي. ومع أن التاجرين حاولا مضاربتي إلا أنهما لم يستطيعا ذلك، بل على العكس فأنا الذي دفعتهما إلى ترك حلب. لقد استأجرت بعض الصعاليك والشطار وأرسلتهم ليلاً إلى مخازن الورق لخصميَّ التاجرين فأحرقوها ثم ولوا هاربين. حدث ذلك مرات عدة وعندما لم تكن تسنح لهم فرصة الإحراق كانوا يسكبون الماء على أكداس الورق فتتحول إلى عجين. لقد غادرت الرحمة قلبي. هذه هي قاعدة السوق: حيثما وجدت التجارة، غابت الرحمة.

لا أعرف ما الذي جرى لي ولماذا أصبحت بتلك القسوة! لكنني كنت سعيداً بأسلوب حياتي الجديدة. ولو كان في الإمكان لقمت بإخصاء منافسيَّ أيضاً. لقمت بالوشاية بهم لدى السلطات ووصفتهم بالمارقين من الدين. النساء والأموال وعلاقاتي الكثيرة بالوجهاء وعلية القوم كالباشوات والمفتي الأكبر ووالي حلب والبطريرك الأرثوذكسي وجميع تجار حلب، كل ذلك جعل الرغبة في حياة صاخبة غايتي القصوى.

صرت أرى سعادتي في ارتكاب الآثام والموبقات.

***

Twitter: @ketab_n

ذهبت كوثر وغابت. هذا صحيح. لكن جاءت خديجة[1]. وأنا لم أتبع أثر كوثر مطلقاً ولم يحركني الفضول قط لأسأل إن كانت ما تزال تعيش على ظهرهذه الأرض أم أنها باتت ترقد في بطنها! صارت هي أيضاً مثل وطني الذي ما كنت أتذكره إلا لماماً.

لقد بقي لديَّ من وطني تذكار يعيده إلى ذاكرتي: حبة الكستناء التي كانت تتيبس يوماً بعد يوم، أما كوثر فلم تترك أي شيء يذكرني بها. لقد أضحى بيت يعقوب الصراف فردوسي الذي أجلو فيه نحاس سعادتي. ذلك البيت الجميل الذي عرَّش اللبلاب على جدرانه أصبح ملتقاي أنا وخديجة. في بيت ذاك اليهودي عقدنا أنا وهي ليالي سمر من النار والبهجة والأغاني حتى مطلع الفجر.

في السنة الثالثة لمعت شهرتي في المجتمع الحلبي. صادقني المبشرون والقناصل والتجار والقسسة والشيوخ والرهبان والرِّبيون وطلبة الفقه لأجل ما عندي من ورق. وطالما سمعت أن الطلبة في المدارس إذا أرادوا أن يمدحوا أوراقهم التي يكتبون عليها قالوا مفاخرين: «أوراقنا من بضاعة مارتين، الكوسج الإفرنجي».

خرج تجار الورق من المنافسة. ثم جاء بعض البنادقة وحاولوا منافستي وإيجاد موطئ قدم في السوق ففشلوا. غمرتُ والي حلب بالهدايا فأصبح صديقي. أزحت عن طريقي كل من أراد منافستي

(1) لم أكتب قصة خديجة كاملة لكنني كلما سنحت لي الفرصة سأكتب شذرات منها، سأكتب أيضاً نتفاً مما سردته هي بنفسها لي في ليالي الشهوات العارمة.

Twitter: @ketab_n

إما بالقوة أو بالدنانير الذهبية اللامعة التي كنت أهبها لوالي حلب. الصرافون اليهود في حلب كلهم صاروا أصدقائي وخاصة يعقوب الصراف الذي كان له بيت آخر في تادف وهي قرية قريبة من حلب فيها مزار عزرا كاتب التوراة. أصبح يعقوب من أخلص أصدقائي وصرت شريكه في أعمال الربا إذ كنت أعطيه النقود وكان بدوره يقرضها للتجار المسلمين قرضاً بفائدة. نما المالُ وزاد كما لو أنه كرة من الثلج تتدحرج. صارت السعادة تتمسح برجلي مثل جرو. أصبحت السعادة كامنة في بريق الذهب. أما في لحظات المتعة الجسدية فقد كانت سعادتي هي صدر خديجة الحلبية.

وخديجة الحلبية هذه كانت فتاة بيضاء البشرة تظهر العروق الزرقاء في عنقها ويدها وفخذيها مثل أنهار سقط الثلج على ضفتيها. أما عيناها فلم تكونا إلا خرزتين فاتحتي الزرقة. كانت جميلة جداً مثل أيقونة بيزنطية. كانت قنديلاً من قناديل ليلة المعراج توهجت في حياتي.

أما تعارفنا فهو بحد ذاته حكاية وهذا مختصرها:

كنت كلما خرجت من خان هوكيدون لأذهب إلى أعمالي، اضطررت للمرور في زقاق ضيق مظلم مسافة خمسمئة خطوة. كانت جدران ذلك الزقاق عالية بحيث لا يمكن للمرء رؤية السماء بسبب علوها. وقد تنبهت إحدى الفتيات لمروري كل يوم فتعلقت بي وصارت تتفرج عليَّ من خلال مشربية انبثقت من ثقوبها أغصان الياسمين(1).

(1) المشربية شيء مثل الشرفة لكنه مغلق. يتم صنعها من شجر الجوز أو التوت. تسد ثقوب =

Twitter: @ketab_n

كانت خديجة قد علقت بي من دون أن أعرف. أصلاً لم أكن أتجرأ على رفع بصري إلى الأعلى لأنظر إلى المشربيات. وذات مرة كنت أمشي في ذلك الزقاق. كان في صمته شبيهاً بالقبور حتى إنه لم يكن ثمة أطفال يلعبون على غير العادة. لم أسمع سوى وقع خطواتي المتسارعة تكسر جِرار الصمت. وفجأة رأيت ورقة تسقط بقربي. كانت ورقة من أوراقي الإفرنجية الصقيلة التي كنت أتجر بها، مطوية مثل تعويذة إسلامية مثلثة وتفوح منها رائحة الأنوثة. انحنيت عليها والتقطتها. فتحتها وقرأتها. وأنا أقرأ الورقة سمعت همساً. وحين رفعت بصري إلى مصدره شاهدت وجهاً وضَّاءً مثل ياسمينة بين أزهار الياسمين البيضاء الفواحة في مشربية في الأعلى. كانت ابتسامة حلوة تزين شفتيها. سمعت قرقعة على الطريق الحجري من ورائي، التفت فرأيت بغلاً حديث النعل، وسرعان ما أُغْلِقَت الكوة الصغيرة التي كانت تتوسط المشربية وغاب عني ذلك الوجه الملائكي ذو العيون الزرقاء. طأطأت برأسي وشددت قبضتي على الرسالة ثم أكملت سيري[1].

= المشربيات بالزجاج الملون من الداخل بحيث يرى من في الداخل، وأغلبهم من النساء، كل من في الخارج. كما أن المشربيات تُبعِدُ الحرَّ عن الإيوان في كل منزل وتظلل الشارع وتحمي المارة من الشمس ومن المطر على حد سواء. كذلك تُعلَّق فيها الأصص المزروعة بالورود والأزهار. وحين تكون الشوارع خالية يستطيع العاشق أن يقف تحتها ويحدث حبيبته الواقفة في الأعلى.

(1) «إذا أردت أن ترى الجنة بأم عينيك فتوجه مساء الجمعة المقبلة عند مغيب الشمس إلى حارة الصابونية في الميدان الأسود. هناك تجد مسجد آلتون بغا، وعلى الشرق منه باب من جهة اليسار مكتوب على قوسه البسملةُ باللون الأحمر. خ». هذا ما كان مكتوباً في تلك الورقة. بدا لي حرف الخاء المكتوب بحبر أحمر قرمزي والذي هو أول حرف من =

Twitter: @ketab_n

كانت تلك رسالة تدعو إلى لقاء. فيها اسم شارع ووصفُ باب. لم أسأل من هي هذه المرأة وهل كتبت تلك الدعوة لي بالذات أم لغيري من عابري السبيل الذين كان من الممكن أن يمروا تحت تلك المشربية. ومع ذلك، وحين صدح صوت المؤذنين ينادون لصلاة المغرب من مآذن حلب، رشوت الأوضه باشي وتوجهت إلى جنوب القلعة. لم يكن الاهتداء إلى حارة الصابونية بالأمر العسير، فالرائحة كانت كفيلة بذلك. فاحت رائحة الصابون من بيوت تلك الحارة وتسلقت الجدران لتصل إلى الخارج.

من بعيد لاحت القناديل المشتعلة في كوى مئذنة مسجد آلتون بُغا في تلك الحارة. يممت وجهي صوب تلك القناديل ووصلت إلى الشارع. كان صعباً أن أميز البسملة المكتوبة باللون الأحمر في الظلام، رأيت مثيلاً لتلك البسملة التي وصفتها لي في رسالتها على كل باب. خفت على الرغم من تنكري في الثياب الحلبية، وصرت ألتفت كل لحظة ورائي وحولي. وفجأة رأيت باباً ينفتح وسمعت صوتاً أنثوياً رقيقاً لمع مثل نجمة في ذلك الظلام والخوف: «فُوت، فُوت» أي ادخل.

دخلتُ. دخلت فردوساً أرضياً. أسكرتني رائحة المسك والياسمين، وثملت من عبق ماء الورد.

***

= اسمها، مثل منجل يريد التقاط فراشة. كانت تفوح من الورقة رائحة زكية جداً. كانت تلك دعوة لدخول الجنة فمن ذا الذي سيتخلف عنها؟ لو دعتني إلى الجحيم لذهبت.

Twitter: @ketab_n

بعد جملة: «ثملت من عبق ماء الورد» التي كانت في نهاية إحدى الصفحات، ظهرت ثلاث صفحات متلاصقة. ما كان طالب اللاهوت يريد أن تفوت عليه ولو جملة واحدة. وعلى وجه الخصوص تلك المتعلقة باللحظات المليئة بالمتعة التي كانت تسبب رعشة تتسرب إلى شرايينه وما بين فخذيه. بحرص شديد أراد طالب اللاهوت أن يفصل تلك الصفحات الملتصقة من دون جدوى. بدا جلياً أن الصمغ تسرب إليها أو أنها كتبت بحبر لزج، فأخرج من جيبه سكيناً حادة وصار يحاول فتح الصفحات لكنه وجد أن آثار الحبر قد محيت هناك وبات من المستحيل قراءتها. كانت الصفحات الثلاث كلها كذلك تتعذر قراءتها بل تستحيل. لم يكن ثمة أي جدوى من كل المحاولات بالرغم من الفضول الكبير الذي دفعه لبذل الكثير من المحاولات الفاشلة.

اضطر في النهاية أن يفتح المخطوطة على صفحة تالية وبدأ يقرأ:

***

مع حلول سنتي الرابعة في حلب سكنت بيت آلبرتو دي سيلفا. كان بيته من تلك البيوت العربية التي يتوسطها فناء واسع تزينه عرائش الياسمين وشجيرات الورد، وفي منتصف الفناء حوض ينبثق الماء من نافورة فيه ، ويسمى ذلك الحوضُ الفسقيةَ أيضاً. كنت أضع

Twitter: @ketab_n

في أمسيات الصيف شموعاً على حواف ذلك الحوض وأشرب الخمر مع الحوريات. تركت خان هوكيدون وما عدت أزوره إلا للقاء التجار وشراء البضائع القادمة من الموانئ وبيعها.

أصبحت أحد أعضاء المجتمع المسيحي في حلب، حيث كنت أنشغل نهاراً بتجارتي وفي المساء أسهر مع رفاقي وخلاني. ومن أولئك الخلان كان حنانيا المصور وكان صديقاً حميماً لي، بالإضافة إلى الأرمني خاجادور الشماس في كنيسة الأربعين شهيداً[1].

أما عبد الله وأخوه نعمة الله ووالدهما زكريا وعمهما نيقولا الصائغ فقد كانوا لي بمثابة عائلتي.

لكنني كنت أبتعد عن حلقات الأصدقاء في ليالي الأحد والجمعة وأغيب عنهم وعن الدنيا وما فيها لأذهب إلى زيارة الزهور وأمتص الرحيق. كنت أمرغ روحي في رماد الآثام اللذيذة وأعيش حياة هي على النقيض من حياتي الظاهرية اليومية. لم يكن أصدقائي، الذين سبق ذكرهم وهم من أعيان مسيحيي حلب، يعرفون أين أقضي تلك الليالي التي أغيب فيها. كنت أضع قناع التقوى والورع حين أكون بصحبتهم، قناع تاجر أوروبي معتد بنفسه وحريص على اسمه وشهرته

---

(1) تقع هذه الكنيسة بالقرب من خان هوكيدون الذي أقمت فيه حتى انتقالي إلى بيت صديقي آلبرتو بالقرب من خان البنادقة. أما خاجادور الشماس فكان حفيد الخواجه بيديك المعروف أيضاً باسم بيدروس العجمي والذي جدد بناء الكنيسة قبل مئة عام. كان حنانيا حفيد مصور الأيقونات الشهير يوسف المصور الذي زينت أيقوناته الجميلة كنيسة الأربعين شهيداً وبعض الكنائس الأخرى..

Twitter: @ketab_n

في السوق. كنت أخفي حقيقةَ وجهي خلف قناع جميل. لقد منحتني الحياة خلف الأقنعة سعادة زائدة ولذة تفوق الوصف.

صارت القطة الأليفة خديجة الحلبية توقد في الليالي الجميلة تنور اللذة. عيناها الزرقاوان طارتا بي بأجنحة لامرئية إلى بلادي. كانتا تذكرانني بأول فتاة قبلتها بخوف.

كنت كلما زرتها في ذلك البيت في حارة الصابونية، أراها خارجة من الحمام تفوح من جسدها الحريري رائحة البخار والنرجس البري والسوسن الطري وصابون الغار. كأن حقلاً لامرئياً من الزنبق نما على جسدها. كانت رفيقتها، أي حواء الشركسية، وهي صاحبة البيت، تنضم إلى لحظات متعتنا. وما إن ينتهي المؤذنون من أذان العشاء حتى تنفخ في الشموع فتطفئها لننغمس في بحر اللذة.

كانت حواء هذه، الأرملة الشركسية التي يسيل لذكر اسمها لعابُ الرجال في حلب، تنهض وترتدي ثياب الرقص لتصبح كرة من نار، عاصفة من لحم أبيض وسيلاً من الإغواء. كانت تبدو وكأنها تريد أن تنتقم من الأرض والسماء والبشر والطبيعة والرب. قالت لي حواء ذات أمسية إن ضابطاً من قواد الانكشارية دفع زوجها إلى الحرب في المجر فقتل هناك. ترملت حواء وهي في السابعة عشرة من عمرها فاتخذها ذلك القائد العثماني عشيقة ومحظية له في قصره الفاره. بقيت الأمور هكذا إلى أن ثار الإنكشارية في زمن السلطان سليمان الثاني وقتلوا في الآستانة الصدرَ الأعظم سياوش باشا ووُضِع القائد العثماني

Twitter: @ketab_n

على خازوق من خشب التوت بيد رفاقه فتحررت حواء وصارت تنتقم لنفسها بسلاح الجسد.

ليلةَ تعرفت عليها، بفضل رسالة خديجة، أدركت أنها لبوة تفترس الرجال. كانت تأتي فقط في ليالي الجمعة وتشعل شموع الشهوات لتضيء الأزقة المعتمة في الخيال. لم يكن أحد يعرف إلى أين تذهب حواء في باقي الأيام وأين تشعل الشموع وأية زوايا مظلمة تغسلها بنور نهديها؟ ما كان أحد يعرف بيت من تدمرُ تلك العاصفة ولا أية أرض تجرفها أمواج ذلك السيل الهادر؟

كانت حواء وخديجة تسردان لي كل مرة قصصاً ووقائع مرت بهما في حياتيهما لكنني ما كنت لأهتم بحكاياتهما، كنت فقط مهتماً بقراءة سطور السعادة على صفحات ذينك الجسدين البضين الساحرين العابقين.

كنت أتذكر كتاب الإفادة في إكسير السعادة أحياناً وأنا وسط بحيرة العسل تلك. ذات مرة قال معلمي الشاب عبد الله، الذي صار يتردد على حنانيا النقاش ويتعلم منه أصول رسم التصاوير: «إن شئت بحثنا في مكتبات أديرة حلب وما حولها عن هذا الكتاب. إن الرهبان الموارنة يحتفظون بمخطوطات كثيرة».

كان عبد الله متحمساً جداً للحصول عليه، صار يبحث عنه من دون أن يخبرني، فيسأل التجار والرحالة والمسافرين والرهبان والشيوخ لكن من دون أن يعثر على أثر له. أما أنا فقد فترت همتي كثيراً ولم يعد يعنيني

Twitter: @ketab_n

أن أجده أو أسعى وراءه حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من نسيانه. أصبح الكتاب ذاك رماداً تحت نيران شهواتي المستعرة التي لم يعد لها حدود. صارت السعادة ذلك العفريت من الجن كما في حكايات ألف ليلة وليلة، متى ما مسحت على الإبريق أو فركت الخاتم، حضر إليَّ قائلاً «شبيك لبيك عبدك بين يديك» وحقق لي كل ما أشتهيه.

***

مع السنة الخامسة ازدهرت تجارتي ازدهاراً كبيراً كالفطر الذي ينمو فجأة في الربيع على جذوع الأشجار وحواف الطرقات غِبَّ المطر. انفصلت عن بيدرو دل فارو وصرت أدير تجارتي لوحدي وكان صديقي آلبرتو قد اشترى بيتاً جميلاً من طابقين أسفل القلعة يأتي لزيارته مرتين في السنة فيبقى بضعة أيام ثم يذهب لتجارته. كان يقضي نصف السنة في أصفهان عند حبيبته روناز والنصف الثاني في البندقية يذهب بالجندول في رحلات لصيد الفتيات والأسماك.

في بيت آلبرتو، الذي سلمني مفاتيحه والذي كان منزلَ القنصل الفرنسي السابق ويقع خلف خان البنادقة، قضيت أجمل السهرات مع أصدقائي الحلبيين والأوروبيين وكثيراً ما كان المطربون وعازفو العود يأتون للسهر فنسكر على أنغام الموسيقى ونشرب حتى الفجر. في تلك الأثناء تعرفت على راحيل زوجة يعقوب الصراف في دكانة زوجها في

Twitter: @ketab_n

وسط مدينة حلب فقمت بإغوائها أيضاً. كانت امرأة ممشوقة القوام رقيقة الشفاه نجلاء العينين، صرت أذهب إليها في قرية تادف كلما استبدت بي الرغبة إلى جسدها. حين التقيتها أول مرة اشتهيتها وأدركت أنها تبادلني الشعور نفسه. كنت عند يعقوب الصراف لأصرف بعض الدنانير البندقية التي تسمى الأصلاني والأسدي، وحين صرفها لي يعقوب قمت باختيار خاتم ذهب وناولته زوجته راحيل وأنا أغمز لها بعيني وأقول لزوجها: «امتناناً وعرفاناً مني بصرافتك التي لا تشوبها شائبة أقدم هذا الخاتم لزوجتك الجميلة».

أصبحت راحيل عشيقتي. أحياناً كانت تأتي إلى حلب فأدعوها لحضور سهراتنا أنا وخديجة وحواء.

ذات مرة من مساء أحد أيام الجمعة سمعت طرقاً على الباب. كنا قد هيأنا أنفسنا للنزول إلى بحيرة عسل الشهوة. استمر الطرق بإصرار واضح. عرفت أن الطارق أحد العميان فقد كان الطرق على الباب بعصا وليس على مقبضه النحاسي. ارتديت ثيابي وخرجت لأفتح الباب الذي لم ينقطع الطرق عليه حتى وصلت إليه. وما إن فتحت الباب حتى وجدت الأعمى نور الدين يغمر وجهَه سرورٌ طافح. نظر كعادة العميان إلى الأعلى وأمال رقبته ثم قال حين آنس وجودي: «أبشرك يا خواجه مارتين. لقد عثرت على الكتاب». سألته: «أي كتاب؟». بقي السرور الذي استقبلني به طافحاً على وجهه كما كان وأردف قائلاً: «الإفادة في إكسير السعادة. هل نسيت؟

Twitter: @ketab_n

الكتاب الذي تبحث عنه. هو في بيت الشيخ...». قاطعته بفتور لم يتوقعه: «كتاب السعادة عندي. لم أعد أبحث عنه». حين قلت ذلك، خجل نور الدين كثيراً، طأطأ رأسه وتلفت ناحية الشمال واليمين عدة مرات وهمهم قليلاً ثم غادر باب الدار مسرعاً. أما أنا فعدت إلى كتاب سعادتي الذي كانت صفحاته جسداً دوَّنتُ عليها بشفتي الظامئتين سطور الشهوة.

انشطرت إلى شخصين. شخصين يختلف أحدهما عن الآخر في كل شيء. وقبل كل شيء يختلف ظاهري عن باطني. في الظاهر كنت رجلاً محترماً، مسيحياً ورعاً، عطوفاً رحيماً بالفقراء من دون أن يسأل عن دينهم، ولا يأبه للنساء ولا يهتم لأمرهن. أما في الباطن الذي كنت أخفيه تحت لفائف كثيفة كتيمة من الجوخ لإنجليزي الأسود فقد كنت شخصاً مختلفاً تماماً. كنت أكذب، أحتال، أعاشر النساء وأغويهن، أميل للموبقات، أتعامل بالربا ولا أتحرز من أكل السُّحْت. الظاهر مخمل طري أنعم من وبر الأرنب والباطن قماش أغلظ من شعر الماعز.

العجيب في الأمر كان ذلك الانسجام الدقيق بين الظاهر والباطن عندي. لم أكن أصدق ذلك الانسجام والتناغم بينهما. لم تغيرت هكذا؟ ترى أبريق الذهب ذهب بي بعيداً وغيرني أم هو بعدي عن الوطن؟

ذات مرة قال لي نور الدين الأعمى أمام باب حمام يلبغا جنوب القلعة، قبل أن يهجرني ويخاصمني ويذهب من دون أن أراه مرة أخرى: «يا خواجه مارتين، إن من يبتعد عن وطنه مثل من يبتعد عن

Twitter: @ketab_n

ربه، يتعفن».

أما أنا فلم أكن قد ابتعدت عن وطني وحسب، بل لم أعد أعرف ما هو الوطن ولماذا يجب أن يشتاق المرء إلى تلك الأماكن التي هاجر منها! أموالٌ كثيرة تكدست في يدي، أصبحت أستمتع بنساء كثيرات والسعادة صارت في حضني فأي روثٍ هو الوطن؟

كنت سعيداً. وكانت مشاعر السعادة تشجعني على البقاء سائراً على نهجي من دون أن أندم على أية فعلة أقترفها أو أخجل من ارتكابها. كنت مرتاح البال ذا ضمير هادئ جداً. لقد وقعت السعادة التي كنت أبحث عنها في الكتب، في شراكي مثل أرنب ثم استقرت في حضني. لماذا سأنصب الفخاخ إذاً هنا وهناك؟ يقول المسيح إن المذنب يصبح عبداً لذنوبه. ولقد أصبحتُ أرى سعادتي في ارتكاب الذنوب فأسلمت قيادي للشياطين وصرت عبد آثامي اللذيذة.

***

مضت السنوات على هذا المنوال. تعلمت خلالها العربية، تاجرت بالورق وسافرت إلى هنا هناك. قضيت كثيراً من الأوقات في النزهات ورحلات الصيد مع أصدقائي الإنجليز. أزجيت أمسياتي بلعب الورق والقمار مع أبناء الجاليات الأوروبية. شاركت في سباقات الخيل. اقتنيت كثيراً من الجواري وأغويت نساء كثيرات وصادقت

Twitter: @ketab_n

الولاة والقناصل وعلية القوم.

لازمتني حبة الكستناء أينما حللت. كنت أصادف الصرة التي خبأتها فيها أحياناً فأكاد أرميها بعيداً. لكن لا أدري أية قوة كانت تمنعني من ذلك! عرفت يقيناً ما الذي حصل لحبة الكستناء لكنني لم أكن على علم بما جرى لذاتي التي تعفنت من الداخل. كنت أنهار وأتهدم من الداخل من دون أن أشعر.كنت أذوب مثل دمية من الثلج تحت وهج الشمس.إن المرء لا يشعر بانهيار الذات لأنه لا يشبه الأمراض التي تصيب الإنسان في جسمه. لا يشبه مثلاً مرض زعفران باشا الذي يصفر له جلد المرء وعيناه ويراه كل الناس. وهو ليس أيضاً مثل الحمى تسبب حرارتُه احمرارَ وجه المرء وهو كذلك ليس جنوناً تظهر آثاره على اللسان.

كان ذاك انهياراً سبَّبَ اصفرارَ أوراق طهارة النفس فتساقطت. كان انهياراً صامتاً، مؤلماً يجتاح النفس ببطء. كنت أنهار وتتحول روحي إلى خرائب مهجورة.

وها أنذا الآن وحيدٌ على هذه الطريق بين حلب ودياربكر، أنهي تدويني لفصول حياتي التي قضيتها في حلب. لقد كتبت هذه الفصول في الخانات أحياناً وفي حجرات المساجد أحياناً أخرى وأحياناً على قارعة طريق أو حافة نبع أو تحت ظل شجرة. كتبت كثيراً من الوقائع المدونة في هذه الفصول على ضوء شموع اشتريتها من حلب قبل خروجي بيوم واحد.

Twitter: @ketab_n

إنني أكتب هذه الجمل الأخيرة في يوم خريفي بارد. قريباً سأصل إلى رفيقي آلبرتو دي سيلفا الذي دعاني إلى هذه البلاد، بلاد الكرد التي أسير في طرقاتها وأمضي على دروبها منذ شهور ميمماً وجهي صوب أحد الخانات حيث يقيم صديقي. إنها بلاد تبدو فيها الجبال مثل كباش تنطح السماء بقرونها. إنها بلاد الألف جبل.

***

Twitter: @ketab_n

الساعة الثالثة

رنَّ ناقوس الكنيسة ثلاث مرات[1]، لكن الرطوبة المحيطة بالكنيسة أثرت في صدى الرنات الثلاث التي قُرعت على عجل مشيرة إلى الساعة الثالثة، فخفضتها قليلاً.

ومع الرنة الثالثة التي كانت أقوى من سابقتيها، أنهى طالب اللاهوت المخطوطة الأولى. كان قد مضى عليه خمس ساعات وهو منكب على قراءتها منجذباً إليها غير قادر على تركها.

وما إن أنهاها حتى استراح قليلاً ووضع ريشة الإوز على المخطوطة الثانية ثم وضع الأولى خلف الوسادة التي كان يستند عليها من دون أن يفهم هو نفسه الغاية من تصرفه ذاك. أهو بذلك يعلن تملكه لها أم يخفيها عن عيني أحد؟

(1) بقي جورج ساعة كاملة في الصالة المعتمة يفكر صامتاً حتى جاء كارل ومسح على رأسه بحنان محاولاً أن يواسيه قائلاً له: «سأمنحك عشرة فلوس إضافية». لكنه أبعد يد كارل عنه. حاول كارل جاهداً متوسلاً أن يجعله ينظر إليه، يتفوه بكلمة ما ولكن جورج لم يأبه بتوسلاته. ذهبت محاولات كارل أمام دلال جورج أدراج الرياح. وحين أصبحت الساعة الثالثة بعد الظهر طلب منه أن يصعد للأعلى ويدق معه الناقوس. رفض جورج هذا الطلب أيضاً وخرج مغضباً من الكنيسة. غضب كارل أيضاً وذهب ليسحب حبل الناقوس فطارت الحمامات الغبيات التي حطت قبل قليل على حواف البرج في كل اتجاه.

Twitter: @ketab_n

أراد أن يبدأ بقراءة الثانية أيضاً لكن الظمأ ألح عليه فلم يقدر على مقاومته. اضطر أن ينزل إلى الحانة ويشرب كأس ماء. ذهل حين رأى الجالسين هناك كما كانوا. كل واحد في مكانه لم يغيره. لكن الجميع كانوا صامتين. حتى أن سرب الزرازير كان ما يزال على أغصان الأشجار تترقب ساكنة. كان غوستاف الذي لم يشبع من الثرثرة يغط الآن في النوم واضعاً رأسه على ساعديه المتكئين على وشاحه الأسود المتكوم فوق الطاولة. بقي الرسام ذو الوشاح الأحمر يحدق في ناقوس الكنيسة[1] وهو يمرر بضجرٍ فرشاتَه على القماش أمامه. أما عازف الكمان من موهاوزن فقد صار يعزف على إيقاع حركة يد الرسام الضجرة على القماش الأبيض. كان يعزف محدقاً إلى العجوز المشغولة بحياكة جوربي الصوف بجانب الموقد، وكأنه ينتظر منها صيحات الاستحسان.

استغرب طالب اللاهوت من مرور كل هذا الوقت من دون أن يتغير المشهد في الحانة! ساعات تمضي والعجوز على الحالة نفسها تحوك الجوارب. ترى أهي تحوك جوارب كثيرة؟ كذلك عازف الكمان، أكان يعزف ألحاناً جديدة أم يعيد المقطوعة ذاتها؟ وقارئ الرواية أيقرأ روايات جديدة أم يطالع الرواية عينها؟ وهل انتهى الرسام من لوحته التي انشغل بها وبدأ بأخرى غيرها أم لا؟ لم يهتم طال اللاهوت كثيراً

(1) لم يستطع الرسام اقتناص ذلك اللون العنيد، لون الصدأ الذي حيَّر رسامي العالم كلهم فلم يتمكن من رسمه. قال في نفسه: «اللعنة. لماذا لم يكن هذا الناقوس جديداً بدون صدأ؟» ثم تمتم بلعنات خفيضة وشتم القسسة والكنائس.

Twitter: @ketab_n

بحقيقة المشهد ولا اهتم بالإجابة على أسئلته تلك التي كانت كالنمل تدغدغ روحه. شرب كأس الماء بصمت وهدوء ثم عاد مثل لص على رؤوس أصابعه وارتقى الدرجات المصنوعة من خشب الجوز حتى وصل إلى غرفته من دون أن يشعر به أحد من الجالسين في الحانة.

انكب على المخطوطة الثانية التي كتبت على شكل رسائل وتبدأ بكتابة غريبة وصار يقرأ من جديد:

***

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم ﴾

من مارتين سيتزر إلى السيد هانس هايلبرغ المحترم،

تحية

صار لي قرابة تسع سنوات وأنا بعيد عن وطني. كنت أتذكرك في هذه السنوات عشرات المرات لكنني لست أدري لماذا لم يخطر على بالي أن أكتب رسالة إلى جنابك!

ومعلومٌ أن كثيراً من الرسائل تغرق في مياه البحر أو يتلفها القراصنة حين ينهبون السفن كما يضيع بعض الرسائل حين لا يهتم بها حاملوها

Twitter: @ketab_n

والمؤتمنون عليها كثيراً.

وها أنا الآن، وبعد أن خرجت من ذلك الخان العجيب سالماً لكن بروح معتصَرة ولسان عاجز وإرادة محتضِرة، أبدأ بكتابة رسائلي إليك. سأسلم هذه الرسائل بنفسي إليك يداً بيد، لذلك لن تجد فيها التحيات المعهودة في الرسائل، ولن تعثر فيها على سؤالي عن أحوال قريتي بل ستكون رسائلي هذه إجابات على أسئلة شغلت عقلي وروحي منذ أن وعيت على هذه الدنيا.

لقد تحدثت عن مرحلة من مراحل حياتي في مخطوط مستقل وحفظته في مكان أمين. حتى في ذلك الخان كنت أحرص عليه أشد الحرص خشية أن يضيع أو يرميها أحد ما للنار أو تقع في يد لص.

لن أرسل لك رسائلي هذه مع أحد يا هانس. سأوصلها لك بيدي. أخاف إن أنا التقيتك ألا أقدر على وصف ما لقيته في الشرق وما صادفته من أحداث. لأن لساني يثقل يوماً بعد يوم، يتخدر وأشعر بألم مجهول في قاعدته وحكة عجيبة أسفله. أنا في ريبة من لساني! وأشك في أنه، إن التقينا، سيكون قادراً على سرد الوقائع لك. لا أصدق أنني سأوصل هذه القطعة من اللحم سالمة معي إلى هيرنه[1].

---

(1) أنا في بايزيد. وهي مدينة كردية وصلنا أنا وآلبرتو إليها في يوم ذي مطر أسود. الآن أنا في بيت خطاط كردي شهم اسمه شيربار المامزيدي. لقد أوصلني هو وأخوه داود المامزيدي إلى هنا. حكايتي مع هذين الأخوين طويلة سأرويها فيما بعد. لقد تجولت بفضل داود الخبير في هذه المدينة وتعرفت على بائع الكتب صلاح الدين واشتريت من عنده لوازم الكتابة.

Twitter: @ketab_n

لقد دوَّنت، كما قلت، الأحداثَ التي مررت بها منذ خروجي من قريتي وحتى بلوغي العام الخامس في حلب، في دفتر خاص على شكل مخطوط بقلم أهدانيه معلمي الفتى عبد الله بن زكريا الصائغ. وحين حوصرنا أنا والآخرون في ذلك الخان وسُدَّت في وجهنا الأبواب، عكفت في الليالي الباردة الصامتة المخيفة التي قضيتها هناك على تصحيح ما دونته من وقائع حذفاً وإضافة. الحمد لله الذي حمى أوراقي تلك في ذلك الخان المليء بالأسرار.

هانس العزيز،

ينتابني الآن شعور بضرورة التحدث إليك ومناقشتك في الأفكار والآراء العديدة. لقد اشتقت إليك يا هانس، اشتقت إلى صوتك الحنون ونظراتك المفعمة بالأبوة. اشتقت إلى الجلوس معك حتى آخر الليل. اشتقت إلى هيرنه، إلى كنيستها وصوت ناقوسها، إلى أسراب الحمام التي تطير فوق السقوف القرميدية الحمراء، اشتقت إلى أدغال العليق وأشجار الكستناء والتفاح والبندق. اشتقت إلى شجيرات الزعرور وإلى الثلج والتراب والريح الباردة والغيوم والأرانب والسناجب وكل شيء في قريتي.

لم يعتورني في السابق شعور كهذا الشعور ولا أدري في أية زاوية من قلبي اختبأ كل هذا الحنين؟ لماذا لم يعلن الحنين عن وجوده؟ ترى لو لم أمر بتلك الأيام الحالكة في ذلك الخان أكنت سأشعر بالحنين إلى

Twitter: @ketab_n

وطني؟ أكنت أقرر العودة أم لا؟ إنها أسئلة تبحث لها عن إجابات. وأنا أبحث عن نفسي. أنا، حبة الكستناء التي سقطت من فرعها وخرجت من غلافها، أريد أن أعود إلى غلافي مرة أخرى. ترى هل سيقبلني غلافي أم لا؟ لا أدري، لا أدري. حبة الكستناء التي أعطيتني إياها يوم رحيلي عن هيرنه، بقيت معي حتى في تلك الأيام الصعبة. كنت أخرجها من صُرَّة الجلد من آنٍ لآن وأتأملها، ألمسها وأهزها عند أذني. ما تزال، حبة الكستناء اليتيمة الغريبة عن وطنها والبعيدة عن شجرتها، في جيب من جيوبي إلى الآن.

أمس، يوم السبت السابع من شهر يناير كانون الثاني من سنة ألف وسبعمئة وثمانية، والذي صادف يوم ميلاد المسيح حسب تقويم الكنيسة الأرثوذكسية لمسيحيي الشرق، وصلت عند الساعة الثالثة بعد الظهر في حالة يرثى لها إلى المدينة الكردية بايزيد وذلك بفضل كردي طيب من رجال الله اسمه داود يَزدانيار المامزيدي. وبايزيد هذه تقع في أقصى مملكة العثمانيين وعلى حدود روسيا والأرمن والقزلباش ويطل عليها من بعيد جبل شاهق مكلل بالثلج الأزلي على مدار العام. ويبلغ هذا الجبل علواً يشق به الغيوم بحيث أنك أنَّى كنت في تلك البرية الواسعة تشعر وكأن ذلك الجبل عفريت مخيف يتبعك.

كان أمس بالنسبة لي أيضاً يوم ولادة جديدة. لقد حضرت أمس مرة أرى إلى الدنيا بعد وقت عصيب قضيته في خان عجيب سأسرد

Twitter: @ketab_n

لك فصولاً منه في رسائلي القادمة بعد أن أنتهي من قصة إقامتي في حلب.

مارتين

بايزيد، الساعة الثالثة بعد الظهر. الأحد المقدس. الثامن من شهر كانون الثاني. 1708. [1]

***

هانس العزيز،

وعدتك في رسالتي القصيرة السابقة أنني سأكمل الأحداث التي عشتها في حلب ثم أعرج على ذكر ما جرى في ذلك الخان العجيب الذي ما زال الخوف منه يتسرب إلى قلبي. أما الآن فإنني سأدون لك حادثة مؤلمة جعلتني أواجه نفسي بنفسي وأكتشف حقيقتي.

حدث ذلك في حلب قبل أكثر من عام. شتاءٌ قاسٍ نصب خيامه الثلجية على المدينة وما حولها. ذات ليلة من ليالي كانون الأول، وكنت لوحدي في البيت أعد فلوسي التي كسبتها في ذلك اليوم من بيع أحمال من الورق وأضعها في قمقم، سمعت طرقاً على الباب فأسرعت لإخفاء القمقم ثم نهضت لأفتح الباب. حملت سراجاً في يدي اليسرى

(1) هذا حسب التقويم الغريغوري المعمول به في كثير من بلدان أوروبا. أعتقد أن دولة بروسيا والبروتستانت ما زالوا على التاريخ الجولياني الذي يصادف اليومُ الثامن والعشرين من كانون الأول عام 1707 حسب ذلك التقويم.

Twitter: @ketab_n

وفتحت بيمناي فلقة الباب. رأيت في ضوء السراج وجه كوثر. كانت هي كوثر نفسها التي كتبت عن قصتي معها في المخطوط الأول. جحظت عيناي. ما الذي تفعله كوثر على بابي في هذا الليل؟ من أين جاءت؟ كيف عرفت منزلي؟ ترادفت هذه الأسئلة في لمحة خاطفة مثل سطر في هذه الرسالة. وضعت كوثر نقطة في آخر السطر حين قالت: «مرحباً مارتين».

«أهذه أنت يا كوثر؟» سألتها. فردت: «لست أنا وحدي، بل أنا وابنك». «ابني!» سألتها مستغرباً. لم تقل شيئاً ولم تستأذن حتى في الدخول بل ولجت إلى داخل الدار مسرعة.

وكما الآن، فقد جفَّ حلقي حينذاك وثقل لساني حتى شعرت بأنه مشلول. لم أستطع الكلام. سرنا صامتين حتى الإيوان الذي أضاءته شمعات ثلاث تسكب نورها على سجادة من وبر الجمال مصنوع في بلخ كان آلبرتو قد أتى بها ذات مرة من أصفهان. تسلق قليل من ضوء تلك الشمعات جدران الإيوان أيضاً. لاحظت أن كوثر جلست بتثاقل ثم اتكأت على وسادة مسنودة إلى الجدار. رسم ضوء السراج الذي كان ما يزال في يدي ظلاً كبيراً لبطن كوثر. كان بطنها كبيراً بالفعل. كانت كوثر حاملاً. كوثر التي فقدت أثرها لا أدري من كم سنة عادت إلي وهي حامل يا هانس!

آه يا هانس. إلى أي يباب وجهتني؟ إلى أي خراب توجهت أنا؟ في دروب البحث عن السعادة وقعت في مستنقع البؤس والآثام. في

Twitter: @ketab_n

طريق البحث عن السعادة وقعت في ورطة قذرة لروح ملوثة بالت عليها الشياطين. لم أبتعد عن وطني فحسب، ابتعدت عن ذاتي أيضاً ولم أعد أعرفها. أكان ذلك ذنبي أم ذنبك؟ أم أن الأمر كما يقول المسلمون كان قدراً مكتوباً على جبيني! لا أحد جاء لينقذني. لا إله مدَّ يده ليخرجني من تلك الحفرة الملوثة التي حسبتها مليئة بالعسل لا أريد الخروج منها.

ذلك المساء، حين رأيت كوثر في بيتي ولم يعد بإمكاني الهروب منها، استجمعت كل شجاعتي وقلت بثقة بالغة: «تعرفين يا كوثر أننا لم نلتق منذ سنوات. فكيف تدعين أن ما في بطنك هو ولدي؟»

وفي ضوء السراج الذي كان ما يزال في يدي رأيت عينيها اللتين كانتا في السابق مروجاً لراحة النفس، رأيتهما مغرورقتين بالدموع التي ما لبثت أن انحدرت على وجهها المبقع بسبب الحمل وقالت: «استر عليَّ يا مارتين» ثم تعالى نشيج بكائها وبدأت تسرد حكايتها على هذا النحو:

«أنا في الشهر الثامن من الحمل. والجنين الذي في بطني ثمرة ليلة منحوسة ونتاج علاقة مشؤومة. كانت تلك الليلة قدراً أسود. قبل وفاة أمي بثلاثة أشهر جاء بيترو البندقي مرة أخرى إلى حلب. كنت أعرفه قبل أن أتعرف عليك. وحين فقدتك بحثت عمن أداوي به روحي الجريحة. نمت معه. منحته نفسي. كنت أحبه يا مارتين. وقبل أن أتعرف عليك، كنت عشيقته لأشهر طويلة. وعدني أن يأخذني

Twitter: @ketab_n

معه إلى البندقية. كان رجلاً طيباً لم أعهده يكذب. حدثني عن مدينته والقنوات الكثيرة والجسور والقصور فيها. حدثني أيضاً عن مراكب الجندول التي تجوب شوارع البندقية المائية وتنشر البهجة.

قال لي بيترو سآخذك إلى هناك. هيأت نفسي لأسافر معه وأهرب إلى بلاده. لكنه قال إنه سيمضي في سفرة قريبة وسيعود سريعاً. وذهب. شعرت بإنسان يتخلّق في بطني. انقطعتُ عن الحيض. داهمتني نوبات الغثيان. لم أعرف ما الذي ينبغي عليَّ عمله. أحببت أن أخبر أمي بما جرى لي. لكن ماذا كان بإمكان تلك الأم المسكينة العمياء طريحة الفراش أن تفعل؟ مضى وقت ثم ماتت أمي. لم أعد أسمع أي خبر عن بيترو. أردت أن أخفي الأمر. لكن، وكما نقول نحن الكُرد، تحبل البقرة سراً وتلد جهراً. كان بطني ينتفخ يوماً بعد يوم. كنت ما أزال آمل بعودة بيترو في يوم ما فيأخذني معه. بيترو لم يكذب عليَّ قط. ثم جاء ذلك النبأ المشؤوم ليعلن أن بيترو مات غرقاً. هبت عاصفة بحرية قبالة شاطئ قبرص فأغرقت سفينة على متنها ثلاثمئة راكب بينهم بيترو. غرق الركاب جميعاً وغرقت آمالي معهم. لم أصدق في البداية فالمرء لا يريد تصديق أنباء لا تسره. لكن الخبر كان صحيحاً وجارحاً كحد السكين. تحدث الناس عن سفينة قادمة من البندقية غرقت في البحر، لكن لم يعلم أحد بما حل بي من مصيبة. ألم تسمع بهذه القصة؟[1] لا

(1) بالطبع سمعت تلك القصة. حادثة كتلك تصل إلى جنوة والبندقية ومرسيلية ولندن وأمستردام وبغداد وإزمير وكل الدنيا. انتشر الخبر كالنار في الهشيم في خانات حلب. قال لي آلبرتو دي سيلفا إن المئات قد قضوا نحبهم غرقاً. ذكر لي أن بيترو أيضاً من =

Twitter: @ketab_n

شك أنك سمعت بها. انتظرت شهراً آخر. قلت ربما تحدث معجزة ويأتي نبأ نجاة بيترو. لكن الوقت مرَّ وتضاءل أملي. وبقدر ما كان أملي يتضاءل كان بطني يكبر حتى لم يعد من الممكن إخفاء حملي. لم أعد أستطيع الخروج من المنزل وصرت أبعث أطفال الحي لشراء الطعام. مرات عديدة أحببت أن أتوجه إليك لكنني لم أجرؤ على ذلك. لا يوجد رجل عاقل في الدنيا يقبل أن يصبح أباً لابن زنا. لكن هل توجد امرأة عاقلة تقتل ابنها، حتى لو كان ابن حرام؟

أحياناً كنت أتوجه في العتمة إلى ضفة نهر قويق لأرمي بنفسي في النهر فأموت ويموت معي هذا الجنين البريء ونصبح في عهدة الأمواج. أحياناً أخرى كنت أفكر أن أشنق نفسي بحبل تحت شجرة من أشجار الحور النامية هناك لكنني لست أدري أية قوة كانت تمنعني من ذلك؟

كنت أشعر بضرورة أن يعيش هذا الطفل وأنه ليس من حقي أن أجهضه. إنه ابن رجل أحببته. ومع ذلك حاولت أن أسقطه عدة مرات فباءت محاولاتي بالفشل. لم أكن أعرف العقاقير التي تسقط الأجنة ولا كان الجنين يترك رحمي.

والآن وقد توجهت إليك في هذا الليل فقد قصدت قلبك الكبير. أقبل يديك وقدميك يا مارتين. اتخذني جارية لك، عبدة أو كما تشاء

= ضمن الغرقى. وقد كان البطريرك الأرثوذكسي قد عاد من قبرص في ذلك الوقت ومعه قائمة بأسماء الغرقى والمفقودين وزعها على القنصليات والخانات. لم أهتم وقتها بالأمر. كنت مشغولاً بتجارتي وملذاتي، براحيل اليهودية وخديجة الحلبية وحواء الشركسية.

Twitter: @ketab_n

بشرط أن تحميني وتحمي هذا الطفل. أناشدك بأم المسيح عيسى يا مارتين. أناشدك بطهارة روحها».

لم أعرف في الحقيقة بم أجيبها! الصمت لا ينفع واللامبالاة لا تجوز. لقد قصدتني وهي في محنة. قلت لها: «لا أعرف ماذا أقول يا كوثر! لقد ظهرتِ فجأة مصحوبة بمشكلة عويصة. دعيني أفكر قليلاً. أعطيني فرصة لبضعة أيام فلا بد من حل».

وغرق كلانا في الصمت.

كيف سأخرج من هذه الدوامة؟ فكرت ملياً باحثاً عن جواب. بقيت كوثرُ في منزلي وحِرْتُ في أمري. كنت خائفاً أن تضع مولودها في بيتي. ما الذي سأقوله للناس حينذاك؟ لو وشى بي أحدهم وضبطوها في بيتي؟ ربما أحرقونا نحن الاثنين. كانت تريد مني أن أذهب للقابلات وأجلب لها عقاقير الإجهاض. لكن الوقت كان قد فات على ذلك فإسقاط الجنين في شهره الثامن هو قتل محتم لأمه أيضاً. خشيت أن يُفتضح أمري فأجلب العار لشهرتي التي بنيتها لسنوات مديدة. ولو وصل الأمر إلى والي حلب وعلمت الحكومة بالأمر لكان في ذلك هلاكي. وستكون فضيحة مجلجلة لي إن تسرب الخبر إلى الجاليات الأوروبية. أما السكان فإنهم لو علموا بعلاقتي بكوثر سيرجمونني بالحجارة ويمزقون جسد كوثر بالخناجر حتى قبل أن تشرح لهم الأمر. وجدت أن فكرة الإجهاض والتخلص من الجنين بقوة العقاقير أسلم الطرق وربما كان طريقاً وحيداً للخلاص.

Twitter: @ketab_n

جلبت بضعة كتب عن الطب وقرأت فيها أن خليط السمسم والكافور والبابونج جيد لطرح الأجنة، لكنني لم أتجاسر على فعل ذلك. خفت أن تموت كوثر أيضاً ويصبح دم امرأة في عنقي. كنت أستسيغ ارتكاب كل الموبقات إلا قتل الإنسان. لم أتصور موت كوثر البريئة وعشيقتي لفترة من الزمن الهني. في تلك الحيرة، في تلك الورطة العميقة طلبت مني كوثر أن أتزوجها! كانت كالمجانين. قالت لي إنها ستعتنق المسيحية فقلت لها هكذا تصبحين مرتدة وتستحقين القتل بسيف الشرع وأدخل أنا في محنة كبيرة. فعرضت عليَّ أن نهرب إلى بلاد بعيدة. كانت تأتي بكلام من الشرق وآخر من الغرب. في الحقيقة كانت قد ظهرت عليها أعراض الماليخوليا وبت أخاف منها.

***

كان الخطاط الكردي ياووز في حلب حينذاك فلاحظ حيرتي وأصر أن يعرف سببها لكنني لم أشأ أن أفشي له سري فوراً. تلاقينا عدة مرات عند بوابة القلعة ومرات أخرى بالقرب من بوابة خان الوزير الذي كان يقيم فيه. وفي كل مرة كان يلح عليَّ بالسؤال عن سبب كوني ساهماً واجماً مصفر الوجه. أخيراً، وقبل أن يعود إلى بلاده بيوم واحد، أردت أن أبث له سبب ما يشغلني خاصة أنه ليس من أبناء المدينة.

Twitter: @ketab_n

كان ياووزعائداً من سوق الحرير وكنت قد خرجت لتوي من البيت متوجهاً إلى يعقوب الصراف بأمل أن أعثر لكوثر على حل كما وعدتها. ما إن لمحني ياووز حتى قال من دون أن يلقي عليَّ التحية: «إما أنك مريض بالسل أو أنك تعاني من ألم باطني. لا يمكنك أن تخفي عني. أهل السوق كلهم يتحدثون عنك قائلين إن الكوسج مارتين لم يعد يهتم بعمله ولا شك أن أمراً ذا بال شغل تفكيره. قل لي يا مارتين مشكلتك فربما وجدت لها حلاً».

عندها رويت له قصتي مع كوثر من بدايتها حتى النهاية. لمعت عيناه لمعاناً لم أفهمه وقال وهو يضحك ضحكة خفيفة زادت من عوج فمه:

- إن كانت هذه مشكلتك فما أسهلها يا خواجه مارتين.

- ما الحل؟

- اترك ذلك عليَّ.

- قل لي ماذا ستفعل؟

- سأتزوجها؟

- كيف؟

- سأتزوجها وآخذها معي إلى بلادي.

- صحيح؟

- أنت لا تصدق أم لا تريد؟

في الحقيقة لم أكن أصدق ذلك ولا كنت أريده. لكن في وسط

Twitter: @ketab_n

تلك الأمواج من الحيرة وذلك المستنقع الذي رأيت نفسي غاطساً فيه فجأة، امتدت إليَّ يدٌ لتنجيني. كيف إذاً سأرد تلك اليد؟ أليس حرياً بي أن أسلم قيادي لها؟ ومع ذلك فقد أردت معرفة الحل الذي يقترحه فسألته: «حسن جداً ولكن كيف؟» فأجاب وهو يلقي في فمه قطعة من الإقط: «هذا شأني. لقد وجدت حلولاً لمشكلات كثيرة. لا تهتم كثيراً. أهذا ما كنت تخفيه؟». ثم مشينا قليلاً من دون أن نتكلم إلى أن طرح ياووز سؤالاً آخر:

- ألا تقول لي أين تسكن تلك الفتاة الآن؟

- هي عندي في البيت.

- سأجتمع بها وأتكلم معها. ممكن؟

- نعم. نعم ممكن.

أجبت وأنا أهز برأسي علامة الموافقة ثم أكملنا سيرنا حتى وجدنا أنفسنا على باب يعقوب الصراف.

لم نبق كثيراً في السوق بل عدنا في ساعتنا إلى البيت وأفسحت المجال ليلتقي الكرديان، أعني ياووز وكوثر، عندي.

بقي الاثنان يتحدثان لبرهة قصيرة. كانا كرديين يفهم أحدهما لغةَ الآخر لكنني لم أفهم أي حديث دار بينهما ولا لماذا كانا يتكلمان بصوت خفيض جداً! وسرعان ما لاحظت علامات الانشراح على ملامح كوثر. لم تعد تصدق متى تخرج من بيتي ولا أنا كنت أصدق ما تراه عيناي! وكم أصابني الذهول حين خرج الاثنان ونسيت كوثر أن

Twitter: @ketab_n

تودعني. أي سحر مارسه ياووز وماذا قال لها حتى انشرحت كل ذلك الانشراح؟ لم يكن يهمني كثيراً ما الذي جرى بينهما، لكن المهم بالنسبة لي كان ما نتج عن لقائهما. لم أصدق سمعي ولا بصري. لقد أرسل الله لي من لدنه ياووز الطيب الحنون. أهذا حلم أم حقيقة؟ تنفست الصعداء أخيراً وكأن حجراً ثقيلاً انزاح عن صدري. تلك الليلة نمت نوماً هانئاً من دون أرق أو كوابيس.

مارتين

بايزيد، الساعة الثالثة بعد الظهر. يوم الاثنين الموافق للعاشر من كانون الثاني. 1708

***

هانس العزيز،

ما افتتحت به رسائلي إليك، ولا شك أنه لفت نظرك وأثار لديك الرغبة في الاستفسار عنها ولن تستطيع قراءته، ليس سوى جملة بالأحرف العربية. إنها البسملة[1].

ستسألني ما لك ولهذه البسملة؟ أنت لا تعرف أنني اعتنقت

(1) لا يفعل المسلمون شيئاً إلا إذا قدموا له بالبسملة هذه. إنها مفتاح كل باب لديهم. فمن الجماع إلى الذهاب إلى مكان ما وفتح باب الدكان وحتى حمل طفل أو ختانه أو تدوين كتاب أو رسالة أو ابتداء حرب ضروس. كل شيء يجب أن يبدأ باسم الله.

Twitter: @ketab_n

الإسلام ذات مرة يا هانس! نعم لقد دخلت الإسلام قبل عدة أشهر بعد أن انتهيت من مشكلة كوثر.

كان الوقت ربيعاً فتفتحت أزهار أشجار المشمش والكرز والإجاص واللوز والخوخ النامية حول ضفتي نهر قويق فملأت الأجواء بشذى طيب. ارتفعت أشجار الحور السامقة أيضاً هناك بقاماتها الفضية وأرديتها السندسية وهي تشرئب بأعناقها صوب الغيوم البيضاء. أما زهور الزيزفون البيضاء الشبيهة بعناقيد من نجوم فقد أسكرت الأرض والسماء بعبيرها الزكي. وفي أزقة حلب فاحت من كل جدار ومشربية عبقٌ بهيج من الورود الجورية والياسمين والقرنفل. كانت رائحة الجنة تلك تفوح من كل مكان، أما أنا فقد صارت تفوح مني أنتن الروائح. نعم رائحة نتنة صارت تفوح مني وكأن في داخلي جيفة. كانت تلك رائحة أعمالي القبيحة يا هانس. رائحة السرقة والكذب والحيل والنصب وأكل الحرام والزنا. كانت روحي قد تعفنت واهترأت جذوري وأصابني النخر في الأعماق. ما كان أحد ليتحمل رائحتي النتة تلك، لذلك لجأت سريعاً إلى العطارين وبائعي الصابون والأطباء والصيادلة وبحثت عن علاج لهذه الآفة.

نصحني بعضهم باستعمال ملح وادي النطرون المصري ففعلت وصرت أستحم ثلاث مرات يومياً بذلك الملح النادر الثمين وصرت أذهب في الأسبوع مرتين إلى حمام يلبغا. كنت أبدأ رحلتي في البحث عن العلاج من رأس القلعة حتى باب أنطاكية وباب قنسرين وصولاً

Twitter: @ketab_n

إلى باب المقام. بحثت عن العلاج لدى التجار القادمين من بلاد العجم والهند والصين أيضاً. لم أترك علاجاً لم أستعمله وأدهن به جسدي سواء كان ملحاً أو عشباً أو معجوناً. لكن ما إن كان يمضي ربع ساعة حتى تعود رائحة تلك الجيفة القابعة داخلي لتفوح مرة أخرى. كان هناك طبيب يهودي في قرية تادف شرقي حلب قيل إنه يعالج الأسقام كلها قصدته أيضاً فوصف لي نبات المريمية الذي يشبه الحبق ونصحني أن أغليه وأشرب ماءه ثم أدهن جسدي بما يتبقى منه بعد الغلي. عملت بنصيحته لكن أيضاً من دون جدوى.

وذات مرة قال لي أحدهم إن الخل نافع في هذه الحالة فجربته أيضاً فلم أنتفع. وقال بعضهم إن النشاء يفيد بينما أشار عليَّ بعضهم بماء الخيار والشَّبَه. أتاني بعض أصدقائي بصابون مرسيلية أيضاً. كنت أعمل بنصائح الجميع وقد لاحظت أنهم كلهم يركزون على نظافة البدن والجلد النتن أي غلافي الخارجي من دون أن يقول لي أحدهم إن عليَّ أن أطهِّر قلبي من صدأ الذنوب بنار التوبة.

لم أكن أريد مجالسة أحد بسبب ذلك الداء الوبيل. فقد لاحظت أن كل من أمُرُّ بجانبه يسد أنفه لذلك فقد بقيت رهين بيت آلبرتو دي سيلفا ولم أعد أخرج إلا إذا اضطررت لذلك.

وكأن مرضي ذاك لم يكن كافياً حتى جاء ذانك التاجران، اللذان ظننت أنني قد طردتهما من السوق إلى الأبد، وأغرقا أسواق حلب بأحمال من الورق السمرقندي والبغدادي والمصري. ولم يكتفيا بذلك

Twitter: @ketab_n

بل استصدرا فتوى من عند المفتي تقضي بحرمة الورق الإفرنجي ووزعوا نسخاً منها في شوارع المدينة وأزقتها. كان نص الفتوى يقول: «كل مسلم يكتب بالأحرف العربية على ورق قادم من بلاد الفرنجة يرتكب خطيئة. أما إذا أصر على ذلك فإنه يكفر».

هذه الفتوى المختصرة كانت كافية لتذهب بتجارتي المزدهرة. امتنع الزبائن عن شراء بضاعتي من الورق الذي تعفنت أكداسه في المستودعات كما امتنع المدينون عن سداد ديونهم وما عاد أصدقائي يسألون عني. لقد حلت عليَّ لعنة ما يا هانس، بل حوصرت باللعنات من الداخل والخارج. بحثت عن حل ينقذ على الأقل تجارتي ويعيدها إلى سابق عهدها. وفجأة لمعت في نهاية ذلك الطريق المظلم الطويل وتلك الدوامة بصيصٌ من النور.

حدث ذلك ذات أمسية من أمسيات أيار الماضي. توجهت إلى قصر والي حلب الذي تحيط به الآلاف من الزنابق البهية بألوان عديدة بدت تحت أنوار القصر كأنها بقعة من الفردوس[1].

حاول الحُجَّاب الألبان منعي من الدخول لكنني سرعان ما منحت كبيرَهم بضع آقجات فضية ليسمحوا لي بالذهاب إلى الوالي. تعلمت في حلب خلال تلك السنوات أن الرشوة مفتاح كل باب مهما كان.

---

(1) تلك الزنابق الأخاذة القادمة من تبريز وشيراز وأصفهان من بلاد العجم وكذلك القادمة من بلاد الهند إلى بلاد العثمانيين، كانت تُحمل إلى أوروبا لتزين محيط قصور الملوك والأمراء والكونتات. ولقد أصبحت تلك الزنابق مواضيع أثيرة لدى رسامي بلاد العثمانيين فنقشوها في لوحاتهم المهداة للسلاطين، وأضحت مزروعة في كل مكان.

Twitter: @ketab_n

عرفت من خبرتي هنا أن المال مثل عبارة افتح يا سمسم في قصص ألف ليلة وليلة يستطيع إزاحة الصخور الثقيلة عن باب كهف علي بابا ويجعل حتى لعاب الصدر الأعظم يسيل طمعاً.

ما إن قبض كبير الحجاب على دراهمه حتى غاب قليلاً ثم عاد وهو يقول: «تفضل يا خواجه مارتين، جناب والينا عالي القدر في انتظارك».

كنت قد عطرت جسدي بنافجة مسك كاملة من مسك إقليم الخوتان في الصين، اشتريتها من تاجر تبريزي، وذلك خوفاً من أن تفوح مني تلك الرائحة وأنا في قصر الوالي فيفتضح أمري.

الوالي الذي لم تكد تمض سنة على تعيينه في حلب وكنت قد أغرقته بالهدايا حتى صار ينهض لاستقبالي كلما رآني ويجلسني بجانبه، لم يهتم لقدومي في تلك الليلة أبداً ولم يعرني أي التفات لكنه أشار بيده إلى مكان في الديوان أن أجلس هناك.

كان المجلس منعقداً وانشغل البخورجي بإشعال أعواد البخور الشذية في المنقل ثم وضعها على المباخر. أما شمعدان باشي فقد انخرط في توزيع الشموع على الزوايا والأطراف فيما كان معجون آغاسي يوزع الماء البارد والجُلّاب في أقداح الزجاج على الحاضرين. كانت تلك حفلة سمر تختصر الشرق العثماني كله بحق.

ألقيت التحية بصوت خفيض ثم جلست وجلاً مترقباً، حيث أشار الوالي، تحت لوحة تمثل مشهد صيد يعج بالغزلان المرعوبة الهاربة من فرسان يلاحقونها بالقوس والنشاب على مرج مليء بالزهور.

Twitter: @ketab_n

أضاء جنباتِ الإيوان ووجوهَ الحاضرين والتحفَ الكثيرة نورٌ ملكي تدفق من شموع غليظة وقناديل كبيرة. استغللت صمت الحاضرين لحظة دخولي واستجمعت كل شجاعتي فنهضت واقفاً وقلت بصوت مرتفع أقرب إلى الصراخ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله»[1].

كانت تلك الجملة سيفاً قطعتُ به هامةَ صمت المجلس في ذلك الليل البهيم فارتفعت التكبيرات ونهض كل من الزَّهوان آغاسي والدواتدار وصاروا يدورون حول أنفسهم في رقص مجنون. ضج المجلس كله. أما الوالي، الذي قال لأحد غلمانه ما إن استقر بي المجلس وكأنه لا يعرفني: «اسقِ هذا الكوسج كأس ماء» فقد أصيب بدوره بالذهول ونهض ليكبر مع المفتي وشيخ الإسلام والقاضي وبقية الحاضرين.

***

كنت في تلك الليلة كمن تناول مخدر الحشيش، ذاهلاً غائباً عن الوعي. أمر الوالي أن يأخذوني إلى حمام يلبغا فرافقني إليه شيخ الإسلام حيث دخلنا الحمام وذهبنا لنجلس بجانب جرن حجري يعلو

(1) ما إن ينطق المرء هذه الجملة حتى يصبح مسلماً. هذا هو المفتاح الذهبي لاعتناق الإسلام والذي استخدمته لفتح الأبواب الموصدة في وجهي.

Twitter: @ketab_n

ماءَه بخارٌ كثيف جعل الرؤيةَ عسيرة. سكب شيخ الإسلام الماء بيده على جسدي وصار يبسمل مع كل طاسة يريقها فوق رأسي ويقرأ آيات من القرآن. بعد نصف ساعة انتهيت من الاستحمام فألبسوني أثواباً بيضاء تحت عباءة حمراء من وبر الجمال ووضعوا عمامة عسلية اللون من الكشمير على رأسي ثم أعادوني بتلك الهيئة إلى قصر الوالي.

لا أدري كيف انتشر خبر اعتناقي الإسلام بتلك السرعة! ضجت المآذن بالتكبيرات كأنها صليل سيوف تمزق ظلام ذلك الليل الحلبي. حدث ذلك بأمر من الوالي حيث طلب من المؤذنين أن يصعدوا المآذن ليكبروا ويشعلوا القناديل وطلب من الدراويش أن يخرجوا إلى الأزقة ليضربوا على الدفوف وينشدوا الأناشيد الدينية.

ابتهج المسلمون ابتهاجاً عظيماً تلك الليلة، أما أنا فكنت ذاهلاً مشدوهاً كأنني أعيش حلماً طويلاً. لا أدري أكنت سعيداً أم لا! غالبتني موجة من البكاء وأردت لو كان بإمكاني أن أذهب إلى جدار الأيقونات في كنيسة الأرثوذكس لأجلس وأغسل المذبح بدموعي. كنت في حيرة من أمري وعذاب أليم. كنت كمن طعن قلبه بسكين حادة ثم ندم في منتصف الطريق. انغرزت السكين عميقاً ولم يعد ينفع سحبه أو إبقاؤه.

في تلك الليلة، أعد الوالي وشيخ الإسلام والقاضي ورقة إسلامي. غيروا اسمي ووضعوا أختامَهم أسفلَ الوثيقة ثم قرأ جميعُ من في ذلك المجلس الكبير الفاتحة، وهي أول سورة في القرآن، بنية التوفيق. أخيراً

Twitter: @ketab_n

سلموني ثياباً إسلامية ثم قام المفتي خطيباً فقال: «مراد الدين. هذا هو اسمك الجديد ومعناه غاية الدين. أتعرف ما هي غاية الدين يا مراد الدين أفندي؟ إنها السعادة. سعادة الإنسان هي هدف دين الإسلام. وإن الإنسان لَيصبح سعيداً باعتناق هذا الدين فلا سبيل إلى السعادة سواه، سواء في الدنيا أو في الآخرة. ففي هذه الدنيا حياة نقية، صافية وسعيدة. أما في الآخرة فخلود مع الأنبياء والصالحين والأولياء في جنة لا يزول نعيمها. جنة مليئة بالحور والغلمان وأنهار العسل واللبن والخمر. إن كنت ذا نية سليمة فلقد حُزت على السعادة الآن. إنهم يعدون قصراً لك في الجنة. لقد فزت بالدين والدنيا».

تلا هذه الخطبةَ القصيرة خطبةٌ أقصر منها ألقاها القاضي فقال: «الإسلام هو الحقيقة. فلا تبحث عن حقيقة أخرى خارج هذا الدين الحنيف. والله تعالى بذاته يقول في كتابه عظيم الشأن إن الدين عند الله الإسلام. كذلك يقول ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه».

استبدت بي رغبة قوية في النوم يا هانس. موضوع الحقيقة والسعادة الذي شغلني لسنوات عدة والذي خاضوا فيه تلك الليلة ما عاد يهمني. كنت قد وصلت إلى قناعة مفادها أن السعادة مجرد حلم وسراب.

خسرت روحي في طريق البحث عن السعادة. فقدت طهارة أعماقي وسقطت في مستنقع الأعمال الشريرة فتعفنت روحي. فاحت رائحتي الكريهة وما عاد أي دواء ينفع لعلاجي. لقد تعفنت أكثر من

Twitter: @ketab_n

حبة الكستناء التي ذهبتْ بعيداً عن شجرتها. لقد سلكت مختلف السبل بحثاً عن السعادة لكن ظهر أنها سعادة مزيفة.

لم أصبح سعيداً باعتناقي الإسلام. بالعكس فقد ازدادت آلامي الباطنية وازدادت حيرتي وازداد انهيار روحي . كان هدفي هو إنقاذ تجارتي لكن من دون جدوى لأن الفتوى فعلت فعلها وصار يجب عليَّ تغيير الورق، الذي يتم صقله بدهن الخنزير حسب ادعاء منافسيَّ، وليس فقط تغيير الدين.

***

اضطرب الناس واهتزت حلب كلها لخبر إسلامي. المسلمون اعتبروا ذلك دليلاً على صحة دينهم أما المسيحيون فاعتبروه فتنة قام بها شيخ الإسلام ورفاقه. صار الرهبان والمبشرون والقسسة وكل مؤمن مسيحي يشيح بوجهه عني. كذلك فعل القناصل وتراجمتهم وتجار بالرمو ونابولي والبندقية وأمستردام وليون ومرسيلية وحتى تجار كريت وقبرص. حتى البطريرك الطيب الذي كان يهش كلما يراني ويعتبرني صاحب فضل عميم بسبب اقتراحي جلب مطبعة إلى حلب، صار يرغب عن لقائي ويتحاشاني.

أية مشكلة أوقعت نفسي فيها! ما هذا الطريق الذي سلكته؟ العودة عنه بقطع رأسي والاستمرار في السير عليه لا يلائم عقائدي.

Twitter: @ketab_n

أي امتحان عسير هذا يا رب؟

وذات مساء تناهبتني فيه مثل هذه الأفكار سمعت طرقاً على الباب وحين فتحته رأيت عبد الله وحنانيا المصور.

دخلا بهدوء وجلسا وسرعان ما توجه حنانيا إليَّ وقال من دون مقدمات: «ماذا اقترفت يا مارتين؟ ألأجل قليل من متاع الدنيا بعت المسيح؟ هل أصبحت يهوذا الإسخريوطي وبعت ربك بقبلة؟ أهجرت نور المسيح لتتفيأ ظلال الخطيئة؟» تلاه عبد الله الزاخر الذي كان يكن لي احتراماً كبيراً فقال: «مهما يكن فإن يهوذا قد ندم على فعلته وأعاد الثلاثة والثلاثين درهماً لأصحابها فهل ندمت يا مارتين أفندي؟ أتعرف أنك بفعلتك هذه ألحقت بالغ الأذى بالمجتمع المسيحي؟ أتعرف يا مارتين لو بدَّل كل امرئٍ عرضتْ له ضائقةٌ تجاريةٌ دينَه لما بقي أحد على دينه؟ كان الأجدر أن تخبرني، أن تخبر أبانا البطريرك، أن تخبر صديقك القنصل الإنجليزي أو أن تبعث برسالة إلى آلبرتو دي سيلفا في بلاد العجم طالباً مساعدته. حتى السكران لا يفعل ما فعلته. هل تعرف أن طريق العودة عن الإسلام مسدودٌ في وجهك؟ لو عدت عن الإسلام فإنهم سيقطعون رأسك بسيف الشريعة كما فعلوا مع داود الرومي عند بوابة قلعة حلب [1]. أتظن أن تغيير الدين مثل بيع بضع رزم من الورق؟ هل الدين قبعة حتى تغيرها متى شئت. أهو

(1) داود الرومي مسيحي من حلب قيل إنه اعتنق الإسلام في عهد والي حلب الكردي محمد باشا الخاصكي قبل حوالي نصف قرن من الزمان لكنه ارتد بعد ذلك فاستتيب فلم يتب فحوكم وقطعت رأسه ذات نهار من شهر تموز عند باب القلعة في حلب.

Twitter: @ketab_n

طعام حتى تعافه بحجة أنه لا يعجبك؟».

بدا أن حنانيا المصور لم يشبع من الحديث فاعتدل في جلسته وقال: «من كان مؤمناً بالمسيح فعليه ألا يخاف ويجبن. يمكنك أن ترتد عن الإسلام وتصبح مثال المسيحي الحقيقي. لقد صلبوا المسيح ووضعوا إكليل الشوك على رأسه. لقد ضحى بجسده ليخلصنا نحن الخطاة. أنت أيضاً، ولأجل سلام الملة المسيحية في حلب، تستطيع الثبات أمام قطع رأسك. ستصبح شهيداً وسيكون مكانك مع المسيح وشهداء ديننا المقدس».

أراد عبد الله أن يؤجج نيران الندم، كان يعرف كم أنا مهووس بالكتب والورق والحروف، فقال وهو يبتسم ابتسامة لطيفة: «لا يا مارتين لا. لا تخف. لن يقتلوك لأنك من الرعايا الفرنجة وتحميك الراية الإنجليزية. لن يمسك أحد بأذى. أقصى عقوبة يمكن أن تتعرض لها هي نفيك إلى أماكن بعيدة أو طردك من أراضي الدولة العثمانية. لا تهتم بهذا الأمر. على كل حال فإننا مقبلون على طباعة الزبور وقد أنهينا نصفه، صففنا آيات ذلك الكتاب حرفاً حرفاً فتعال إلى الكنيسة وساعدنا. تعال فإن حضن المسيح مفتوح لكل الخطائين وباب الندم لا يُغلق أبداً. تعال فالراعي يحب خروفه الضال حين يعود للقطيع. تعال لترتمي في حضن الحقيقة وتستلقي تحت خيمة السعادة. تعال وكن ذلك الولد الهارب العائد إلى كنف الوالدين».

لفَّ لساني ألمٌ كالذي ينغل أسفله الآن. علمت أن فعلتي ستضر

Twitter: @ketab_n

الملة المسيحية في حلب لكنني وجدت أن الأفضل لي ومن مصلحتي أن أعتنق الإسلام. كانت تجارتي الموشكة على الإفلاس قد أصبحت أهم من عقيدتي. رجحتْ كفةُ نفسي على كفة الملة المسيحية كلها.

تلك الليلة تجادلنا طويلاً حتى عجز الاثنان عن إقناعي ونالهما اليأس. عند الباب، حين أردت توديعهما، أمسك عبد الله بيدي وقال متوسلاً: «كرمى لتلك اللحظات التي كنت أعلمك العربية فيها أرجو ألا تخبر السلطات العثمانية بلقائنا هذا». طمأنتهما وقلت كما يقول الحلبية: «لا تخافا. هون حفرنا وهون طمرنا».

طالت رسالتي هذه يا هانس. ماذا أفعل؟ يبدو أن طريق العودة سيطول. لذلك سأرسل لك هذه الرسائل والمخطوطات. أما إذا عدت سريعاً فسأجلبها معي وأطبعها أو أسلمك إياها لتزجي الوقت بقراءتها ولن تحتاج إلى طرح الأسئلة عليَّ. إنني أخاف أن أعود فاقداً لساني. هناك وقائع لا أفصل فيها كثيراً بينما هناك وقائع أخرى أستفيض فيها مثل قصة اعتناقي للإسلام. وهل هذه القصة شربة ماء كي أمر عليها مرور الكرام!

مارتين.

بايزيد، الساعة الثالثة بعد الظهر. الخميس. 13 كانون الثاني. 1708

***

Twitter: @ketab_n

هانس العزيز،

في رسالتي السابقة حدثتك عن مرضي وكذلك حدثتك عن قصة إسلامي التي لم تنتهِ هناك. هنا سأكمل بقية الحكاية. كان الأسبوع الأول من اعتناقي الإسلام جحيماً أتقلب فيه وبرية شوك أسير فيها حافياً. ما كنت أشتهي طعاماً أو شراباً ولا عرفت عيناي طريقاً إلى النوم. وحين كنت أحظى بقليل من النوم كنت أرى المسيح يتهادى في ضباب أحمر اللون. تكرر هذا الحلم. كنت أمد يدي ولا أصل إليه وأراه يشيح بوجهه عني. صرت أستيقظ من نومي فزعاً وأجدني غارقاً في العرق.

أصبحت أذهب إلى المسجد في الأوقات الخمسة للصلاة مضطراً. تركت شرب الخمر فأصبت بصداع رهيب. شعرت باسمي الجديد مراد الدين مثل قيد على معصمي. كان ذلك الاسم طوق عبودية جديدة. وسرعان ما عادت إليَّ رائحة ذلك الشيطان النتن، رائحة العفونة المحيطة بروحي عادت أقوى مما كانت في السابق. غصت في بحيرة الخوف.

في الأسبوع الأول، حين كنت أحلم بالمسيح، لم أخرج من المسجد. علمني أحد الشيوخ الأكراد الوضوءَ والفاتحة وبعضَ السُّور القصيرة من القرآن. علمني حركات الصلاة وكيف يجب أن أقوم وأنهض وأركع وأسجد. كان شيئاً جديداً ولا أخفي أنه كان لذيذاً أيضاً. تعودت على ذلك لكن رائحتي النتنة ازدادت. كان الشيخ الكردي

Twitter: @ketab_n

يخجل أن يسد أنفه لكنه كان يردد دائماً: «عليك أن تغتسل من الجنابة، وتفرك يديك ورجليك جيداً وتتعطر بالمسك قبل كل صلاة». كان يظن أن جلدي هو الذي يصدر تلك الرائحة ولم يكن على علم بنتن روحي.

تعفنت أكداس الورق في مستودعاتي بالرغم من الصيف الحار الناشف. لا أدري من صب الماء عليها. زبائني المسيحيون في حلب انضموا إلى المسلمين وقاطعوني. تحولت السعادة في قبضتي إلى حفنة ماء انسربت من بين أصابعي.

من جديد عاد إليَّ هوس البحث عن كتاب الإفادة في إكسير السعادة، فتذكرت نور الدين الأعمى وصرت أبحث عنه في كل زاوية وشارع ومسجد من دون أن ألتقي به. قال رفاقه العميان إنه غاب منذ وقت طويل[1].

ولما نالني اليأس من العثور عليه اضطررت أن أذهب إلى عبد الله الزاخر سراً لكي نعيد البحث عن الكتاب. كان قد حدثني ذات مرة عن كتاب طبي رآه في مكتبة للمارونيين الكاثوليك وبحاشيته ذكر لكتاب الإفادة وأن نسخاً منه كانت موجودة في حلب قبل أن يحتلها تيمورلنك قادماً من عنتاب، وأن تلك النسخ عرفت طريقها إلى سمرقند وبخارى وطشقند ونيسابور في بلد العجم.

(1) حين قارنت تاريخ الشهر واليوم الذي غاب فيه نور الدين والذي سمعته من رفاقه، وجدت أنه يطابق الشهر واليوم الذي طردته فيه حين جاءني زائراً.

Twitter: @ketab_n

وجد عبد الله في زيارتي له فرصة ليدعوني إلى الارتداد عن الإسلام مرة أخرى. كان يرى، كما كانت الملة المسيحية كلها في حلب ترى، أن عودتي إلى الدين المسيحي انتصار لحقيقة المسيح بذاته. لم أرغب في ترك الإسلام والعودة إلى حضن الكنيسة كما دعاني عبد الله لذلك تركته وصرت أبحث عن طريق آخر للبحث عن كتاب السعادة. مرة أخرى باءت كل محاولاتي بالفشل.

فجأة وجدت نفسي وحيداً. الذين أعلنوا ابتهاجهم بإسلامي في البداية، أهملوني بعد ذلك. اتجهت للإفلاس التام. والمفلس، سواء كان مسلماً أو يهودياً لا صديق له. الناس يصادقون المال ويتغيرون بتغير الحال. لقد أصابتني لعنة، لعنة سوداء يا هانس.

خسرت حواء وخديجة وراحيل زوجة الصراف اليهودي يعقوب أيضاً. لم يبق حولي من النساء سواء العبدة السوداء غنيمة التي لم أستطع بالرغم من محاولاتي أن أقترب منها؟ تلك العبدة لها قصة عجيبة. كانت قد تعلمت فنون إمتاع الرجال في قصور الحريم لدى الولاة والأمراء. هل تصدق أنني أصبحت عنيناً أيضاً؟ كان يمكن لها أن تحيي الموتى إلا أنها فشلت في إثارتي وإعادة فحولتي لي[1].

(1) غنيمة من غربي بلاد يسميها العرب بلاد السودان. الأوروبيون الذين ذهبوا لصيد الزنوج هناك اصطادوها بالقرب من نهر تانو حسب ما روته هي لي بنفسها، وأرادوا أن يرسلوها لأمريكا لكن القراصنة البربر المسلمين استولوا على السفينة التي كانت تنقلهم فأفرغوها من العبيد وأخذوهم بسفينتهم إلى طنجة ومن هناك إلى إزمير حيث باعوهم إلى تاجر عبيد تركي. خلال إقامتي في حلب اشتريت تلك العبدة فقط بينما كان بعض التجار يشترون في السنة بضع إماء.

Twitter: @ketab_n

في النهاية لم يبق لديَّ إلا القليل من النقود. ذهبت عدة مرات ولعبت القمار مع البنادقة والإنجليز فخسرت في كل مرة. كنت أطمح إلى ربح بعض النقود لأعود إلى تجارتي.

بعت جوادي الأصيل رعد وحتى عبدتي الزنجية غنيمة لأسدد ببعض أثمانهما ديوني وأعيش بالباقي. بعتها بخمسة وعشرين فلوريناً إلى تاجر روسي قدم إلى حلب مع قافلة الهند ومعه بضاعة من حرير جيلان[1].

ولكن ما الذي كانت ستفعله لي تلك الفلورينات! أعطيتها كلها لأحد وكلائي كي يذهب بدلاً مني إلى دمشق ليأتيني ببضعة أحمال من القهوة. لكن المصائب حين تأتي فإنها تأتي دفعة واحدة. اعترضتْ عصابةٌ من قطاع الطرق بغارة ليلية القافلة التي كان وكيلي فيها وكنت عقدت عليها آمالاً كبيرة. قتل الوكيل في تلك الغارة أما النقود فإنك الآن تعرف ماذا حصل لها. اقترضت بعض المال من يعقوب الصراف ولما لم أستطع سداد القرض تراكمت الفوائد الربوية وما عاد في إمكاني أن أخرج من تحت ثقل الديون وفوائدها.

ذهب المال والجاه ولم ينفعني اعتناق الإسلام مثقال ذرة بل اعتبرتُه بلاءً حلَّ بي. ندمت كثيراً لكن من أين لي تلك الجرأة التي تجعلني أرجع لديني؟

(1) كان التجار الروس والأرمن يأتون بذلك الحرير الأبيض المائل إلى الصفرة من جيلان في بلاد فارس إلى حلب ويبادلونه بأجواخ القرزي الثمينة التي احتكر البنادقة تجارتها.

Twitter: @ketab_n

ثم أرادوا أن يختنوني يا هانس!

كان ذلك ما لم أحسب حسابه وبات يخيفني. أرادوا أن يختنوني بعد أسبوع من دخولي الإسلام لكنني تحاشيت الموضوع كل مرة بحجة معينة. لكن في النهاية قرر شيخ الإسلام، ولكي أكون مسلماً حقاً ويكتمل ديني، أن يتم ختاني مهما كان.

قطعت كل أمل في النجاة من هذا المأزق الشديد وصرت أنتظر معجزة ما.

وحصلت المعجزة.

جاءت المعجزة المرتقبة وطرقت بابي على شكل حمامة زرقاء.

كانت حمامة زرقاء من نوع الحمام الزاجل الذي ينعش فضاء بلاد الشرق الحارة برفرفة أجنحته ويوزع الأمل المعقود بأقدامه. كانت تلك واحدة من اثنتني عشرة حمامة أخذها آلبرتو معه حين سافر آخر مرة إلى أصفهان. حينها قال لي: «سأرسل كل شهر حمامة تحمل إليك رسالة مني. راقبها. أما إذا لم يكن هناك شيء مهم فلن أرسل شيئاً».

كنت قد نسيت حمام آلبرتو ورسائله في خضم مشاكلي حين فوجئت بتلك الحمامة. حدث ذلك في أول الخريف المنصرم. في الساعة الرابعة عقب عودتي من صلاة العصر، كنت أجلس في باحة دار آلبرتو أحدق واجماً حزيناً في بتلات الورد الجوري والياسمين

Twitter: @ketab_n

التي طفت على مياه الحوض في منتصف الباحة ثم أرنو إلى زنابق ملونة تزين محيط البيت وهي من الزنابق التي كان تجار هولندا يملؤون الأكياس من بصلاتها ثم يشحنونها بالسفن إلى أمستردام ومنها تتوزع على كل أوروبا.

شغلت نفسي عصرئذ بجمع بتلات الياسمين البيضاء الطافية على سطح الماء الراكد في الحوض وفجأة سمعت رفرفة جناحي حمامة اضطربت لها بركة السكون التي كنتُ غائصاً فيها فرفعت رأسي لأراها تحط على برج الحمام فوق باب العُليَّة.

كان يبدو من منقارها المفتوح أنها مرهقة وقادمة من مكان بعيد. تراجعت واختبأت في الإيوان وراقبتها. نزلت الحمامة وحطت على حافة الحوض وصارت تشرب الماء ثم طارت إلى البرج ودخلت إليه. استطعت من مخبئي في الإيوان أن أرى بسهولة رسالة معلقة برجلها فقمت حذراً كاللص وصعدت إلى الأعلى ومددت يدي إلى حيث دخلت الحمامة وأمسكت بها. كانت الرسالة ملفوفة على شكل أنبوبة بحرير أحمر. صار قلبي يدق أكثر من قلب الحمامة التي في كفي. فتحت الرسالة الملفوفة فإذا بها رسالة من آلبرتو. لم تكن الرسالة سوى هذه الكلمات: «*مارتين أنا في بايزيد. تعال مع أول قافلة تتجه إلى بلاد دياربكر واترك كل شيء وراءك. ياووز أيضاً هنا. لقد عثرنا على أثر الكتاب. آلبرتو دي سيلفا*».

كانت هذه الجملة المعقودة إلى رجل حمامة آلبرتو كافية لتجعلني

Twitter: @ketab_n

أتخذ طريق دياربكر حتى بعد أن سمعت خبر موت يعقوب الصراف في مساء اليوم الذي سبق رحيلي مع شروق الشمس.

مارتين

بايزيد، الساعة الثالثة بعد الظهر. يوم الأحد 16 كانون الثاني. 1708

Twitter: @ketab_n

الساعة الرابعة

مع الرنة الأخيرة لناقوس الكنيسة، حيث أعلنت الرابعة، برد الجو قليلاً. كانت أنغام الرنات قد تغيرت وخفتت. بدا جلياً أن الصوت يصدر فقط من الناقوس الذي غلفته قشرة من الصدأ. كانت رائحة الأسئلة تفوح من تلك الرنات[1].

خارجاً كان الظلام والضباب يتمددان. أراد طالب اللاهوت أن يعرف مارتين، بعد أن قرأ الصفحات المتعلقة باعتناقه الدين الإسلامي علَّم على الصفحة التي ينتهي هامشها بواقعة مقتل يعقوب الصراف بأن ثنى زاويتها اليسارية العليا ثم وضع المخطوطة على الإسكملة ونزل إلى الحانة. كان يريد أن يلتقي بهذا المهرطق مارتين الذي ترك دينه طمعاً في مال الدنيا ويناقشه. ويعيده، إن كان ما يزال يعتنق الإسلام،

---

(1) كارل الذي كان اسمه بوريسلاف قبل أن يصبح لوثرياً، بحث حوالي ساعة عن جورج الذي خرج مغاضباً لكنه لم يجده. في البداية نزل إلى السرداب وبحث هناك زاوية زاوية، ثم في مخزن الشموع، ثم بين جرار الخمر والمكان الذي تحفظ فيه أواني الكنيسة لكن من دون جدوى. وفي كل مرة كان ينادي بصوت غلفته الندامة: «جورج! يا جورج! تعال لأرضيك وأدفع لك المبلغ الذي تشاء». لكن لم يسمع جواباً فقال في نفسه إن هذه القطة ستعود بلا شك. لكن تلك القطة لم تعد حتى بعد أن أصبحت الساعة الرابعة. الأسئلة التي رنَّت في رأس كارل ظهرت أنغامُها في رنات الناقوس.

Twitter: @ketab_n

إلى طريق المسيح المخلص. فإن لم يعد، سلمه إلى الكنيسة ليجازى هناك بما يستحقه من عقاب. تمعن في المشهد فوجده على حاله لم يتغير إلا أن فرناندو الإسباني وغوستاف لم يكونا هناك بل جلس في مكانهما شاب في حدود الخامسة عشرة من العمر وفي يده سكينان يسن إحداهما بالأخرى ثم خرج الشاب إلى باب الفندق وصار يحدق في جهة الكنيسة من دون أن يضع السكينين من يده.

نادى طالب اللاهوت بصوت مرتفع: «هل هنا أحد اسمه مارتين؟»

لم يرد أحد. وضعت العجوزُ الجوربين من يدها ورفعت رأسها قليلاً لتنظر إليه نظرات لا معنى لها وسرعان ما حملت من جديد أسياخها والجوربين وواصلت نسجها[1].

اعتقد طالب اللاهوت أن واحداً من ذينك الشخصين اللذين كانا هناك قبل قليل هو مارتين فتوجه إلى عازف الكمان سائلاً: «أتستطيع أن تقول لي من فضلك أين ذهب ذانك الشابان اللذان كانا هنا قبل قليل؟» رد عليه العازف من دون أن يرفع ذقنه عن الكمان: «لقد ذهبا» ثم واصل عزف لحنه الجديد فتوجه طالب اللاهوت إلى الرسام الذي كان يتنقل ببصره بين الناقوس وبين القماشة التي أمامه وأعاد سؤاله

---

(1) حين سمعت هيدفيك نبأ موت أخيها هانس، كانت قد تركت الكنيسة لتسكن في فندق في أمستردام قريباً من بحر الشمال. لكنها جلبت معها من الكنيسة ذينك الجوربين اللذين لم يكن نسجهما قد اكتمل بعد. كان عقلها قد اختل فصارت تنسج الجوربين و سرعان ما تحل ما نسجته بحجة أن الغرزات رخوة ثم تبدأ من جديد. ثم صار هذا دأبها. لم تكن تتكلم إلا قليلاً. وكانت تحتفظ في علب كثيرة بمجموعة من الدعاسيق التي تصطادها من الحقول حين يعتدل الجو.

Twitter: @ketab_n

لكن الرسام لم يرد عليه بل كزَّ على أسنانه وقال في حنق: «اللعنة. اللعنة على هذا السم الأخضر».

توجه طالب اللاهوت من هناك وصب لنفسه القهوة في فنجان من الخزف عليه نقوش صينية وصعد من جديد إلى الأعلى. وحين مر من الغرفة التي كانت تتناهى منها همهمات غريبة نادى «مارتين» مرتين أو ثلاثاً عسى أن يكون ساكنها مارتين لكن لم يجبه من الغرفة سوى الصمت. أراد أن ينظر من ثقب الباب فرآه مسدوداً من الداخل بالمفتاح فوضع أذنه على الباب من دون أن يظفر بأية نأمة. أخيراً دخل غرفته وحمل المخطوطة عن الإسكملة ليضع بدلها فنجان القهوة. قرأ حادثة مقتل يعقوب الصراف مرة أخرى ثم واصل القراءة:

***

من مارتين ذي اللسان المشلول إلى المحترم هانس،

تحية

أنا الآن في بلدة على شاطئ بحيرة زرقاء عميقة. لم أتوقف فيها أثناء سفري إلى هذه البلاد قبل حوالي شهرين لأن قافلتنا عرَّجت على بلدة عادلْجَوَاز التي تسند رأسها إلى الجبل وتمد رجليها في مياه هذه البحيرة. أما في العودة فلم نتوقف في عادلجواز واتجهنا مباشرة إلى هذه البلدة التي تفوح من أرضها وسمائها رائحة التفاح.

Twitter: @ketab_n

خرجت قافلتنا قبل حوالي عشرة أيام من بايزيد، صحبني فيها رجل ضرير من بدليس أوصى بائع الكتب صلاح الدين برعايته ثم وضع بضعة قروش في يد رئيس القافلة[1].

غنى ذلك الضرير البدليسي طوال الطريق الأغاني الكردية بصوت شجي. وقال ذات مرة إنه سيعتبر نفسه بصيراً حالما يصل إلى بدليس. عرفت منه أنه نزح عن بلدته منذ مدة طويلة وأنه اشتاق إليها كثيراً. اليوم فقدنا أثره لبعض الوقت لكن سرعان ما لمحناه يعود وفي يده سلة ملأى بالتفاح.

أنا في طريق العودة الآن. أنا أيضاً سعيد مثل هذا الضرير. أشعر بالراحة كلما ابتعدت عن ذلك الخان العجيب. من كان يصدق أنني سأخرج وأولي ظهري ذلك الكابوس المرعب! إن لساني يثقل أكثر. تكلمت مع ذلك الضرير قليلاً بالعربية فقال لي: «أنا لا أفهم منك». ظننت أنه رجل مسن ثقيل السمع أو أنه لا يعرف العربية. لكن حين قال لي أشخاص آخرون من بينهم عرب إنهم لا يفهمون مني أدركت أن جملي وكلماتي لم تعد واضحة وشعرت بأن لساني مقيد إلى سلاسل لامرئية ولا أدري أذلك بسبب الرعب الذي شعرت به في الخان أم

(1) صلاح الدين أحد باعة الكتب في بايزيد، يجلد الكتب، يقص الأوراق ويرتبها ويكتب بماء الذهب عناوين الكتب على الأغلفة الجلدية بخطه الجميل. ولقد وعدني هذا الرجل الشهم حين رأى الكتابة اللاتينية وتعجب منها، أن ينهي تغليف مخطوطتي في أقصر مدة وكان وفياً في وعده. وهو الذي رتب أوراق مخطوطتي الأولى وأيضاً أوراقي التي أكتب عليها الآن من دون أن يتقاضى مني أية نقود.

Twitter: @ketab_n

نتيجة علة فيه!

هذه الأوراق التي أدون عليها الآن سمرقندية، هكذا أخبرني صلاح الدين الصحاف. لكنني ألاحظ أنني ما إن أضع رأس الريشة فوقها حتى يتسرب الحبر كله من الريشة. سأغير هذه الأوراق لأن الحبر لن يكفيني إن دام الأمر كذلك، سأبدأ من حيث انتهيت وأكتب قصة هروبي من حلب.

***

صباح الجمعة في التاسع من أيلول، أي يوم أراد الحلاق أن يختنني، خرجت مع قافلة دياربكر من حلب[1]. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد لكن الأفق الشرقي كان يبشر بطلوعها وحين ابتعدنا قليلاً ارتفعت الشمس مثل أميرة. كنت على ظهر أحد الجمال ألقي على رأسي وحتى مستوى عينيَّ مئزراً من الكتان المصري أتقي به ضوء الشمس. التفت ورائي فجاش صدري حين رأيت القلعة تغتسل في النور. لقد تركت وراء ظهري قدراً عرفت تفاصيله وتوجهت صوب قدر مجهول. لقد

(1) كانت تلك قافلة الصابون. وكل سنة تغادر قافلة محملة بالصابون مدينة حلب في أوائل الخريف متجهة إلى دياربكر. أحياناً تكون تلك القافلة من الضخامة بحيث لا يرى المرء أولها حين يكون في آخرها. قبل عدة سنوات انطلقت قافلة من مئة وعشرين جملاً لكنها اصطدمت بقطاع الطرق عند بلدة البيرة، وحين رأى أولئك اللصوص أن القافلة قافلة صابون تركوها واكتفوا بنهب الناس نقودهم وثيابهم.

Twitter: @ketab_n

وليت الحبَّ ظهري، تركت الكراهية أيضاً والخطايا المتخفية في ثوب السعادة، تركت انكسارات الروح وآلام الجسد، تركت خلفي مارتين الكوسج الإفرنجي وكذلك مراد الدين المسلم أيضاً.

صار اسمي في القافلة مراد، طوال الطريق كانوا يسمونني كوسه مراد[1]. تبدَّل فيَّ كل شيء: الدين والاسم والحالة. لكن لم تتبدل علامة الشؤم فيَّ: وجهي ولا عيناي الزرقاوان.

لم يكن أحد في القافلة يعرفني ولا يعرف وجهتي. زعمت أنني تاجر سجاد عجمي، لم أخالط أحداً وكثيراً ما كنت أخفي وجهي الكوسج حتى مضى شهران على سفرنا فوصلنا إلى البلدة التي سماها لي آلبرتو في رسالته: بايزيد الواقعة في آخر المملكة العثمانية مثل نقطة في آخر السطر.

في خان قريب من البلدة، استقبلني آلبرتو وأخذ يعانقني بسرور. لم يكن أي منا يصدق أننا سنلتقي. كان مساء بارداً تحلقنا فيه حول نار موقدة من خشب البلوط حين دخل ياووز. مع دخوله انطفأت شمعة كانت على رف في الجدار. كان أول سؤال أطرحه على ياووز هو: ما هي أحوال كوثر؟

رمى ياووزقطعة إقط في فمه ثم صار يدفئ يديه بالنار الموقدة وقال من دون أن ينظر إلي: «سأحدثك لاحقاً عنها. أنا مشغول الآن. سأذهب الليلة إلى المدينة. أنت عليك أن ترتاح. يمكنكما أن تلحقا

(1) يعني مراد الكوسج، الذي لا ينبت على وجهه شعر.

Twitter: @ketab_n

بي غداً. آلبرتو يعرف المكان». ثم التفت إلى آلبرتو وقال: «سنلتقي عند شجرة الصفصاف بالقرب من جامع المُرادية ومن هناك سنهبط إلى البلدة». بعد ذلك خرج مسرعاً فانطفأت الشمعة التي كان آلبرتو قد أشعلها مرة أخرى. تلك الليلة انطفأت الشمعة ثلاث مرات، فقال آلبرتو ضاحكاً: «هل تعلم أن انطفاء الشموع نذير شؤم في هذه البلاد؟» أجبته: «وأنا أيضاً كذلك». ضحك آلبرتو. ضرب ركبتي بحنان وقال: «يقولون إن لمعان أحد الشهب أو انطفاء شمعة دليل موت إنسان معروف». أجبته: «المهم ألا يكون ذلك الميت أحدنا». ضحك آلبرتو مرة أخرى فضحكت معه. كانت تلك المرة الأولى التي أضحك فيها بعد شهور طويلة.

على وقع تلك النار التي كانت تخمد رويداً رويداً قصصت على مسامع آلبرتو ما حصل لي. كان يصغي مثل طفل يستمع إلى حكايا جدته. حين انتهيت من السرد شعرت بأنني أنزلت صخرة عظيمة كانت تثقل كاهلي. أخلدت إلى الصمت بعد ذلك. بدا آلبرتو مستغرباً لكنه لم يتكلم. وددت لو أنه عقب بكلمة، بتعليق صغير يواسيني فيه، تمنيت لو يرى أفعالي مشروعة وخاصة قصة إسلامي ويبحث لي عن ذرائع تبررها. لم يتفوه آلبرتو سوى بكلمتين: «لقد نجوت».

نمت تلك الليلة جيداً من دون أن أحلم بشيء. استيقظنا صباحاً فرأيت أن صديقي قد أعد لي بعض الثياب التي تناسب بلاد الكُرد: عباءة مبطنة بفرو السناجب وسروالاً بني اللون مع حزام من الصوف

Twitter: @ketab_n

وحذاء من جلد الجاموس. أما هو فقد اتخذ لنفسه سترة من المخمل الأسود وعباءة عسلية اللون من شعر الماعز وقبعة مخروطية من صوف خراف الجلالية وهي عشيرة كبيرة في تلك البقاع. ارتدينا تلك الثياب وخرجنا من الخان. في الطريق قال لي آلبرتو: «سنذهب اليوم لزيارة بائع كتب كردي في البلدة. يقول ياووز إن كتاب الإفادة في إكسير السعادة يوجد لديه». انتابني مرة أخرى شعور الأيام السابقة حين كنت أسمع أي خبر عن الكتاب. عشرات المرات كنت أسمع ما يغريني بالبحث عن الكتاب من دون جدوى. لقد نالني اليأس من الحصول عليه بل صرت في الحقيقة لا أهتم كثيراً لما يردني من أخبار بخصوصه. ولولا حالتي التعيسة وما آلت إليه أموري في حلب لما وصلت إلى هذه البقاع أصلاً.

إذاً كنت فرحاً وأمني النفس بقرب حصولي على ذلك الكتاب الذي كان أحد أسباب خروجي من وطني وصادفت في طريق البحث عنه قدراً آخر مختلفاً، التقيت بالسعادة وليس فقط بكتاب السعادة لكنني خسرتها أخيراً في حلب وهاأنذا الآن سأصل إلى ذلك الكتاب الذي سيصف لي إكسير السعادة.

في تلك اللحظة فكرت فيك يا هانس. واستطعت أن أتصور مقدار فرحتك. قلت لنفسي لو أنني عدت إليك حاملاً ذلك الكتاب لقلت لي: «أرأيت يا مارتين! إن المياه الراكدة تأْسَنُ. ولو أنك لم تسافر إلى تلك البلاد لما حُزْتَ السعادة». في الطريق تعرضنا لزخات خفيفة من المطر.

Twitter: @ketab_n

غطت السماء غيوم سوداء مثل سترة آلبرتو المخملية. لم أكن رأيت في حياتي كلها غيوماً سوداء كتلك. تسرب الخوف إلى قلبي كنقطة حبر في كأس ماء. تعجب آلبرتو أيضاً من أمر تلك الغيوم. أسرعنا في السير حتى وصلنا إلى شجرة صفصاف تساقطت ثلاثة أرباع أوراقها الصفراء و شاهدنا من بعيد جلبة فطلبت من آلبرتو أن نذهب إلى هناك لكنه رفض بحجة أننا قد نضيع ياووز هكذا، أو أن الجلبة هي جلبة عراك بين الكرد لأنهم يتعاركون كل يوم[1] ولو أننا اقتربنا من العراك لربما طارت رؤوسنا أيضاً إذ لا فرق لديهم بين رأس إنسان ورأس بصلة. الأفضل أن نبقى في مكاننا».

حين أمعنت النظر في قطرات المطر رأيتها سوداء تشبه كل قطرة منه الحبر حتى بالرائحة حين تقع على يدي. دهشت من رائحة الحبر فقلت بخوف: «ألا تلاحظ أنت أيضاً يا آلبرتو؟»

«ماذا يا مارتين؟»

«المطر»

«وما به المطر؟»

«تفوح منه رائحة الحبر»

(1) الكرد شعب قليل التحمل. فلو تحدث نفر منهم حول موضوع ما لرأيتهم بعد قليل يتواثب بعضهم إلى بعض. وربما تعاركوا من أجل حبة جوز أو اسم طائر. ويحكى أن ثلاثة رجال قتلوا في بلاد هكاري من أجل تينة. جاء أحدهم بتينة نقرها طائر ما فقال أحدهم هذا نقر العصفور وقال ثانٍ بل هو نقر الشحرور ثم تصاعدت حدة النقاش بينهما حتى استلا خنجريهما لتتمدد على الأرض بعد ذلك جثتاهما وجثة صاحبهما أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ضحك آلبرتو. نظر إلى السماء وهو يشم قطرات المطر التي وقعت على يده. ثم قال من دون أن يقطع بصره عن السماء: «أأنت سكران يا مارتين؟ أيمكن للحبر أن يهطل من السماء؟».بعد قليل لمحنا شخصاً قادماً نحونا من بين تلك الجلبة يحث الخطى ويحدق بين الفينة والأخرى في السماء. كان ذلك ياووز الذي رأينا في ملامحه آثار رعب كبير. كانت ثيابه متسخة وظهرت آثار تراب مبلل على شعره. وما إن وصل إلينا حتى قال: «فلنعد إلى الخان».

سأل آلبرتو بخوف: «ماذا جرى يا ياووز؟» فأجاب من دون أن يتوقف عن المشي: «لا أستطيع أن أشرح شيئاً الآن. أسرعا بالعودة فلن نستطيع اليوم أن نذهب إلى بائع الكتب. لنسرع قبل أن يشتد زخ هذا المطر اللعين».

مارتين

بلدة أَخْلاط. الساعة الرابعة بعد الظهر. يوم الجمعة. 27 كانون الثاني. 1708

***

لم يكن ذلك الخان المنحوس والبعيد عن بايزيد فرسخاً واحداً، ذو الفناء الصغير والقائم كقلعة فوق مرتفع، كبيراً مثل خانات حلب. كان خاناً صغيراً من طابقين، يضم العلوي منهما غرفاً للنوم بينما تقع

Twitter: @ketab_n

اصطبلات الخيول والجمال والمستودعات الكبيرة لحفظ بضائع التجار في الطابقِ السفلي. هناك، في ذلك الخان أيضاً كانت المزهريات الفخارية والزنابق الملونة تزين نوافذ الغرف حتى إنني ظننت أن الزنبق زهرة مقدسة لكثرة اهتمام أهل البلاد بها. من عكا وحتى بلاد الكرد ملأت الزنابقُ كلَّ البيوت والخانات والأسواق وحتى المساجد والكنائس.

في أيامنا الأولى كنا أنا وآلبرتو في غرفة واحدة وكان يعزف كل ليلة على آلته الموسيقية ويغني بحزن. وبعد أن عرف سفرشاه الأناضولي صاحب الخان البخيل ذو اللحية البيضاء بالموضوع أمر أن يسكن كل واحد منا غرفة مستقلة لندفع أجرتين. لكننا أقنعناه بالبقاء في غرفة واحدة على أن ندفع أجرة شخصين فرضي بذلك.

كان الفيل العجوز سفرشاه عجوزاً في السبعين من العمر لا يظهر من وجهه النحيل ذي الصوت الجهوري سوى فم واسع تحيط به لحية شيطانية على غير هدى.

وقد حكى لنا أنه ولد لأب أناضولي وأم أرمنية من يريفان، في سنة السلام حين وقَّع الشاه صفي الصفوي اتفاقية قصر شيرين مع السلطان مراد العثماني منهياً بذلك حرباً دامت عشرات السنين. وقد سماه والده باسم سفرشاه تيمناً بسفر السلطان مراد إلى تلك البقاع حتى وصل بغداد.

كان والده الأونباشي في جيش السلطان قد بنى خاناً هناك قبل أن يقدم السلطان على غزوته تلك. ثم عمَّ السلام المنطقة فصارت القوافل

Twitter: @ketab_n

تروح وتجيء بكثرة بعد توقيع اتفاقية قصر شيرين وزادت الحاجة إلى الخانات. قدم التجار من يريفان وتبليسي وأصفهان وتبريز وحتى من بلاد الأوزبك إلى ذلك الخان لينطلقوا منه إلى حلب ودمشق وأورفة ودياربكر ووان وأنطاكية وإزمير وحتى بلاد الغرب أيضاً التي كان يقدم منها التجار لينطلقوا إلى بخارى وسمرقند والصين والهند.

أصبح خان سفرشاه في تلك البلاد الباردة العجيبة ملتقى لأتباع كل الديانات والملل واجتمع منهم حين وجودنا حوالي مئة من الأرمن والترك والعرب والكرد والإيطاليين والفرنسيين والإنجليز والآذريين والفرس والجورجيين والروس والهنود والصينيين وأقوام أخرى لا أعرفها. كان خان سفرشاه عالماً صغيراً لكن الثلوج التي تساقطت حولته إلى سجن وحولت غرفنا إلى زنزانات نقبع فيها ولا نستطيع المغادرة.

في الأسبوع الأول، وحين لم تكن تلك الثلوج اللعينة قد هطلت بعد، تعرفت إلى ناس كثيرين قضيت معهم الليالي الملاح في مناقشة كثير من الأمور بكثير من اللغات.

هانس العزيز،

سأكتب لك قصص ذلك الخان في الرسائل القادمة. لقد بلغ الليل هزيعه الأخير واشتد عليَّ النعاس. وصلنا اليوم ظهراً إلى بدليس وغداً سأذهب بصحبة رفيق سفري الضرير عمر البدليسي إلى المدينة

Twitter: @ketab_n

لنزورها. إن بدليس أجمل مما كنت أتصور. يتحدث عمر عن بدليس كأنه يتحدث عن امرأة فاتنة. قبل قليل قال لي: «إن لم تشاهد بدليس فاعتبر نفسك ضريراً مثلي».

مارتين ذو اللسان المشلول

بدليس، الساعة الرابعة بعد الظهر. الثلاثاء. 31 كانون الثاني 1708

Twitter: @ketab_n

الساعة الخامسة

مع رنة الناقوس الخامسة، وكانت رنة قوية، سمع طالب اللاهوت صرخة حادة قادمة من الحانة: «مات فرناندو، مات فرناندو غرقاً مع تبغه».

وضع طالب اللاهوت المرهَق ريشة الإوزة الممددة على الإسكملة بين صفحات المخطوط حيث وصل في القراءة ثم نزل.

توقف قبل أن يصل بخمس درجات وأصغى لحديث غوستاف الذي سرد القصة بتوتر:«أتعرفون فرناندو الإسباني؟ كان صديقي لبضع ساعات فقط. جاء إلى هنا ليبيع تبغه. وعدته أن نذهب لقصر شترونكده. ذهبنا وجلسنا على حافة الماء قليلاً. كانت هناك بطة تتقدم فراخها فقال فرناندو مازحاً: سأرمي بعض التبغ لهذه البطة فلا بد أنها تشبه سيد القصر في عشقه للتبغ. ثم نهض وأخرج حفنة تبغ ليرميها

Twitter: @ketab_n

للبطة. كانت حافة الماء زلقة فتزحلق فرناندو. رأيته من خلال الضباب كيف ينسرب إلى الماء مثل أفعى. لبط قليلاً لكنه سرعان ما غاص في الماء أما البطة فقد ابتعدت حتى اختفت. أحلف أن البطة كانت مسكونة بروح شيطان. خفت أن يراني حراس القصر فهربت. لحسن الحظ فقد أخفى الضباب معالم الأشياء وحجبها عن النظر. وصلت إلى هنا مهتدياً برائحة القهوة التي لولاها لما عرفت طريقي بسبب هذا الضباب الكثيف».

كان ضباب الخارج قد بلل صلعة غوستاف. أرسل نظراته في الجهات الأربع فوجد ألا أحد يهتم لحديثه.

وضع الرسام ذو الوشاح الأحمر آخر لمسة بالفرشاة على لوحته ثم تناول قهوته فشربها ثم قال: «لون الصدأ لون ملعون». لم يعر أحدٌ ثرثرته تلك أيضاً أي اهتمام. عازف الكمان الذي انتهى من عزف مقطوعته فتح الصندوق ووضع فيه الكمان بلطف ثم غطاه وأغلق العلبة ليضعها أخيراً على كرسي شاغر بجانبه.

الفتى الذي كان يسن سكينين قبل قليل، أصبح الآن بجانب الموقد يلاعب قطة العجوز. بدا من ثيابه أنه صبي في كنيسة(1). كان يضع على

(1) لم ينتبه أحد إلى المينيسترانت «صبي الكنيسة» جورج حين دخل أول مرة. كان قد استبد به الغضب حتى صارت عيونه ترمي بنظرات كالشرر. وحين غادر الكنيسة توجه فوراً إلى الفندق ودخل المطبخ فلم يكن هناك أحد. التقط سكينين وجاء إلى طاولة فارغة وبدأ يسن السكينين. لم يسأله أحد عن هويته أو غايته. بقي السكينان في يده حوالي ساعة. كان يخرج أحياناً إلى باب الفندق ويشير بالسكينين إلى الكنيسة ويهزهما. أما كارل الذي لم ييأس من عودته، فقد أراد أن يقضي وقته في النوم لكنه لم يستطع فلجأ إلى الإنجيل وطفق يتلو منه حتى الساعة الخامسة ثم ذهب إلى حبل الناقوس وشده بعنف ليصدر الناقوس =

Twitter: @ketab_n

منكبيه طيلساناً أحمر حوافه مطرزة بخيوط ذهبية، ويتزر بمئزر من الكتان الأبيض ويلف على خصره نطاقاً من الحرير الأصفر على ثوب أحمر يصل إلى كعبيه.

وضع جورج السكينين اللذين كان يسنهما قبل ساعة في تلافيف نطاقه الحريري الأصفر بينما غطت العجوز صاحبة الحانة في نوم عميق وأمامها جوربان لم يكتمل نسجهما. أما الرجل العجوز الذي كان مشغولاً بقراءة الرواية فقد بدا أنه انتهى من آخر صفحة فيها فأطبق الدفتين ووضع الكتاب على الطاولة، تناول رشفة من قهوته ثم نهض ومشى بخطوات ثقيلة صوب غوستاف حتى أمسك بذراعه بعنف وقال: «أنت قتلته». ثم أخرج من جيوب غوستاف كميات من التبغ. حفنة، حفنتان، ثلاث حفنات حتى بدا أن التبغ لا ينتهي. ارتفع أمام قدمي غوستاف هرم من التبغ فحدق الجميع إليه بذهول وظنوا أن العجوز ساحرٌ حاذق فتسمروا في مقاعدهم.

أدار طالب اللاهوت ظهره لذلك المشهد العجيب من دون أن يعيره اهتماماً كبيراً وصعد إلى الطابق العلوي. وما إن أغلق الباب وراءه حتى اختفت الجلبة القادمة من الحانة. لم يعد يرى من خلال النافذة شيئاً. أظلمت الدنيا حتى قبل أن تغرب الشمس فأشعل الشمعة الثخينة التي كانت قرب رأسه ورسم صليباً على صدره ثم فتح مخطوطة مارتين وقرأ فيها من جديد:

***

= رنات حادة جعلت حتى العصافير الجاثمة على أغصان شجرة الكستناء تطير بعيداً.

Twitter: @ketab_n

هانس العزيز،

بدليس بلدة طيبة جداً. إنها جنة تهدهدها الجبال في حضنها. هي مدينة التفاح الطيب والبساتين والحدائق. مدينة الجسور والينابيع والمدارس والمساجد والخانقاهات والأديرة القديمة. إنها مدينة عريقة جالَ بي اليوم عمر الضرير في أزقتها التي ملأتها الثلوج حتى أخذني إلى أحد المساجد[1]. تخيل هذا الأمر يا هانس! مسلمٌ ضرير يصبح دليلَ مسيحيٍ بصير في بلاد الكرد ويأخذه إلى مسجد ذي اسم تركي كان سابقاً كنيسة أرمنية.

وهذا المسلم الضرير، أي عمر، صاحب ذهن وقَّاد حفظ كل الدروب. قال لي اليوم: «يا مراد قل لي فقط أين نحن وأنا آخذك إلى المكان الذي تريده». إنه يروي لي قصصاً عن أمراء هذه المدينة السابقين، عن بحيرتي نازِك وبُولانق، عن جبلي نمرود وشرف الدين، ويدَّعي أن جنة آدم وحواء كانت في هذه البقاع. ومن لا يعتبر بلاده جنة؟ لقد انقطعت عن قافلتي يا هانس. قلت لنفسي سأنال قسطاً من الراحة مثلما استراح الإسكندر أيضاً في هذه البقعة وربما وجدت دواء لعلة لساني كما وجد الإسكندر دواء لقرنيه.

فهناك حكاية يتداولها سكان المنطقة مفادها أن علة عرضت للإسكندر المقدوني لما أراد فتح الهند حيث نبت في رأسه ما يشبه قرني

(1) يسمونه قزل مسجد وقد كان بحسب المعلومات التي أوردها إمام المسجد كنيسة أرمنية فيما مضى. وقد سماه الترك بهذا الاسم بسبب حجارته الحمراء.

Twitter: @ketab_n

ثور[1]. وقد عجز أطباء اليونان عن إيجاد علاج لهذه العلة. ولما وصل الإسكندر إلى هذه البقاع أراد الراحة فعسكر فيها ونصب خيامه وعقد مجالس فرح سلطانية لعدة أيام. ويقال إن قرنيه بدأا يقصران يوماً بعد يوم حتى زال كل أثر لهما فزعم الأطباء أن هواء هذه البقعة كان دواء لعلة الملك فاستطاب الإسكندر المقام فيها وأمر خادمه المسمى بَدْليس أن يبني له قلعة حصينة في ذلك المكان بحيث لا يقدر أحد على فتحها فبدأ الخادم ببناء قلعة محكمة التحصين. ولما انتهى البناءُ جاء الإسكندر ليدخل القلعة فوجد بدليس متحصناً بها ورأى أن أبوابها مغلقة وأسوارها شاهقة ولم يستطع الدخول بالرغم من المحاولات الكثيرة. لم يكن أمام الإسكندر بد من فك الحصار عن القلعة والانسحاب. ولما أراد الإسكندر الذهاب جاء خادمه إليه وفي يديه كفنٌ وضع عليه سيفاً ومفاتيح القلعة وقال لسيده: «أيها الملك لقد بنيت هذه القلعة بناء على أمرك فقد قلت ابنِ لي قلعة لا يقدر على فتحها أحدٌ. وأنا أمد الآن عنقي أمام عدالتك. ها هو سيفي وها هو كفني وها هي مفاتيح القلعة فافعل بي ما تراه مناسباً». سُرَّ الإسكندر كثيراً وخلع على خادمه الهدايا والخلع وأطلق اسمه على القلعة الحصينة وأصبح اسم المدينة منذ ذلك التاريخ بدليس.

(1) لهذا السبب يسمى عند المسلمين بذي القرنين الذي ورد ذكره في القرآن. لكن الشيخ الترمانيني الذي كان يعلمني القرآن فسر الاسم على أنه مَنْ يعيش قرنين من الزمان!

Twitter: @ketab_n

***

هطل بعد ذلك المطر الأسود، ثلجٌ كأنه غضب أبيض. طوال الليل كنا، آلبرتو وياووز وأنا، نشاهد تساقط الثلوج. لم ينم أحد تلك الليلة التي سبقت أول يوم من رمضان. نزلاء الخان المسلمون أعدوا العدة لتناول السحور بينما ازداد الثلج سماكة وعلواً وتناهت إلينا بين الحين والآخر صهيل الخيول من الاصطبلات أسفل الخان. قال ياووز متخوفاً: «هذه ليلة الأول من رمضان ومع ذلك فهي لا تحمل الخير فالخيول لا تصهل في الليل عبثاً. أما هذا الثلج.».

حكى لنا ياووز تلك الليلة قصة ذلك الشيخ الكردي الذي مات. روى لنا أنه جاء في الأساس إلى بايزيد بناء على طلب بعض معارفه لقتل الشيخ وأنه حاول ذلك عدة مرات فشل فيها جميعاً. وشرح لنا كيف أنه أراد أن يضع السم في زيت السراج الذي يستضيء به الشيخ وكيف أنه أراد لما فشل في ذلك أن يضع بين يديه مخطوطة مكتوبة بحبر مسموم من دون أن يظفر بغايته.

كان آلبرتو أكثر اندهاشاً مني فسأله بفم فاغر وعينين جاحظتين: «ألذلك كنت تسرع في كتابة تلك المنظومة الشعرية؟ أتقدر أن تقتل إنساناً؟» رد ياووز: «نعم يا آلبرتو. كنت أريد أن أكسب الذهب. مقابل قتل رجل الله ذاك كنت سأكسب كثيراً من الذهب. لكنه كان رجلاً من رجال الله وقد أحببته لحظة رأيته فيها. لكن الذهب غلب

Twitter: @ketab_n

المحبة. عرفت أنه ليس من طينة الذين قتلتهم من الآغوات والأعيان ورؤساء القوافل. أعترف أمامكما. لقد كنت قاتلاً مأجوراً. قتلت كثيرين من دون أن يرف لي جفن. لكن الندم عضني بأنيابه حين قررت قتل هذا الرجل. وأحمد الله أنني لم أقتله. لقد تيقنت اليوم أنه ولي من أولياء الله وقديس. هذا المطر دليل على زعمي. هل تصدقون أن كل هذا المطر هطل من دون أن يبلل كفنه؟ لم تصب الكفنَ المكشوفَ ولو قطرة واحدة».

على ضوء النار المشتعلة في موقد في الجدار رأينا قطرات الدمع تنحدر من عيني ياووز على وجهه القبيح القاسي المخيف وتتجمع على طرفي فمه المشوه. تبادلنا أنا وآلبرتو النظرات وواصلنا الاستماع إلى حكايته: «أنا قاتل. نعم قاتل. قاتل مأجور يزهق روح رجل مقابل قطعة ذهبية. ولماذا أقول روح رجل؟ أنا قاتل النساء أيضاً. قاتل النساء الحبالى أيضاً».

ثم نظر إليَّ وقال: «يا مارتين أنا الذي قتلت كوثر. أنا قتلت تلك الحبلى». وصار يجهش بالبكاء. وحين انتهت نوبة بكائه بدأ يسرد على مسامعنا قصة قتله لكوثر[1].

(1) ليلة خرج ياووز مع كوثر من منزلي، اتجه معها إلى بيتها فجمعا كل مصوغاتها في صرة ثم قال لها ياووز: «سآخذك معي إلى بلادي». سألته كوثر المسكينة: «وكيف ستأخذني إلى بلاد الكرد وأنا على هذه الحال؟» قال لها ياووز إنه سيجهز لها هودجاً تركبه وأنها لن تشعر بطول الطريق. صدقته كوثر فاليائس يصدق أي خبر يسمعه. خرج الاثنان من البيت وتوجها إلى ضفة نهر قويق عند باب أنطاكية. توقف ذانك الكرديان عند طاحونة مائية فسألت كوثرُ عن سبب قدومهما إلى ذلك المكان فأجابها ياووز: «هاهنا دواؤك.=

Twitter: @ketab_n

انتابني شعور غريب حين سمعت القصة ولم أعد أعرف هل أتأسف لحاله أم أحقد عليه؟ كان يبكي بحرقة ومع ذلك خفت منه. طوال حديثه كانت يدي على مقبض خنجري. تخيلت أنه سيثب علينا ويقتلنا نحن الاثنين أو واحداً منا. لكنه استمر في البكاء إلى أن قام أخيراً وتوجه إلى غرفته بصمت.

مضت عدة أيام فلم نره إلا قليلاً. كان يخرج صباحاً من غرفته ويلقي التحية بوجه مكفهر ثم ينزل ليغيب مدة ثم يعود في المساء من دون أن يتحدث إلينا. كان مضطرباً جداً فلم يعد يقر له قرار وكأنه ماء يغلي في قدر على نار حامية.

تذكرت كوثر ولم أصدق أن ياووز أقدم على قتلها. تذكرت وجهها، منديلها الذي كان ينزاح دائماً عن شعرها، رائحة إبطيها اللذين كانت تفوح منهما دائماً رائحة الكمون وتلك القامة الخرافية والعينين الساحرتين. انتابني حزن عميق وصرت أغرق في الصمت بينما صار آلبرتو يواسيني بصوته الحنون. تصدعت روحي مثل زجاجة موضوعة بقرب نار حامية، كان يكفيها ضربة صغيرة لتتفتت وتتشظى.

أصبحت أستيقظ صباحاً قبل الجميع وأصعد إلى سطح الخان

= فمن يحتار مثلك يجد ملاذه في هذه المياه العميقة». ودفعها فجأة إلى النهر ثم ابتعد مسرعاً عن المكان. كان الليل قد انتصف ولم يكن ثمة مخلوق هناك ليسمع صرخات تلك الفتاة الحامل في حضن الأمواج الغادرة. أما أنا فلم أكن أعرف أن ذلك الحجر الثقيل انزاح عن صدري بقتل روحين.

Twitter: @ketab_n

وأحدق في المسافات التي غطتها الثلوج.

وذات صباح استيقظت ففوجئت بمنظر رهيب. كانت الثلوج قد ملأت فناء الخان الصغير. وحين خرجت من غرفتي واستندت إلى درابزين الشرفة لأتفرج على الثلج شاهدت سفرشاه مستنداً بدوره على درابزين الشرفة وهو ينادي الملا ظاهر الكولباغي[1].

كان الملا يتخبط في الثلج الذي بلغ حتى خصره، ويدفع الثلج من أمامه كمن يسبح في الماء. كان يصرخ قائلاً: «يا رب يا رب! إنها من علامات القيامة. بالأمس مطر أسود واليوم هذا الثلج! قوموا وشاهدوا هذا العجب العجاب. إنه غضب الله عزوجل».

بهت سفرشاه أيضاً، صمت لبرهة قصيرة وسرعان ما قال: «سامحك الله يا ملا ماذا دفع بك إلى وسط هذا الثلج في هذا الصباح؟ ما دمت تعرف أنه غضب من الله فما الذي تفعله وسط هذ الغضب؟» رد الملا ظاهر وقد بدا عليه الإنهاك: «في وقت السحور نزلت لأتطهر فشاهدت الثلج يسقط. أنت تعرف أنني لمست أمس ذلك الكلب الإفرنجي آغابيتو فتنجست[2].

(1) كان متزمتاً كردياً على المذهب الشافعي يعتبر كل مسيحي عدواً. حتى أنه كان يغسل يده إن لامست من دون قصد أحد المسيحيين ويستغفر الله على ذلك تسعاً وتسعين مرة بعدد حبات مسبحته السوداء الطويلة.

(2) تاجر من فلورنسة كان يقيم في الخان منذ مدة طويلة وينتظر جواباً من وكيله في مدينة آزوف التي يسميها العثمانيون آزاق. كان وكيله الروسي سيأتيه بخبر وصول بضاعته إلى هناك. صار آغابيتو يتنسم كل هواء يأتيه من جهة طرابزون على البحر الأسود. كان يسحب وراءه دائماً ذيل ردائه من الجوخ الفلورنسي المشهور الثمين حتى ليظنه المرء قائداً رومانياً.

Twitter: @ketab_n

لم أجد نفسي إلا وأنا محاصر بالثلج. شيء لا يصدق! وكأن هناك من أسقط عليَّ كِسَفاً من الثلج ثم داسها. حولي أيضاً تكدس الثلج. هذا ليس ثلجاً يا رجل بل هو غضب من الله. لقد أصبح جليداً فوق ذلك ولا أستطيع الحركة».

ضاع الدرج الحجري تحت ركام الثلج ولم يعد بالإمكان النزول إلى أسفل الخان. فكرت في طريقة لإخراج ذلك المسكين من بين براثن ذلك الوحش الأبيض. وفجأة خرج آغابيتو وجاء ليقف بجانبي ويتفرج على ذلك المشهد العجيب. كان الثلج يهطل بغزارة وتزداد سماكته رويداً رويداً، لم نعد نتبين ملامح الملا من غزارة ندف الثلج المتساقطة. بعد قليل التحق سليمان ابن سفرشاه بأبيه فوقف بجانبه وصار يضحك ضحكاً مجلجلاً. أراد أبوه أن يبعده لكنه أمسك بالدرابزين ثم صرخ والزبد يتطاير من فمه: «خصية، خصية، خصية»[1].

أمسكني آلبرتو من يدي وقال: «تعال يا مارتين لنذهب إلى غرفة ياووز. لقد شاهدت عنده ذات مرة حبالاً عديدة وسنستعير منه حبلاً

(1) كان سليمان الابن الوحيد لسفرشاه وكان في مثل عمري. ولقد عشق في العشرين من عمره فتاة كردية وأراد الزواج منها فرفض أبوها مما اضطره إلى خطفها لكن أهل الفتاة تعقبوهما وقبضوا عليهما فقتلوا الفتاة بالخناجر وقطعوها إرباً إرباً أمام عينيه ورموا أشلاءها لكلاب رعيانهم. طلب سليمان بتضرع أن يقتلوه أيضاً لكنهم قالوا له إن هناك عقوبة أقرب للعدل من القتل، ثم قاموا بإخصائه: أتوا بحجري صوان ثم فقعوا بهما خصيتيه وسط صراخه حتى غاب عن الوعي فتركوه كذلك ومضوا. ثم لمحه أحد الرعيان فأشفق على حاله وأخفاه عنده لمدة شهر بين القطيع وقام بمداواته ثم تركه. عاد سليمان إلى بيته أخرس مذهولاً لا ينطق سوى كلمة «خصية» يرددها مراراً وهو يضحك ضحكة شيطانية مجنونة.

Twitter: @ketab_n

لنلقيه أمام ذاك الأحمق الغاطس في الثلج فيلفه على خصره ثم نسحبه. وربما أفادنا ياووز بطريقة لإنقاذ الرجل».

ذهبنا فرأينا باب الغرفة موارباً. ناديناه مرة أو مرتين فلم يرد علينا. دفع آلبرتو الباب بهدوء ثم دخل. لكنه قفل راجعاً كمن لدغته أفعى. كان وجهه مصفراً يقطر رعباً. خفت أنا أيضاً، ومن دون أن أسأله ما الذي جرى أمسكتُ بفلقتي الباب ومددت رأسي لأشاهد الغرفة.

شاهدت ياووز معلقاً بحبل مشدود إلى عمود في السقف وقد خرج لسانه من حلقه وازرق وجهه وتدلت ذراعاه ورجلاه. الإسكملة التي كانت دائماً عند رأسه كانت في وسط الغرفة مقلوبة ومرمية على بعد ذراع من قدميه المتدليتين في الهواء. هل شنق ياووز نفسه أم أن أحداً ما قتله؟ من يدري؟ تراجعت إلى الخلف. تبادلت النظرات مع آلبرتو الذي دخل الغرفة فجأة ووضع الإسكملة ثم صعد عليها وقال: «تعال يا مارتين فربما كان فيه رمق من حياة».

أجبته قائلاً: «أية حياة يا رجل؟ ألا ترى لسانه الخارج من حلقه؟» ومع ذلك فقد لبيت نداء آلبرتو ودخلت الغرفة وراءه. كان جسده بارداً متيبساً ووجهه مختنقاً مزرقاً. كان ياووز قد مات[1].

(1) لا أدري لماذا انتحر ياووز؟ كان في كفه ورقة مكتوب عليها هذا البيت الشعري بالفارسية:

دارم كناهان ز قطره‌ء باران بيش
أز شرم كناه فكنده ام سر در بيش
وقد ترجم لي آلبرتو معناه هكذا:
آثامي أكثر من قطرات المطر
وأنا أطأطئ رأسي خجلاً من تلك الآثام.

Twitter: @ketab_n

أراد آلبرتو أن يُخرج عنق ياووز من حلقة الحبل لكنني قلت له: «آلبرتو هذا ليس شأننا! فلنذهب ولنخبر صاحب الخان بالأمر» نظر إليّ آلبرتو بعينين جاحظتين وقال كأنه يستعيد وعيه: «كيف غاب هذا الأمر عني؟»

تركنا جسد ياووز متدلياً في مكانه وذهبنا مسرعين لنخبر سفرشاه. أخبره آلبرتو بالفارسية لكنه لم يهتم بالأمر قط وكأننا حدثناه عن موت برغوثة أو دودة تافهة.

***

حط غراب أسود على الثلج بالقرب من رأس الملا ظاهر الكولباغي وصار ينقر رقبته حيناً وينقر حبات البرغل العالقة بلحيته حيناً آخر. صرخ الملا وحاول من دون جدوى أن يبعد الغراب عنه. ومع اشتداد الصراخ الذي خالطه نعيق الغراب خرج النزلاء واحداً واحداً من غرفهم واستندوا إلى الدرابزين ليتفرجوا على ذلك المشهد العجيب.

جاء مراد الإيجي ثم خلع قبعته من رأسه ورماها باتجاه الغراب لعله يطير[1]. قفز الغراب قفزة في الهواء وفرد جناحيه قليلًا كأنه

(1) كان جندياً انكشارياً في الخامسة والعشرين من العمر. قصير القامة مدور اللحية خشن الصوت ضخم الأنف. ولقد انقلبت حياته رأساً على عقب حين تعرف على راهب من بلدة موش فخلع عن نفسه ثياب الجنود وارتدى خرقة الدراويش وصار يقول بمناسبة وبدون مناسبة: «تعالوا نصلح ذات بين الله والشيطان». كان يدعي أن خلافات الأديان والمذاهب والأقوام سببها العداوة القائمة بين الرب والشيطان فإذا تصالحا تصالح الناس جميعاً.

Twitter: @ketab_n

يريد الطيران لكنه عاد ليحط هذه المرة على عمامة الملا ظاهر ويذرق عليها. زعق الملا مرعوباً: «ألا يكفي بلاء الثلج حتى يأتي هذا البلاء الأسود!»

أخرج مراد الإيجي، ابن جزيرة خيوس[1]، قطعة اللبان المصطكي من فمه وألصقها بالدرابزين ثم نادى الملا ظاهر: «يا ملا أفندي! ألستُ على حق حين أنادي بضرورة المصالحة بين الله والشيطان؟ أكنتَ ستصبح على هذه الحال لو كانا متصالحين الآن ؟ أطعني ولنذهب إلى راهب مدينة موش سانوس المعظم لتبرما اتفاق سلام نيابة عن الرب والشيطان.....».

التفت ملا ظاهر وصار يمعن النظر فينا. مع التفاتته العنيفة تلك قفز الغراب مرة أخرى ليعود ثانية ويحط على عمامته ويذرق. صرخ الملا: «بالله عليك يا سفرشاه أبعد هذا المجنون من هناك. هذا الفاسق النجس. يمضغ اللبان ويحكي هذراً. يكفيني ما أنا فيه».

حدج سفرشاه مراداً الإيجي وغمز له بأن يبتعد فذهب مراد إلى

(1) خيوس جزيرة في بحر إيجة يسميها الترك جزيرة ساقز. يأتي تجار إزمير من هذه الجزيرة بنوع من اللبان ويبيعونه لتجار أوروبا. ولقد مضغته فوجدته طيب الرائحة جداً. يبدو أولاً مثل قطعة حجر أصفر لكن سرعان ما يتحول في الفم إلى لبان لين يمكن مضغه. الجزيرة تلك كانت بدورها قد أصبحت قطعة لبان في فم كل من البيزنطيين والجنويين والبنادقة والعثمانيين. صار كل فريق يخطفه من فم الفريق الآخر. وبعد أن انهزمت القوات العثمانية في عهد السلطان أحمد الثاني الذي كان خطاطاً كتب بيده نسخاً كثيرة من القرآن، هرب والد مراد الإيجي الذي كان قائداً انكشارياً بارزاً خوفاً من الخازوق وجاء إلى هذه البلاد لائذاً بحمى دير أرمني.

Twitter: @ketab_n

غرفة هناك وغاب عن الأنظار. لم أكن قد نسيت ياووز المسكين فتوجهت إلى سفرشاه وأعدت عليه ما قلناه له سابقاً فرد عليَّ غاضباً: «ابتعد عني الآن». ثم قال بلطف وكأنه ندم على زجره إياي: «يا مراد أفندي انتظر قليلاً حتى ننقذ هذا البائس من هذا البلاء».

لم تمض لحظات حتى ظهر مراد الإيجي يتقدم القسيسَ الأرمني قره بيت ويمشي صوبنا. حامت ثلاثة غربان أخرى حولنا. نادى القسيسُ الملا ظاهر بصوت جهوري غمرته نبرة سخرية: «يا ملا أفندي لقد أصبحت عمامتك جميلة وكأنك نثرت المسك عليها». لم يكد ينهي القسيس جملته حتى سقط ذرقٌ ضخم على كتفه وسال حتى أصاب الصليب المكسور المتدلي على صدره. ومع أن ملا ظاهر كان مشغولاً بنفسه ولا يقدر على إخراج يديه من تحت الثلج، إلا أنه فرح لمنظر القسيس وصليبه الملوث بالذرق فقال: «أيها القسيس قره بيت أنظر إلى صليبك المكسور. لقد جبر الغراب كسرَه».

خرج أحمو الملقب بأحمو الكافر أيضاً من غرفته[1]. جاء حتى وقف بجانب مراد الإيجي وقال مستهزئاً: «هيه يا عمي الملا. اليوم تنفع الحبال أكثر من الصلوات».

---

(1) كان أحمو شاباً من قارص لا يؤمن بالله. ولكثرة ما تلقى من سياط فقد أصبح ظهره مثل سجاد مخطط يرمونه في هذه البلاد على ظهور الحمير. اشتهر أحمو في قارص بتعاطي الخمور. لكن تلك الشهرة كانت وبالاً عليه فقد أمضى نصف عمره في الحبس. كان قد قدم إلى الخان ليسافر إلى الحجاز ويرى الكعبة التي يتوجه إليها المسلمون في صلواتهم خمس مرات في اليوم. وحين كان الملا ظاهر والقسيس قره بيت يتجادلان كان أحمو يترك كل شيء ويأتي ليشاهد المناقشات الحامية بينهما.

Twitter: @ketab_n

رويداً رويداً خرج كل النزلاء من غرفهم وجاؤوا ليتفرجوا على الثلج.

بدليس، الساعة الخامسة من يوم الخميس، الثاني من شهر شباط 1708

***

هانس العزيز،

ما زلت في بدليس أقيم في أحد الخانقاهات. سأبقى فترة في هذه المدينة. لقد دخلنا في شهر شباط ومنذ البارحة لم يتوقف هطول الثلج.

مساء أتوا للنزلاء بحساء العدس. كان البخار يتصاعد كالضباب فوق الصحون. تناولت مع دراويش الخانقاه ذلك الحساء حتى شبعنا ونالنا بعض الدفء. لم أعد أرى عمر الأعمى. لقد صار كالطفل الذي فقد أمه ثم عاد إلى حضنها. إنه لا يترك الحارات والأزقة. وعلى كل حال فأنا لست بحاجته في هذا الزمهرير إذ ليس هناك مكان نذهب إليه.

لقد خفَّ الألم الذي كان تحت لساني. الكلمات تخرج بخفة أكثر. ليلة أمس، حين سردت قصتي على مسامع أحد الدراويش، مدَّ يده إلى فمي وصار يقرأ آية من القرآن: «واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي».

Twitter: @ketab_n

سأدون الآن تمام الواقعة التي سردتُ بعضاً منها في الصفحات السابقة.

***

لم تمض برهة قصيرة حتى ظهر آغابيتو مع خادمه واستند أيضاً إلى الدرابزين. كان سفرشاه يخوض مع الملا ظاهر غمار حديث لا نهاية له وقد كررنا مرات عديدة على مسامعه واقعة موت ياووز لكنه لم يأبه بها فاضطررنا إلى الكف عن ذلك. في المرة الأخيرة حين ذهب آلبرتو إلى غرفة ياووز وعاد يخبر سفرشاه بمقتله، غضب سفرشاه وقال: «أن ننقذ من هو على شفا الموت أفضل من أن ندفن ميتاً». ثم توجه إلى السماء التي ملأتها عشرات الألوف من ندف الثلج وقال بتضرع: «يا إلهي».

لم يعد الملا ظاهر يصدر أي صوت أو حركة. فجأة شاهدنا طوبال فَقَه نوري يلف على رأسه عمامته الصغيرة ويرمي بنفسه مثل فرخِ طائرٍ إلى الثلج ليساعد الملا ظاهر[1].

(1) كان في التاسعة عشرة من عمره. أبيض البشرة لطيفاً يعرج برجله اليمنى لذلك أطلق عليه لقب طوبال أي الأعرج لكنه كان نشيطاً بالرغم من عرجه. صوته رقيق حتى ليظنه المرء فتاة. قدم من أرضروم ليتوجه إلى شاعر كردي ليتتلمذ على يديه. كان ذلك هو الشاعر الذي مات يوم هطل المطر الأسود واضطرب ياووز لموته اضطراباً شديداً، أما لقب فَقَهْ فالكرد يقولون لكل طالب علم شرعي فقه أي فقيه.

Twitter: @ketab_n

خاض طوبال فقه نوري الثلجَ الذي ارتفع شبراً فوق الثلج المتجلد حتى وصل إلى الملا ظاهر فمسح بردن ثوبه الذرقَ الذي كان يلوث عمامة الملا ثم صار يحوم حوله ويلمس صدغه ليعرف نبضه. أخيراً نظر في عيني الملا المفتوحتين وصرخ فجأة: «لقد مات الملا أفندي. فاضت روحه. إنا لله وإنا إليه راجعون».

وبعد محاولات عديدة لإخراج الملا خارت قوى طوبال فقه نوري فيئس من ذلك وأراد الرجوع إلينا لكن غارت قدماه في الثلوج فصار يستنجد لكن أحداً لم يجرؤ على النزول إليه لأن تساقط الثلج اشتد أكثر وازدادت سماكته. خلع آغابيتو رداءه الأرجواني وهمس قليلاً في أذن إيفان الأسير[1].

ركض إيفان إلى غرفة آغابيتو وعاد مسرعاً وبيده خنجر معقوف

---

(1) وقع إيفان في إحدى الحروب مع العثمانيين أسيراً. ثم اشتراه صاحب الخان واتخذه عبداً له ثم باعه إلى آغابيتو. كان إيفان حزيناً واجماً ينتظر تحقق نبوءة راهب من رهبان منطقته. فقبل خمسة عشر عاماً قال ذلك الراهب: «سيزول حكم العثمانيين إذا تكرر الرقم ثمانية ثلاثَ مرات في أي عام». فسر البعض كلام الراهب بأنه يقصد يوم الثامن من الشهر الثامن من عام ألف وسبعمئة وثمانية وهو ما لم يبق له سوى ثمانية أشهر. بعض المنجمين قالوا إن القصد من تكرار الرقم ثمانية ثلاث مرات هو الرقم أربعة وعشرون أي حاصل جمع الرقم ثمانية ثلاث مرات وفسروا ذلك على أنه السلطان الرابع والعشرون من سلاطين آل عثمان. نحن الآن في زمن السلطان أحمد وتسلسله هو الثالث والعشرون. كثير من الروس يعيشون على أمل أن تتحقق هذه النبوءة فتنهار مملكة العثمانيين قريباً. وحين كنت في حلب تداول التجار البنادقة حكاية عن حجر من المرمر المنحوت انحسر عنه نهر الفرات في مكان ما كتب عليه بالعربية أن مُلك آل عثمان قريب الزوال. أعتقد أن هذه الأمور ليست سوى رغبات من يعادون العثمانيين كذلك رغبات من أرهقت الضرائب والمكوس كواهلَهم.

Twitter: @ketab_n

الرأس وناوله سيده. نظرنا بأعين جاحظة إلى آغابيتو فرأيناه يتناول الخنجر ثم يقطع ذلك الرداء الثمين إلى قطع عديدة ثم ربط تلك القطع حتى جعلها مثل حبل طويل ورمى رأس الحبل فوقع عند قدمي طوبال فقه نوري.

لم يُضع طوبال فقه نوري الفرصة فأمسك برأس الخرقة الحمراء ولفها على خصره النحيل فسحبه آغابيتو وتدافع الآخرون من حوله ليعاونوه ويسحبوا معه الفتى الذي كان يرتجف مثل فرخ عصفور بلله المطر حتى أوصلوه إلى أعلى.

Twitter: @ketab_n

الساعة السادسة

مع الساعة السادسة قرعت النواقيس الأربعة في الكنيسة القريبة دفعة واحدة[1]. اختلط مع قرع تلك النواقيس قرع نواقيس كنيسة أخرى تنادي المؤمنين ليذهبوا إلى صلاة المساء. لم يهتم أحد في الحانة بذلك القرع المتواصل. تشاجر غوستاف مع ذلك العجوز ومد أحدهما يده يمسك بخناق الآخر ويجرجره. وقف الجميع يتفرجون

---

(1) حين صارت الساعة الخامسة خبأ جورج سكينيه في نطاقه الحريري وخرج متوجهاً إلى الكنيسة. وعندما لمحه كارل فرح وقال لنفسه: «أعرف أنك لا تصبر على العيش بدوني. المشكلة ليست في المال وحده يا خروفي». لم يكن كارل على علم بما يكنه ويدبر له جورج الفتى لذلك خاطبه بحنان ولطف: «يا خروف الرب. الكنيسة أطلال بدونك. لا تقلق فغداً سأعطيك ما تشاء من المال« ثم روى له القصة التي وردت في إنجيل لوقا وسمعها آلاف المرات. وكما قال الأب لعبيده في قصة الإنجيل: «أحضروا سريعا أفضل ثوب وألبسوه، وضعوا في إصبعه خاتماً وفي قدميه حذاءً، وأحضروا العجل المسمن واذبحوه ولنأكل ونفرح فإن ابني هذا كان ميتاً فعاش وكان ضائعاً فوجد» فكذلك قال كارل: «سنعقد مجلس أنس فخماً ونشعل جميع الشموع ونضع أمامنا الزيت المقدس والخبز المعجون ببركة المسيح ونفرح». طأطأ جورج رأسه وشغل نفسه ساعة كاملة بقراءة إنجيل لوقا إلى أن صارت الساعة السادسة مساءً فقام وشد حبال النواقيس مع كارل الذي أراد إظهار الندم على تصرفه مع جورج فصار يشد الحبل بيد ويمسح باليد الأخرى على رأس جورج وما بين كتفيه. وحين هبطت يده أكثر أحس بسكين من ذينك السكينين. أوشك كارل أن يسأله عن السكين لكن المصلين دخلوا الكنيسة فأجل السؤال.

Twitter: @ketab_n

على مشهد المشاجرة إلا العجوز صاحبة الفندق فقد بقيت في مكانها تنسج الجوربين. كانت قطتها قد وقفت أيضاً تهز ذيلها وتنظر بعينين مرعوبتين إلى المشاجرة.

وعندما رأى طالب اللاهوت أن الصوت بدأ يرتفع أطبق دفتي المخطوطة التي في يده واتجه إلى الأسفل ليقف على الدرج ويتفرج بدوره أيضاً على ذلك المشهد.

«أنت قتلت فرناندو».

«لا لست أنا»

«بلى أنت»

«حتى لو كنت أنا القاتل فهل أنت أبوه؟ ماذا تريد مني؟ ها؟ أأنت وكيله؟ من أين تعرفه؟»

لم يحاول أحد أن يفصل بين المتخاصمين. وحين رأى طالب اللاهوت هذا الأمر زَمَّ شفتيه وأشار بسبابته إلى صدغه ثم إلى الجالسين أي أنه لا عقول لكم. لم ينتبه إليه أحد إلا العجوز إذ رفعت رأسها قليلاً وأرسلت إليه نظرات لا معنى لها ثم عادت إلى نسج الجوربين.

عاد طالب اللاهوت، الذي لم يكن يرغب في الصلاة، إلى الأعلى وترك الباب وراءه موارباً. بعد برهة خفت الجلبة القادمة من الحانة وبدا أن النزلاء يتجهون للصلاة. مد طالب اللاهوت يده إلى المخطوطة وبدأ يقرأ من السطر الذي بلغه في القراءة:

Twitter: @ketab_n

***

مضت ثلاثة أيام على ذلك المنوال من دون أن يخرج الملا ظاهر من بين ركام الثلوج ومن دون أن يهتم أحد لأمر ياووز المشنوق! واصل الثلج هطوله حتى اختفى الملا تحته. كنا أنا والبرتو نذهب لزيارة الأوروبيين الآخرين في الخان. أصبح آلبرتو يحمل بين الحين والآخر الماندولين ويعزف بعض الألحان ويغني بحنجرته الشجية أغاني كأنها نار موقد تدفئ أرواحنا المرعوبة. لكن تلك النار لم تستطع الوصول إلى بعض الزوايا في أرواحنا التي بسط جليد الخوف سلطانه عليها مثل أفعى تكورت هناك. كان غريباً ألا يلفت موت ياووز نظر أحد. أغلق آلبرتو الباب على ياووز وسدَّ شقوقه بالشمع لئلا تخرج رائحة جثته الواخزة. فكرنا في طريق للخروج من دون جدوى. صرنا نسمع عواء الذئاب، كان عواء متصلاً قريباً.

تحدث سكان تلك المنطقة ممن كانوا في الخان عن الضباع والذئاب الجائعة وكيف أنها تهاجم البيوت وتفترس البشر والدواب. سرد علينا أوسِبْ كِلْدِزْ (أي سارق الكحل)، العشرات من قصص الذئاب. كان سفرشاه يناديه أوسب الأعور، لأنه تلقى خلال عملية سلب ونهب ضربة في عينه فخرجت من محجرها.

كان يسرد الأقاصيص والوقائع العجيبة التي يكون هو موضوعها في الغالب ويقتل فيها الذئاب والضباع ولم نكن نصدقه لكن قصصه

Twitter: @ketab_n

كانت تسلينا وتؤنسنا.

كانت أفواهنا تنفث صباحاً ما يشبه البخار فيتحول على شواربنا ولحانا إلى جليد من شدة البرد. أحد التجار الهنود كان يتدفأ بلفائف الحرير التي أتى ليتجر بها. صار يلفها على بدنه ويجلس صامتاً مثيراً بذلك ضحك فيليب الإفرنجي حتى قال ذات مرة[1]: «هذا المسكين لا يعرف كيف يشتري حطباً بفلسين من سفرشاه ويشعله في موقد غرفته. سيتحول حِمْله من الحرير إلى كفن له». أما عبد المسيح الحلبي، التاجر الأشقر البخيل الذي يبيع روحه مقابل درهم واحد والجبان إلى أبعد الحدود والذي جاء من أصفهان بحمل من الحرير، فقد صار يقلد التاجر الهندي ويتدثر بلفائف الحرير يتدفأ بها وأصبح هو الآخر مثار سخريتنا.

في تلك الأيام تعرفت إلى كل نزلاء الخان واستمعت لحكاياتهم. سمعت أشياء لا يمكن تصديقها. كان كل بضعة أشخاص يجتمعون ويتحدثون عن الآخرين وأفاعيلهم. وذات مرة روى لنا أحمو الكافر أن

(1) فيليب شاب من باريس الفرنسية كان يريد التوجه إلى الهند ليكتشف طرق تجارة جديدة ويصورها للملك الكاثوليكي لويس الرابع عشر ثم يكتب عن رحلته في كتاب خاص. كان لديه صندوق مليء بأوراق غليظة رسم عليها خرائط الممالك والولايات والبحار والبحيرات والأنهار والقرى والمدن. قال إنه رأى قبل خروجه من باريس صوب الشرق خريطة رسمها السير جون تشاردان وحصل منها على معلومات كثيرة. كان في الحقيقة رجلاً ضليعاً بالمسالك والممالك وأسماء الأنهار والدروب والحدود. أتتذكر يا هانس حين رأيت كتاب السير تشاردان في يدي فقلت لي: «اذهب وعاين تلك البلاد بنفسك ولا تقرأ عنها على الورق. البلاد التي في الكتب بلا روح».

Twitter: @ketab_n

آغابيتو يلوط بالفتى الكردي طوبال فقه نوري وحلف أنه رآهما. قال أيضاً إن سفرشاه يهب أنيسة لمن يرغب فيها مقابل حفنة من الزبيب[1]. ضرب أحمو الخبز بيده وقال: «أقسم بهذه النعمة وهذا الطعام حصلت على ليلة مع أنيسة مقابل مسبحة»، ثم أخرج من جيبه مسبحة سوداء وقال ضاحكاً: «في الليلة التالية استعدت منه مسبحتي وسرقتها». كان أحمو، حين يتحدث عن أنيسة، يغلق عينيه ويعض على شفتيه ويقول متأوهاً: «آه لو أنكم تتذوقون أنيسة! ستهبون مقابل ليلة معها ليس فقط مسبحة واحدة، بل ستجعلون سنوات عمركم حبات مسبحة تهبونها سفرشاه مقابل ساعة نوم في حضن تلك الحورية».

لم نكن نرى أنيسة وقال أحمو إنها تسكن حجرة خلف غرفة سفرشاه وإنه قد حصَّن تلك الحجرة مثل قلعة بحيث إذا أراد أحدهم أن يلتقيها كان لزاماً عليه أن يمر من غرفة صاحب الخان أولاً.

***

إن النوائب والمحن تقرب بين البشر وتوحدهم تماماً كما توحد مشاهدةُ الذئب أفرادَ القطيع فيتراصفون.أما سفرشاه فقد وجد في ذلك الثلج العاصف فرصة ذهبية ليستفيد منا ويبيعنا الحطب بدل

(1) كانت أنيسة جارية في بيت أحد الآغوات الشيشان. وقد رآها الآغا الشيشاني ذات مرة تنام مع غلامه فأراد أن يقتلها لكنها أنقذت نفسها ولجأت إلى أحد الأديرة. ثم هربت من هناك ولاذت بخان سفرشاه الذي عقد نكاحه عليها وصار يستعملها في البغاء.

Twitter: @ketab_n

أن يرثي لحالنا. الحطب في جميع الخانات التي مررت بها مجاني حيث يحسب القائمون على الخانات ذلك ضمن أجرة المبيت، أما سفرشاه فقد كان يبيعنا حزمة حطب واحدة بآقجتين وكنا نشتريها مضطرين. لكن أوسب كِلْدِزْ لم يقصر معنا، فقد كان يأتي في منتصف كل ليلة بالحطب ويفرغ حمله بين أيدينا وهو يقول ضاحكاً: «أليس لقبي هو كِلْدِز (سارق الكحل)؟ لو شئتم لسرقت الكحل الذي على أهداب أنيسة أيضاً».

وذات يوم قبيل الغروب، دعانا سفرشاه إلى طعام الإفطار في غرفته الكبيرة. كانت بسط اللباد ممددة بجانب الجدران وفي وسط الغرفة فُرشت البسط الأصفهانية المنقوشة بالأزهار والزنابق بينما أسندت إلى الجدران وسائد من الحرير الأخضر محشوة بصوف الغنم أما النوافذ فقد أسدلت عليها ستائر من الديباج الأحمر وقد سكبت بضعة مصابيح في الجدران ضوءاً خافتاً أصفر على وجوهنا. وعلى الجدار الشمالي علقت بعض الخناجر والسيوف. كنت أعرف أن حجرة أنيسة تقع خلف الغرفة التي جلسنا فيها. تخيلت أنني أزيح الستائر وأدخل إليها وأنام معها. جلبة الحاضرين قطعت عليَّ سيل تخيلاتي. حدق الجميع في سفرشاه ساكتين كأن على رؤوسهم الطير. أما أنا فكنت أتوقع أن يحدثنا سفرشاه عن موت كل من الملا ظاهر وياووز. آلبرتو أيضاً فكر مثلي.

زئيرُ عاصفة الثلج في الخارج جعل بحيرة الصمت التي كنا غائصين

Twitter: @ketab_n

فيها جميعاً تتلاطم. كانت العاصفة تلف علينا جميعاً كفناً من الخوف الأبيض بأنامل غاسل موتى ممتهن خبير. بدأ سفرشاه الحديث بنغمة حزينة يحيط بها الخوف وقال: «منذ خمسين عاماً لم أشهد ثلجاً كهذا. هذا ليس ثلجاً. إنه غضب إلهي». سكت برهة ينتظر ردنا ثم واصل الكلام لما رآنا ساكتين: «لقد حوصرنا هنا. ولقد جمعتكم لكي نبحث معاً عن حل. لقد حوصر الخان بالثلج. إنه ثلج يمتد على مد البصر. كذلك فإن الذئاب تحيط بنا من كل جانب. الخروج بات مستحيلاً. كما أنه لا يمكن لأحد أن يأتي لنجدتنا. علينا الآن أن..».

لم يكد سفرشاه ينهي جملته حتى دخل رجل بعمامة كبيرة ومعه ثلاثة أشخاص[1]. سبقتهم في الدخول رائحة نفاذة أظنها كانت رائحة المسك. وما إن دخل الرجل ذو العمامة الكبيرة حتى نادى بصوت مرتفع: «قل جاء الحق وزهق الباطل».

ثم سل سيفه وتابع الكلام: «فليصطف غير المسلمين في الجهة الغربية من الغرفة، والمسلمون في شرقيها». كان قد سدَّ الباب مع رفاقه الثلاثة فقطعوا طريق الهرب علينا. تسمر الجميع في أماكنهم ونظروا إلى سفرشاه. وثب أحمو الكافر إلى وسط الغرفة تحت أحد القناديل وقال بعربية مكسرة مستهزئاً: «أنا لست مسلماً ولست غير مسلم». وبدأ يضحك كالمجانين. سحب أحد الثلاثة من مرافقي

(1) كان اسمه مجاهد الأزدي. لم يعرف أحد كيف ولماذا ومن أين جاء هو ورفاقه إلى الخان! كانت عيناه مكحولتين، لحيته طويلة وصوته جهورياً ويلف على رأسه عمامة من الكتان المصري ينسدل من تحتها ضفيرتان سوداوان على كتفيه العريضتين.

Twitter: @ketab_n

مجاهد سوطاً وضرب أحمو بين عينيه وهو يقول: «لا تقلل الأدب حين تتحدث مع إمامنا». رفع المرافق الذي على جهة اليسار عصاً غليظة وضرب بها أحمو فسقط مغشياً عليه. تمدد أحمو على الأرض مثل جثة فسحبه المرافق الثالث من يده وألقاه خارجاً ثم عاد.

ذهلنا جميعاً وأصابنا رعب شديد. لم نعد نعرف كيف نتصرف. موت ياووز، ذلك الثلج الرهيب وكذلك موت الملا ظاهر ثم هذا البلاء الوافد! هل نحن في حلم؟ من أين أتى هؤلاء فجأة؟ وما هي غايتهم؟ ارتطمت هذه الأسئلة مثل عصافير هاربة من المطر بنوافذ الخيال. ظهر أن رفرفة أجنحة تلك العصافير تناهت إلى مسامع سفرشاه الذي كان مشدوهاً مثلنا، فقام من مكانه وتقدم إليهم ثم سأل: «من أنتم وماذا تريدون؟» رد عليه مجاهد بفظاظة: «نفذوا الأمر الآن ثم تطرح أسئلتك إذا أذنت لك». كانت حدة نظراته ونظرات رفاقه تفصح عما في دواخلهم. بدا أنهم ليسوا قطاع طرق ولا لصوصاً يريدون ذهباً وفضة أو نقوداً. كانوا يسألون عن عقائدنا وأرادوا أن يعرفوا بم يؤمن كل واحد منا. خفتُ بل خفنا جميعاً. ومن ذا الذي لا يخاف من السيوف المسلولة؟ اضطررنا لتنفيذ أوامره وانقسمنا بناء على الدين إلى فريقين: فريق في الشرق وآخر في الغرب، فريق مسلم وآخر غير مسلم، صالح وغير صالح، مؤمن وكافر، وفوقنا سيوف مجردة تنطق باسم الحقيقة المجردة وأمامنا مائدة الإفطار متروكة على بساط أحمر.

Twitter: @ketab_n

كنت متردداً. ترى إلى أي فريق أنضم؟ إن قلت كما قال أحمو لضربوني بالعصا على رأسي أيضاً. ولو انضممت إلى فريق غير المسلمين ربما كان في انتظارنا بلاء عظيم. وماذا سيقول أصحابي عني إن ملت إلى جانب المسلمين؟ ألن يقولوا إن الخوف دفع مارتين للتنكر لدينه؟ إنهم لا يعلمون شيئاً عن حقيقة إسلامي الذي اعتنقته في حلب. هم لا يعلمون أن في جيبي ورقة ممهورة مختومة هي وثيقة اعتناقي الإسلام وفيها أن اسمي هو مراد الدين وهي مذيلة بتوقيع الوالي والقاضي وشيخ الإسلام بالإضافة إلى تواقيع اثني عشر شاهداً. هذه الوثيقة ستكون طوق نجاة لي. وربما كانت سبباً في هلاكي أيضاً. إن انضممت إلى أصحابي الأوروبيين فإنهم سينفذون فيَّ حكم المرتدين: قطع الرأس بعد الاستتابة.

كان عليَّ أن أخرج من دون بلل من السباحة في بحر التردد فلم أجد نفسي إلا وأنا بجانب فريق المسلمين أتوسط أوسب كِلْدِزْ وسلطاني الشاعر فجحظت عيون رفاقي المسيحيين وفغروا أفواههم من الدهشة[1].

كانت الحيرة بادية على فخري السنجاري أيضاً[2] والذي انحاز

(1) كردي أعمش العينين من ماكو يرتدي دائماً قبعة سوداء من شعر الماعز. ينظم القصائد بالفارسية والكردية وله إلمام واسع بالمخطوطات القديمة النادرة. قدم من ماكو ليتوجه إلى القسطنطينية ويلقي على مسامع السلطان قصيدة نظمها في مدحه.

(2) كان فخري تاجر غنم جاء إلى الخان ليشتري قطيع غنم لأحد بيكوات اليزيدية من الرحَّل في منطقة سَرْحَدْ. كان رجلاً ذا قامة طويلة يرتدي ثياباً بيضاء وله شاربان كثان يخفيان فمه المبتسم دائماً. كان أحمو الكافر يزعجه كثيراً ويرسم حوله دائماً خطاً فيبقى لا يغادر

Twitter: @ketab_n

لبرهة قصيرة إلى جانب المسلمين ووقف بحذاء طوبال فقه نوري لكنه سرعان ما عاد واتخذ مكانه مع أفرام السرياني وهو يمسح بهدوء على شاربيه الكثين[1].

لم تمض دقائق حتى انقسم المجلس إلى فريقين. نعم فإن السيوف الثلاثة المسلولة غربلت المجلس وفصلت قمحه من زؤانه. من هو القمح ومن هو الزؤان؟ لا أحد يقول عن عقيدته إنها زؤان. كل واحد يعتبر دينه، عِرْقَه، نبيه ونفسه قمحاً صافياً طاهراً والآخرين وأديانهم وأعراقهم زؤاناً.

استمر رفاقي المسيحيون يحدقون إليَّ بأفواه فاغرة وعيون جاحظة مدهوشة، وحده ويليام الإنجليزي كان يحدق في الخناجر والسيوف المعلقة إلى الحائط.

هدم مجاهد ذو العينين المكحولتين خيام الصمت المنصوبة فوقنا وقال بصوت خشن لفريق غير المسلمين: «ليس أمامكم أنتم الكفار سوى طريقين إما الإسلام وإما قطع الرأس». تقدم فخري السنجاري وقال:

« لا تطلق علينا صفة الكافر. نحن أصحاب دين».

«وما دينك؟».

الحلقة المرسومة بالحجر حتى يأتي أحدهم ويمحو الخط.

(1) كان أفرام شاباً سريانياً من ماردين وكان يترجم لويليام الإنجليزي. السريان والمارونيون وبعض اليهود هم من يمارسون الترجمة في بلاد المشرق وقد استفادوا كثيراً من القوانين العثمانية المتعلقة بالأجانب المقيمين في البلاد العثمانية. حتى إنهم يكادون يُعامَلون كأنهم رعايا أجانب.

Twitter: @ketab_n

« أنا يزيدي».

«من عبدة الشيطان..».

قاطع طوبال فقه نوري كلام مجاهد الذي سماه رفاقه بالإمام وقال: «هناك طريق ثالث وهو الجزية».

مد أحد مرافقي مجاهد رمحه ونكز به خاصرة طوبال فقه نوري قائلاً: «الإمام يتكلم، إنه يعرف أفضل مني ومنك. لا تقلل الأدب».

ثم كثر الجدال حتى دخل فجأة أحمو الكافر ومعه رجل آخر مثل ذئبين[1].

***

إنها الساعة السابعة مساء. لم تعد لديَّ طاقة على الكتابة. سأذهب إلى فراشي باكراً. غداً سيوقظونني مرة أخرى لصلاة الفجر التي تُؤدَّى قبل طلوع الشمس وهي أول صلاة من بين خمس صلوات في اليوم. سأكتب في مخطوط آخر وسأرى أي أسلوب أختار للجزء الأخير. بعد يومين أو ثلاثة سأغادر بدليس. سأغادرها إلى دياربكر مع قافلة الحرير التي وصلت اليوم قادمة من أرضروم.

بدليس. نهاية آذار. 1708

***

(1) الذي دخل مع أحمو وقتها كان يهودياً اسمه دانيال تَرْزي زاده.

Twitter: @ketab_n

استغرق سفرنا من بدليس إلى هذه المدينة التي تسمى الرُّها حوالي شهر. مررنا بخانات كثيرة ومدن نسيت أسماء غالبيتها ولم أكن قد سمعت بها من قبل. ظهرت آثار الربيع في كل مكان، الينابيع والجداول والبسط الملونة من الزهور والورود وأشجار الزعرور بزهورها البيضاء، سفوح الهضاب الخضراء، خرير الأنهار والسواقي وتلك السماء الصافية المليئة بالطيور. كان ما رأيته مشهداً فردوسياً. سرت طوال الطريق وحيداً كما في طريق الهروب من حلب، أتأمل تلك المناظر صامتاً. في المساء كنت أتأمل السماء التي ترصعها آلاف النجوم. تحاشيت الجميع وانشغلت بتصحيح وتنقيح مخطوطاتي، أضفت إليها الهوامش وعدلت فيها. كنت أخلد للصمت ما لم أكن مضطراً للحديث. بات الكلام يؤلم لساني والكلمات تظهر مشوشة لا معنى لها بطريقة مخجلة. حتى الكتابة ضجرت منها وما زلت إلى الآن كذلك لكنني أجد نفسي ملزماً بسرد هذه الوقائع والأحداث التي مرت بي حتى أرتاح من ثقلها.

غداً في الصباح الباكر سنتوجه إلى ميناء الإسكندرون. كنت أرغب في الكتابة عن كل قرية وبلدة ومدينة نمر بها لكن ذلك عمل صعب من جهة، ومن جهة أخرى فقد كتبت في البداية أنني لن أتحدث كثيراً عن الأماكن بقدر ما سأتحدث عن نفسي وآلام روحي ووجعي الباطني.

ها أنا الآن في الرها. وهي المدينة التي يقال إنها موطن أبي الأنبياء إبراهيم، لكنني لا أريد أن أكتب عن سكانها وماذا يبيعون ويشترون

Twitter: @ketab_n

وأية أشجار تنمو هنا ولا عن جبالها وتلالها وسهولها وكذلك عن عدد مساجدها وإلى أي مذهب تتبع كنائسها ولا عن الأقوام المستوطنة فيها واللغات التي تتكلم بها تلك الأقوام.

في دياربكر بقيت يومين في أحد الخانات وتجولت على ضفاف دجلة وحيداً لكنني لم أكتب شيئاً عن تلك المدينة أيضاً.

الآن سأتهيأ للسفر، سأجمع حوائجي حتى لا أترك شيئاً ورائي ساعة المغادرة غداً صباحاً.

الرها. يوم الخميس. الخامس من شهر أيار 1708

***

Twitter: @ketab_n

الساعة السابعة

سُمعت ست رنات متعاقبة من ناقوس الكنيسة تبعها صمت قصير ثم سُمعت الرنة السابعة[1]. ومع الرنة السابعة انتهى طالب اللاهوت

(1) المصلون الذين دخلوا الكنيسة قبل ساعة كانوا كلهم من نزلاء الفندق. أعاد القس موعظته التي كررها مئات المرات سابقاً. نثر عليهم الماء المقدس ثم سأل عن أحوال الرعية وقضى معهم قرابة الساعة. كان كارل وجورج يجلسان على أحد المقاعد الخلفية. كانا قد تصالحا لكن كارل ما كان ليطمئن كثيراً إلى جورج ودب إليه الخوف من السكين فصار ينظر بين الفترة والأخرى خلال موعظة القسيس إلى حزام جورج. وحين خرج المصلون جاء القسيس ووقف عند كارل وجورج وكأن هاتفاً ما أبلغه بأنهما على خصام. قال لهما: «ألا تريان كيف أن الظلام والضباب يتعاونان لكي يمنعا الناس من أن يبصروا أمامهم! ألا تريان كيف أن الظلام يحارب النور منذ الأزل! هكذا هو الشيطان يدخل بين المؤمن وأخيه المؤمن، يدخل بينك وبين الطريق القويم ويمنعك من رؤية الضفة الأخرى لنهر الحقيقة الإلهية. إن كان المرء على وئام مع أخيه المؤمن فهو على وئام مع الرب أيضاً وهذا يمنع إبليس الملعون من الاقتراب. لا تدعا الشيطان يدخل بينكما. أحبا بعضكما يحببكما الرب». وبعد هذه العظة القصيرة غادرهما القسيس وذهب إلى بيته. نظر كارل إلى جسد جورج اللدن وسأله: «أين ذهبت في الساعة الماضية؟» كان جورج جباناً فلم يستطع أن يواجه كارل. كان يخافه. بقي صامتاً ففهم كارل صمته على أنه زعل فبدأ يلاطفه ووعده بأن يفيه كل مستحقاته. ثم منحه بعض النقود مما جعل جورج يهدأ ويسترخي. سقط سكينان على الأرض. فوجئ كارل. حمل السكينين وسأله عنهما. تلعثم جورج. بقي صامتاً لدقيقة ثم تناول السكينين وقال: «رأيتهما على الأرض عند الفندق». ثم نزل الاثنان إلى القبو. مع الساعة السابعة ارتدى الاثنان ثيابهما وصعدا إلى الأعلى وشدّا معاً حبل الناقوس سبع مرات.

Twitter: @ketab_n

من المخطوطة الثانية والتي كانت عبارة عن رسائل مسهبة إلى شخص اسمه هانس وكانت أصغر من المخطوطة الأولى، فوضعها جانباً. استمر الضباب ينسج بساطه الندي ويزداد كثافة فيما ازداد نعاس طالب اللاهوت الذي عدَّل من وضع وسادته ثم نهض ليزيح الستارة قليلاً ونظر إلى الخارج. لم يعد يرى شيئاً من خلال النافذة. أعاد الستارة المخملية الحمراء كما كانت وعاد إلى مكانه. أخرج من حقيبته قليلاً من الخبز والجبن وتفاحة وبدأ يأكل. طار النعاس عن عينيه. نزل بعد برهة قصيرة إلى الحانة. وجدها خالية يلفها الصمت. كان الجميع في الكنيسة لأداء صلاة المساء. بقيت العجوز لوحدها مع قطتها. كانتا غافيتين أمام الموقد الذي بدت نيرانه غافية أيضاً. تناول صراحية على إحدى الطاولات وشرب منها بعض الماء ثم ألقى نظرة على اللوحة التي كان الرسام منكباً على رسمها طوال اليوم. كان الرسام قد صور برج الكنيسة بشكل متقن ولكن من من دون ناقوس.

ملأ طالب اللاهوت لنفسه قدحاً من النبيذ الأحمر وأراد أن يرتاح في الحانة قليلاً لكنه سمع جلبة النزلاء العائدين من الكنيسة فحمل كأسه وصعد إلى الأعلى ليشعل شمعة ثانية عند رأسه ويقرأ في المخطوطة الثالثة ذات الورقات الأقل من ورقات السابقتين:

***

Twitter: @ketab_n

لقد أصبت بالخرس. نعم الخرس. لست أخرس مجازياً بل حقيقي. بل إن ما أصابني هو شللٌ في اللسان أكثر مما يكون خرساً. إن لساني لا يتحرك ولم أعد قادراً على نطق الكلمات. حنجرتي تُصدر بعض الأصوات لا غير. وهي أصوات أعتقد ألا أحد يفهمها. تمكنت منذ أشهر من الهرب من ذلك الخان وشعرت مذاك أن لساني يثقل يوماً بعد يوم. كان الطريق طويلاً من هناك إلى هذا الميناء. في البداية لم أهتم كثيراً بموضوع لساني ثم شعرت أنني أتجه إلى الخرس. والآن أنا أخرس. أنأى بنفسي عن رفاقي الذين يستعدون لمغادرة بلاد الشرق بعد يومين لكي لا يكتشفوا أنني أخرس. سأكتب الآن بقية ما جرى لي في ذلك الخان المسحور. أنا على ثقة من أنني لن أستطيع الإفصاح عما جرى بالكلام. ستكون هذه المخطوطة فمي الذي يروي حكاية ذلك الخان العجيب. سيكون هذا القلم لساني.

وصلت أمس. كانت الدروب التي سلكناها غير مريحة أبداً. لم أشأ أن أمر من حلب مع أنني الآن قريب منها، بيني وبينها مسيرة يومين فقط. وليتني استطعت أن أذهب إليها لأودع تلك الحارات الضيقة، أودع حجارتها، بيت آلبرتو، حارة كوثر، بيت حواء، السوق المسقوفة وظلال المشربيات التي كانت تمتد على أرض الشوارع الضيقة المعتمة، وكذلك نهر قويق الذي يضم بين أمواجه روح كوثر وجسدها. آه ليتني استطعت ذلك.

بدأت أخاف حلب. لا بد أن روح كوثر ترفرف الآن في أجوائها

Twitter: @ketab_n

مثل حمامة بيضاء ولو مررت من هناك فإن تلك الروح ستتحول إلى صقر حاد المخالب ينهش كبدي. لم أتجرأ على الاقتراب من تلك المدينة التي أصبحت شاهداً على حب أليم وروح خاطئة وحياة صاخبة. كانت آثامي التي اقترفتها هناك ستصبح غيلاناً تستقبلني وتأخذ بتلابيبي. لذلك كله اضطررت لتحاشي حلب وسلوك طريق عنتاب وصولاً إلى هذا الميناء. وبوصولي إلى الميناء أصبحت أخرس تماماً.

هاأنذا أدير ظهري لهذه البلاد، لهذا الشرق، ولحياتي العاصفة. أدير ظهري لبلاد المسلمين عائداً إلى بلادي بعد أن فقدت قدرتي على النطق. منكسر الروح، محطم القلب مضطرباً خالي الوفاض أعود إلى مسقط رأسي.

دفعت بتسع سنوات من عمري قرباناً في سبيل البحث عن سراب السعادة. تسع سنوات من السراب، من بريق مخادع لم أكتشف زيفه إلا في النهاية. وأية فائدة في ذلك؟ أن تفهم أمراً ما متأخراً كأنك لم تفهمه.

أعتقد أن ذلك الخان الغائص في الثلج وما مر بنا فيه من أحداث، سبب لي رعباً هائلاً، رعباً تحول إلى كابوس حرمني من النوم. هو رعب يشبه أسداً يتضور جوعاً ويرى ظبية. بل الأسد ليس سوى حيوان وديع وهر أليف ومهرج مقارنة بذلك الرعب الذي سببه لي الخان.

***

Twitter: @ketab_n

ولدت في يوم أحدٍ من شهر حزيران. كان يوماً لم تهدأ فيه أجراس الكنيسة من أجل أن تكون ولادتي يسيرة ولا تتألم أمي كثيراً في مخاضها. لم يكن ذلك اليوم حاراً كما هو الآن. كان يوماً عاصفاً ممطراً. أما اليوم فإن ريحاً رخية تهب من جهة البحر. رائحة الأمواج وملوحة البحر تملأ الأجواء. بضع غيوم بيضاء تزين صدر السماء كأنها إوزات عملاقة. مضت خمسة أشهر بعد نجاتي من براثن الموت الأسود في ذلك الخان. لقد ولدت من جديد. لكنني ما زلت أشعر إلى الآن أن قطيعاً من الذئاب تلاحقني وأن أقدامي غائصة عميقاً في الثلوج. ما زلت أرى الدماء في أحلامي. ما زلت أرى رؤوساً مقطوعة على الأشجار كأنها ثمار تتدلى. لا أصدق أنني سأتنفس هواء قريتي هيرنه مرة أخرى.

سأكتب. سأدون تلك الوقائع الغريبة وطريقة هروبي من الخان. عليَّ أن أنهي هذه المخطوطة الثالثة قبل أن أصل إلى بلادي. عليَّ أن أسرد ما جرى لنا هناك. عليَّ أن أزيح هذا الحجر عن صدري بالكتابة. لكنني لن أستعمل قلم القصب فالريش أفضل. أخف في الحمل وألين في الكتابة وأجمل خطاً. معي الآن عشر ريشات مبرية الرؤوس(1).

(1) حين رأيت أن قلم القصب يؤذيني رميته وحصلت على هذه الأرياش العشر. ريشتان من ريش الإوز الأبيض من مدينة وان التي يشتهر إوزها بريشه القوي. ريشة غراب. ريشتان من ريش صقر أحد أمراء الكرد في بدليس. ريشة طاووس وريشة ديك رومي وريشة بومة. أما الريشتان الأخيرتان فهما لطائرين غير معروفين أهداهما إلي أحد الوراقين في طريق العودة قبل وصولنا إلى عنتاب وزعم أنه اشتراهما من أحد تجار إزمير.
وكل هذه الأرياش هي من الأجنحة اليسرى للطيور المذكورة. أما إذا كان الخطاط =

Twitter: @ketab_n

ميناء الإسكندرون[1]. يوم الاثنين. الثاني عشر من شهر حزيران 1708

***

لحظة دخل أحمو الكافر ودانيال تَرْزي زاده اليهودي قالا إن الذئاب أصبحت قريبة من الخان وربما دخلت علينا وهجمت. خيم خوف عظيم على وجوه كل من كان في الخان وبقينا لا نحير جواباً.

ذئاب في الخارج وهنا داخل الخان ذئاب بشرية. إلى أين نهرب؟ استغل ويليام فرصة قدوم أحمو ودانيال المفاجئ فوثب إلى سيف معلق على الجدار وجاء لينتصب أمام مجاهد ويدعوه للمبارزة.

ذهلنا جميعاً وبقينا صامتين لبرهة قصيرة وكأننا أمام نعش ميت. نظرنا إلى مجاهد لنرى بم يرد. لم يدعنا ننتظر كثيراً بل التفت إلى ويليام وقال له: «فلنتبارز بالسيوف».

كان أحمو ما يزال لدى الباب فدفعه مجاهد وخرج ليتبعه رفاقه.

= أعسر فعليه أن يستعمل ريش الجناح الأيمن. ولا بد من نزع أرياش الكتابة في وقت الربيع. ثم شق رأس الريشة بعد بريه حتى يتشرب الحبر فلا يفيض. ويقول المسلمون إن الله حين خلق القلم نظر إليه فانشق رأس القلم نصفين من المهابة. وفي القرآن سورة باسم سورة القلم أقسم الله فيها بالقلم.

(1) لم أحبب قط هذا الميناء الذي وصلته قبل يومين. أشعر بالرغم من الصيف ببرودة تلف روحي تذكرني بذلك الخان الرهيب. أنا مقبل على السفر صوب الغرب. توشك الدموع أن تنحدر من عيني. أشعر كأن أحداً يعصر قلبي بين يديه.

Twitter: @ketab_n

شكّل خروج مجاهد ورفاقه الثلاثة فرصة ليتهيأ الجميع. حمل كل واحد منا سيفاً أو خنجراً أو طبراً أو بلطة أو رمحاً وخرجنا واحداً تلو الآخر.

لم يكن هناك أحد في الخارج. لم نعلم أين ذهبوا. فجأة وثب أحمو الكافر إلى السيف الذي كان في يد ويليام وخطفه منه وصار يلوح به ويدخل الغرف غرفة غرفة بحثاً عن مجاهد ورفاقه الثلاثة. كان غريباً أن مجاهد دعا ويليام إلى المبارزة ثم اختفى عن الأنظار!

لاحظنا أن أحمو دخل إحدى الغرف ولم يخرج منها. سمعنا فقط صليل السيوف ثم تبع ذلك صراخ رجل بدا كأنه يتم نحرُه. مضت لحظة قصيرة صمتنا فيها وصرنا نتبادل النظرات. عرفنا أن أحداً ما ذُبح في الداخل لكننا لم نعلم من هو. وفجأة فتح باب الغرفة وطار منها رأس في اتجاهنا. تدحرج الرأس المقطوع حتى وصل إلينا. كان الدم ما يزال ينز من الشرايين، يعلوه الزبد ويرتفع منه بخار أبيض.

كان ذلك رأس أحمو. أحمو الذي وثب قبل قليل مثل فهد إلى ويليام وخطف منه السيف ليهاجم مجاهد ورفاقه. في تلك اللحظة، أي حين رأيت رأس أحمو المقطوع يتدحرج أمامنا شعرت كأن شرياناً انقطع تحت لساني. لم يتحرك لساني لمدة ساعة وكأنه خيط إلى سقف فمي.

ارتسمت علامات الرعب والحيرة على وجه ويليام المرهق لكنه سرعان ما مد عنقه وصرخ: «اسمعوا. هذا امتحان من السماء. إن ربنا يريد أن يرينا مقدرتنا ويمتحن إيماننا. فليتقدم كل مؤمن بالمسيح

Twitter: @ketab_n

وليقف بجانبي».

الغربلة مرة أخرى! الفصل بين الناس على أساس أديانهم مرة أخرى! مرة أخرى حرب الحقيقة مع الحقيقة.

بقي إيفان الأسير وآغابيتو في مكانيهما. انضم فيليب الإفرنجي وعبد المسيح الحلبي ومسيحيون آخرون إلى ويليام ثم تبعهم إيفان الأسير وآغابيتو.

توجه بعض النزلاء المسلمين إلى حيث تحصن مجاهد ورفاقه. طوبال فقه نوري ومراد الإيجي وسفرشاه وابنه سليمان وباقي المسلمين أيضاً. ترددت مرة أخرى وبقيت غائصاً في رمل العقائد تهب عليّ عاصفة الحقائق. كنت قبل قليل قد انضممت إلى فريق المسلمين خوفاً من الموت فماذا أفعل الآن؟

من أنا؟ ولماذا أصابتني هذه الحيرة؟ لماذا لا أجرؤ على اتخاذ قرار حاسم؟ أين موقع الحقيقة من الفريقين؟ أأتجه إلى اليمين أم إلى الشمال؟ أزَّت هذه الأسئلة في رأسي. قلت لا. لا لست تابعاً لأي طرف. أنا هو أنا. أنا منتمٍ إلى عقلي وتابع لأفكاري الخاصة. لست من هؤلاء ولا من هؤلاء. أنا لا أتبع إلا حقيقتي الخاصة.

كان أفرام السرياني وفخري اليزيدي أيضاً محتارين. يتقدمان خطوة صوب ويليام ثم يتراجعان. مسح دانيال ترزي زاده جدائله الرفيعة وصمت لبرهة وهو يحدق في الأرض. طلب آلبرتو أن ننضم إلى ويليام لكنني رفضت وقلت له: «تستطيع أن تنضم إليه أما أنا فلا».

Twitter: @ketab_n

وحين رأى أنني لا أنحاز لأي من الفريقين فترت همته أيضاً في الانضمام إلى ويليام. انقسمنا إلى ثلاث فرق. كل فرقة ترقد على بيض حقيقتها. كل فرقة ترى أنها الأم التي ولدت الحقيقة. كل فرقة ترى في نفسها دليلاً إلى السعادة يضع البشر بين يدي الرب وفي حضن حياة أبدية سعيدة.

توجهت فرقتنا، الفرقة التي لم تنضم إلى أي من الفريقين، إلى الغرفة التي كنا أنا وآلبرتو نسكنها. كنا مجموعة مختلطة غير منسجمة مثل قطع غيوم في السماء ذات يوم من شباط. كنا مسيحيين ومسلمين ويهودياً ويزيدياً بالإضافة إلى وثني هندي. صرنا شهوداً على الحقيقة المجنونة في ذلك الخان. رأينا كيف أنهم رموا جثة أحمو للذئاب. قام طوبال فقه نوري وأُوسِبْ كِلْدِزْ أمام أعيننا برمي جثة أحمو من فوق سطح الخان إلى الخارج. شاهدنا من نوافذنا كيف أن قطيعاً من الذئاب الجائعة هجمت على الجثة وصارت تنهشها وتمزقها. رأينا كبد أحمو وكليتيه وقلبه في أفواه تلك الضواري التي ابتعدت بعد أن شبعت.

لمدة يومين بقي الخان هادئاً. انشغل كل فريق بحقيقته كما ينشغل الذئب بفريسته، وصار كل واحد يحد شفرة حقيقته ليذبح اللاحقيقة. لم يكن مجاهد ورفاقه يخرجون من غرفتهم لكن سفرشاه تكفل بإيصال ما يلزمهم من طعام وشراب وحطب.

لم يتوقف الثلج عن الهطول. ارتفع حتى وصل إلى الدرابزينات. أما ريح الشمال التي كانت تهب ليلاً فقد كانت تحول الثلج إلى قطعة

Twitter: @ketab_n

صلبة من الجليد. لم يعد الملا ظاهر يُرى واختفى تحت الثلوج المتراكمة كما أن أحداً لم يعد يسأل عنه تماماً كما لم نسأل أنا وآلبرتو عما آل إليه أمر ياووز. لم نكن قد نسيناه لكن الأحداث الغريبة الشبيهة بالكوابيس والتي مررنا بها ألهتنا عن كل شيء آخر. سددنا النوافذ الصغيرة، والتي لم نكن نرى من خلالها سوى الثلوج، بالوسائد حتى لا تهاجمنا الذئاب منها.

أية ثلوج كانت تلك وأي برد كان ذاك؟ بدأ الكثيرون يسعلون من البرد. كانوا يتناوبون على السعال مثل المغنين الكرد حتى أن حناجرهم كادت تتمزق. انشغل ويليام في هذه الأثناء بخياطة صلبان من القماش الأبيض على ثيابه وثياب جماعته. كان يحرض جماعته ويشجعهم كأنه أمير صليبي متوجه إلى القدس. كان يصرخ حيناً ويهمهم أحياناً أخرى وفي أحيان كثيرة كنا نسمع صليل السيوف يمزق حرير الصمت في ذلك الخان الملعون.

أما نحن، الجماعة التي لم ننحز إلى أي من الجماعتين الأخريين، فقد كنا ندور حول أنفسنا من دون أن نعرف ما الذي سنفعله ولا إلى أين نتجه! خاف بعضنا وأراد أن يلجأ إلى أحد الفريقين. كنا مترددين وبقينا مترددين حتى حلَّت الساعة السابعة من صباح اليوم الثالث على مقتل أحمو. في ذلك الصباح أيقظنا أفرام السرياني وهو يلهث. استيقظنا على صوته المرتجف وصراخه المليء بالخوف. قال أفرام السرياني لاهثاً بصوت متقطع: «مجاهد ورفاقه يريدون قطع يد أوسب كِلْدْزْ».

Twitter: @ketab_n

***

الساعة الآن هي السابعة. أنا على متن سفينة هولندية أحدق في ضوء الشمس الذي يشبه برادة ذهب منثور على منديل من الحرير الأزرق. ما زالت السفينة راسية في ميناء الإسكندرونة. هاهم البحارة يحررونها من البر ويفكون حبالها وينشرون أشرعتها رويداً رويداً. هاهي الأشرعة تنبسط مع هبوب الريح كأنها أجنحة العنقاء[1]. ثمة العشرات من السفن التي توشك على المغادرة وسفن أخرى تصل إلى هذا الميناء. بعض السفن تبدو من بعيد كأنها نوارس فوق تلك الأمواج التي يتكسر فوقها النور.

توشك السفينة المحملة بشتى أنواع البضائع أن تغادر الميناء. أوشك أن أغادر هذا الشرق، هذا المستنقع، هذا الألم، هذا البحث عن الفراغ وسعادة مزيفة، هذا الحلم الطويل والكابوس الثقيل. أنا متوجه إلى وطني. لكن هل يمكن لأي مكان بعد الآن أن يصبح وطناً لروحي التائهة! أيمكن لأي أرض أن تضم مشاعري المختلفة وجنوني! أية مدينة ستفهم خَرَسي؟ أي صديق سيفهم صمتي؟ إنني أدير ظهري

(1) ليست الأشرعة وحدها تنبسط وتنتفخ. بل إن البطون تنتفخ بسبب مرض قاتل غريب في هذا الميناء. سمعت قبل قليل من تاجرين من البندقية كانا يتحدثان عن الميناء وأمراضه. تحدثا عن مرض اسمه زعفران باشا وهو نوع من اليرقان يصيب الأجانب فتنتفخ بطونهم وتصفر جلودهم ثم يعاجلهم الموت. ولقد مات بهذا المرض نائب القنصل الفرنسي. أغلب التجار لا يبيتون في البلدة خوفاً من الأوبئة حتى أنهم ينامون على متن السفن الراسية أو يذهبون للمبيت في بلدة قريبة اسمها بيلان.

Twitter: @ketab_n

لألم لكي يستقبلني ألمٌ آخر. أنا المسافر الذي تلهو به الآلام. أنا الألم. أنا ألم يمشي على رجلين. أنا ألم أخرس.

ميناء الإسكندرونة. الثلاثاء. 29 حزيران 1708

***

Twitter: @ketab_n

الساعة الثامنة

أصبحت الساعة الثامنة مساءً من دون أن يُسمعَ قرعُ ناقوس الكنيسة[1].

أغرقت الجملة الأخيرة التي كتبها مارتين على ظهر السفينة طالبَ اللاهوت في بحر من الهموم فرفع رأسه ونظر إلى جهة الكنيسة فرأى الليل متمازجاً مع الضباب وسمع جلبة في الحانة فشعر بأن الحياة ما تزال تسري في عروق البلدة وأنه ليس على ظهر سفينة في ميناء من موانئ الشرق بل هو في أحد الفنادق في قلعة العقيدة الإلهية الحقة أي أوروبا، ويقرأ مذكرات رجل مجهول. وضع المخطوطة من يده قبل أن تصبح الساعة الثامنة وصار يفكر. كان سعيداً لأن قليلاً من الصفحات بقي لينتهي من قراءة المخطوطة.

(1) بعد أن رنت نواقيس الشهوة بين الخوري كارل وصبي الكنيسة جورج وصعدا إلى الأعلى ليقرعا الناقوس معلنين حلول الساعة السابعة، ذهبا إلى حافة نافذة وتفرجا صامتين حوالي ساعة على الضباب الذي لم ير الاثنان مثيلاً له في كثافته. تذكر كارل صباحات كارلوفيتز حيث كان الضباب يغطي سطح نهر الدانوب. أما جورج فصار يلعب بالسكينين اللذين وضعهما في جيبه وحين سمع كارل الخشخشة نظر إليه بتساؤل وخوف. كانت سكاكين الغضب والانتقام تلمع على ضوء الشموع في عيني جورج. وفجأة وثب جورج على الخوري كارل القصير البدين ورفع أحد السكينين في وجهه.

Twitter: @ketab_n

نوى أن ينتهي من المخطوطة قبل حلول الساعة التاسعة ليخلد إلى النوم بعد ذلك ثم يذهب في الصباح الباكر إلى غايته.

عمَّ كل الأرجاء ظلامٌ منحه الضبابُ رطوبة أو ربما هو الذي منح الضباب حُلكته! لم يعد يسمع صوت الكمان. صارت الرياح تعزف على أوتارالأشجار. الريح نغمة هادئة. هكذا قال طالب اللاهوت لنفسه ورفع كأس النبيذ ليشرب فوجده فارغاً. أراد أن ينزل إلى الحانة ليأتي لنفسه بكأس أخرى ويعود. لكن تلك المخطوطة وتلك الصفحات المتبقية منها والتي فاحت منها رائحة تشبه رائحة إبطي فتاة جميلة جذبته إليها. سمع مواء قطة صاحبة الفندق. خمَّن أنها جائعة. ثم ارتفعت الجلبة وسرعان ما غطت على صوت مواء القطة الجائعة. أصاخ السمع فوجد العجوز يقول لرجل أحمر اللحية: «أنت قتلته». تجهم وجه طالب اللاهوت وتمتم: «هم نفسهم والموضوع نفسه». وأسرع إلى المخطوطة يقرأ بنهم:

***

حسب خطة السفر فإنه يجب على كل سفينة تغادر موانيء الشرق أن تبقى ما يقرب أسبوعاً إلى أسبوعين في جزيرة قبرص. أما سفينتنا فقد صار لها أكثر من أسبوع راسيةً في الميناء. لا أنزل من السفينة إلى البر إلا في حالات قليلة إذ لا أريد أن أخالط الناس بل أريد أن أصغي

Twitter: @ketab_n

إلى ذاتي وأركز على ذكرياتي وأسرد قصصي لأحرر نفسي من آلام قيود الصمت. وهذا اللسان؟ آه كيف سأعالج هذا اللسان الذي أصبح في فمي كقطعة من الرصاص![1]

سأعود مرة أخرى إلى واقعه أوسب كلدز. صحيح أنني أفقد لساني لكن ذاكرتي ما تزال متقدة. ما زالت أناملي تستطيع الإمساك بالقلم لتدون أحداث ذلك الخان العجيب.

قبرص. يوم الأحد الحادي عشر من تموز. 1708

***

كانوا قد أوثقوا يدي أوسب وأوقفوه بجانب دكة في ذلك الصباح[2].

---

(1) التقيت صدفة على ظهر الكنيسة بطبيب إنجليزي اسمه روبرت يناديه الناس السير روبرت. كان قادماً من الهند متجهاً إلى بلاده. شرحت له بالإشارة أن لساني لا يتحرك فأدرك فور معاينته والضغط عليه أنه مشلول. لم أتألم أبداً. فتح فمي مرة أخرى وصار يضغط على لساني بين أصابعه ثم أخرج معجوناً من كيس أتى به من عنبر السفينة ودهن لساني به. كان طعم ذلك المعجون طيباً لكنه لم ينفع في شفائي.

(2) كان أوسب كلدز الذي أصبح مع سلطاني الشاعر من جماعة مجاهد قد أغار في ظلام الليل على غرفة سفرشاه وسرق منه كيس نقود. لمحته أنيسة وأرادت أن تقاسمه كيس النقود لكن أوسب طلب أن ينام معها أولاً. جرته أنيسة خلفها إلى مكان خالٍ وأطفأت نيران شهوته. وحين طالبته بتنفيذ وعده ومقاسمتها المال ضحك أوسب قائلاً: «فلتكن هذه المرة بالدين. سأذهب إلى ميناء طرابزون وأشتري لك الذهب بهذه النقود حالما تذوب الثلوج». عرفت أنيسة الخبيرة أنه يكذب وسيهضم حقها فأبلغت سفرشاه صباح اليوم التالي بالموضوع. ذهب سفرشاه وأبلغ مجاهد بأمر السرقة. روى لنا أفرام السرياني هذه الواقعة.

Twitter: @ketab_n

وضعوا في كل زاوية من سطح الخان رجلاً مسلحاً بسيف وترس.

أصبح الخان سجناً ولم يعد هناك مجال للهرب. فك رجلان كانا يمسكان بأوسب، قيود يديه ثم وضعوا يده اليمنى على لوح خشب يصل حتى صدره. ومع أن أوسب كلدز كان رجلاً ثرثاراً لكنه صمت تماماً في ذلك الصباح الأخرس. أخرسه الخوف فتدلت شفته السفلى كعرف ديك رومي. حمل أحد الرجلين اللذين قادا أوسب إلى ذلك اللوح الخشبي في يده طبراً وصار يديم النظر في معصم يد أوسب المسكين. ترقبنا بوجل كبير في ذلك البرد حتى كاد الرجل منا يسمع طقطقة أسنان جاره. لم تكن طقطقة الأسنان من شدة البرودة بل من ذلك المشهد الأليم حيث أوسب يعلوه طبرٌ وعينه الوحيدة تنادي بالنجدة وقد اصفر وجهه وغرق في الصمت.

بالقرب من ذلك اللوح الخشبي، أوقدتْ نار كان أوسب بنفسه قد سرق حطبها. استمتعنا قليلاً بوهج تلك النار وصرنا نحسد القريبين منها. بعد أن مضت فترة قصيرة توجه مجاهد إلى الفراغ، أغمض عينيه وقال: «عدو الله هذا سرق صاحب الخان. وهذه معصية بيَّن الله حكم مرتكبها في كتابه الكريم: والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما. ونحن هنا نحقق عدالة الله. إننا سنقطع يد هذا العاصي باسم الله وحروفه المقدسة. بسم الله والله أكبر».

اصفر وجه سلطاني الشاعر حتى أصبح كالزعفران. صار يحرك قبعته التي من شعر الماعز ويحدق في معصم أوسب لكنه لم يتفوه

Twitter: @ketab_n

بشيء. أما طوبال فقه نوري فكان ينحني على النار ويزيدها اتقاداً، يرمي فوقها حطبة أو حطبتين ثم ينفخ فيها.

رفع الرجل الذي يحمل الطبر الحاد ، يده عالياً وهوى بها على معصم أوسب بكل ما لديه من قوة. طارت يد أوسب فصرخ بألم. أمسك طوبال فقه نوري بذراع أوسب ووضع مكان القطع في النار[1].

لا أدري كيف وصل سلطاني الشاعر إلى الدكة التي أوقفوا أوسب فوقها وصار ينشد قصيدة طويلة بحماس كبير. لم أعد أتذكر كل كلماته لكنني حصلت على آخر ورقة كانت في يده فرأيت فيها هذه الكلمات[2]:

«*فليصبح حكام الهند وخراسان تراباً أمام بابك*
وليصبح بحر الكرم والجود قطرة من عُبابك
أيها المجاهد في سبيل الله لأنت أمير عظيم بفعالك
فليكن مئة ألف شاعر وديوان قرابين لنعالك
إن غبار حذائك أيها الأمير مرهم للعيون
وأمام دينك كل عبدة الأصنام والصلبان مهزومون».

ثم انحنى أمام مجاهد وقبل حذاءه وصرخ بصوت يلفه الهيجان والسرور والخوف:

(1) لم أفهم بداية لم يفعلون ذلك! فيما بعد عرفت أن ذلك إجراء يهدفون منه إلى قطع النزيف. فالنار تحرق أفواه الشرايين المقطوعة وتسدها.

(2) كان يرمي كل ورقة يقرأ منها لتذروها الريح. أما الورقة الأخيرة فقد تهادت مثل فراشة حتى وقعت أمام قدمي. كان ذلك مشهداً عجيباً! الشعراء الذين رأيتهم كانوا يلقون قصائدهم من الذاكرة أما سلطاني فكان يقرأ من الورق. وحين انتهى من قصيدته حشى مجاهدٌ فمه بثلاث طغراليات أي ما يعادل ألف آقجة.

Twitter: @ketab_n

«أنا خيط في حذائك
موجة من مائك
غبار تثيره خطوتك
يا أميراً عالي الجناب»

***

سقط أوسب مغشياً عليه مثل جثة. حمل أحد مرافقي مجاهد اليد المقطوعة ثم عبس قليلاً ورماها من فوق سطح الخان إلى الخارج. طلب طوبال فقه نوري وسلطاني الشاعر الإذن من مجاهد بسحب أوسب إلى غرفة بجانب غرفة مجاهد ورفاقه. أما نحن، ولأقل أما أنا فقد اصفر وجهي وامتلأت رعباً وأصيب لساني بالشلل.

أي بلاء حلَّ بنا! من أين نسل هؤلاء الذين يدعون أن الحقيقة جمرة هم القابضون عليها؟ ولماذا يريدون حرقنا بتلك الحقيقة؟ وإلى متى سنكون هكذا يتربص أحدنا بالآخر؟

كنا نخاف أن يغيروا علينا ونحن نائمون فيمزقوننا بالسيوف. لم يكن ثمة مجال للهرب. فعلى السطح كان أولئك المدججون بالسيوف والتروس، وفي الخارج حاصرتنا الذئاب والضباع وفي الداخل هؤلاء الذين كتموا على أنفاسنا.

راقب ويليام مثلنا ذلك المشهد صامتاً خائفاً مذهولاً. كان قبل تلك

Twitter: @ketab_n

الحادثة يمدح نفسه كثيراً حتى جمع حوله عدداً من الناس لكن ظهر أن ذلك لم يكن سوى ادعاء أجوف وباطل. هكذا كنت أفكر حين رأيت فجأة ويليام بجانبي ليأخذني أنا وآلبرتو إلى غرفته. أعد خادمه لنا فطوراً فاخراً[1] هو عبارة عن سمن الغنم وجبن الكرد الرحل وقشطة مع دبس العنب. لكن كيف لنا أن ننسى مشهد اليد المقطوعة ذاك؟ من سيشتهي الفطور ذلك الصباح؟[2]

حين انتهينا من تناول الفطور توجه ويليام إلينا، بعد أن ملأ له الخادم غليونه تبغاً وقدمه له، وقال بلطف: «تشاهدون بلا شك ما يفعله هؤلاء! لقد بات الخروج من الخان مستحيلاً والثلوج بلغت سطح الخان أيضاً. لقد سمعت أنهم ينوون إبادتنا أو علينا أن نعتنق ديانتهم. علينا إما أن نطأطئ لهم الرؤوس ونخضع لهم أو أن نقاومهم. سيقتلوننا جميعاً إن لم نقاتلهم. وأرى أنه من الأفضل أن نغير عليهم ليلاً ونقتل مجاهد الحاقد. إنه ثعبان غادر سيلدغنا جميعاً إن لم نقتله».

كان آلبرتو الرقيق يصغي إليه ويفكر. أما أنا فقد كنت أخاف. فكرت أيضاً ودعوت الله أن يلهمنا طريقاً للنجاة من هذا الكابوس. تحدث آلبرتو مطولاً مع ويليام. كان لساني مقيداً لا يقدر على الحركة

---

(1) كان الخادم جورجياً. لم أعد أتذكر اسمه لكن الطعام الذي أعده لنا كان لذيذاً جداً.

(2) لفترة طويلة كنت أحلم برؤوس مقطوعة وأيد وأرجل طائرة. كنت أرى أنني في كهوف مظلمة تطير فوقي أيادٍ ذات أجنحة كالخفافيش ثم تضربني على وجهي. كنت أرى رؤوساً في الهواء كأنها قذائف المدافع وأرى أشجاراً أينعت رؤوساً. أصبحت لياليَّ كوابيس وأرقاً دائماً.

Twitter: @ketab_n

والكلام. حاولت عدة مرات أن أتكلم من دون أن أستطيع.

صرت أبلع ريقي وأحدق في النار المتقدة في زاوية من الغرفة. فجأة نهض آلبرتو وقال: «سأدعو مجاهد إلى النزال. وسنرى من يقتل الآخر».

انفرجت أسارير ويليام ونفث دخاناً كثيفاً من بين غليونه ثم صفق. لم أعرف ماذا أقول لهم! صرت أبحث لنفسي عن طريق للنجاة، لإنقاذ روحي من تلك الدوامة. صرت أبحث عن طريق للابتعاد عن تلك الوحوش التي أرادت أن يبيد بعضها بعضاً. قلت لنفسي عليَّ أن أخرج بأي ثمن. بعد قليل من الوقت فُتِحَ عليَّ واستطعت الحديث فقلت: «ماذا تقول يا آلبرتو؟ أتعني ما تقول؟ وإذا قتلوك؟» رد آلبرتو: «فليقتلوني. هذا الوضع لا يمكن تحمله يا مارتين. إما أن نذعن لهم وإما أن نقاتلهم. لكننا سنفعل كما كان فرسان الحروب الكبيرة يفعلون. سندعوهم للنزال. إما نحن وإما هم. وربما تمكنت من قطع رأس هذا المجنون وتنتهي القصة».

ثم مد يده إلى حنجرته التي لم أسمع منها سوى الأغاني الشجية الحلوة وقال: «ما دامت الأنفاس تمر من هذه الحنجرة وما دام فيَّ صوت فلن أسمح لهؤلاء الذئاب البشرية أن يتحكموا فينا ويفرضوا علينا عقائدهم».

استمرت الثلوج بالتساقط في الخارج. كان ذلك يشبه حديث آلبرتو، شديداً غاضباً وكأن السماء كانت تدعو الأرض إلى المنازلة.

Twitter: @ketab_n

من بعيد تناهى إلينا عواء الذئاب. وقريباً منا سمعنا صوت أنين وصراخ. بدا أنه أوسب الذي وضعوه في غرفة وأغلقوا عليه الباب. أعطى ويليام آلبرتو سيفاً ذا مقبض فضي فتقلده مسرعاً ثم توجه إليّ ضاحكاً وقال بزهو: «بالله عليك يا مارتين ألا أشبه الفارس المشهور لانسيلوت دو لاس؟» ولما رأى أنني لا أجيبه أراد أن يواسيني فقال: «لن يطول الأمر كثيراً. فإما أن أعود إليكم مرفوع الرأس أو أن هذه هي دقائقي الأخيرة معكم. لقد رأينا مرارات كثيرة في هذه الحياة سوية يا مارتين. والمتع التي رأيناها أيضاً سوية ليست بالقليلة. أرجو إن مت أن توصل تفاصيل هذا اليوم إلى حبيبتي في البندقية. عنوانها موجود في علبة الماندولين»[1]

تهدج صوته قليلاً. مد يده إلى عنقه ومسّد على حنجرته ثم واصل كلامه بأسى: «لا آسف على شيء كما آسف على أغنية لم أستطع أن أغنيها لحبيبتي. لقد أعددتها كلمات وألحاناً. لكن هل يمكنني أن أراها مرة أخرى وأصعد معها إلى متن جندول لنتنزه في شوارع البندقية؟».

لم أجب لا أنا ولا ويليام. هز آلبرتو مقبض السيف مرتين ثم خرجنا نحن الثلاثة، ويليام في المقدمة وأنا وآلبرتو المسكين من خلفه.

***

(1) في ميناء الإسكندرونة أعطيت رسالته إلى تاجر بندقي ليوصلها لحبيبته آبيلينا دونا. هو لم يتحدث لي عن حبيبته هذه أبداً. كنت على علم فقط برونااز الأرمنية في أصفهان.

Twitter: @ketab_n

توجه كل واحد إلى غرفته ماعدا الشاعر سلطاني فقد بقي في الخارج متدثراً بعباءة الفرو وصار يجمع ورقاته. كانت بعض الورقات قد طارت وصارت في حوش الخان بينما ارتفع بعضها الآخر في السماء مع الريح الباردة. وما إن لمحنا حتى أسرع فوضع العباءة على رأسه وغادر المكان.

أشفقت على آلبرتو ولم أرد أن يلقي بنفسه في تلك التهلكة فحاولت ثنيه عن قراره وقلت له: «لا تفعل ذلك يا آلبرتو. صدقني إن منازلة ذلك الرجل هي الانتحار بعينه». رمقني ويليام بنظرات حادة أرعبتني وكادت تشلني. لم أعد أستطيع أن أتقدم خطوة أخرى فتسمرت في مكاني. كان آلبرتو يتقلد خنجراً معقوفاً مثل قرن الوعل ويحمل في يده سيفاً لاهورياً. بدأ الدم يفور في عروقه ورويداً رويداً احمر وجهه غضباً وظهر التوتر في عينيه. فاحت رائحة الغضب منه. لم أصدق ما تراه عيناي. كيف يمكن لرجل رقيق مثل آلبرتو، يعزف على الماندولين ويدندن بأغان عذبة شجية وله هذه الحنجرة الذهبية وله روح خفيفة كأنها نسمة من نسمات الفجر، أن يتجه للقتل؟ أكان صديقي آلبرتو يضع قناعاً على وجهه طوال هذه السنوات التي كنا فيها أصدقاء حميمين؟ أم أنه الآن وضع قناعاً قاسياً؟ ما هي حقيقته؟ آلبرتو الرقيق المغني أما آلبرتو المقاتل البطل؟

كنت غائصاً في تلك التساؤلات حين سمعته يصرخ باللاتينية: «تعال ابرز إليَّ». ثم بقي ينتظر الجواب فلم يجبه أحد. حينها صرخ

Twitter: @ketab_n

بالعربية بصوت حاد: «هيا أخرج يا مجاهد. اخرج إن كنت رجلاً».

في تلك اللحظة كان بإمكاني أن أعد حبات العرق على جبين آلبرتو. استغربت ذلك العرق الذي تصبب من جبينه في ذلك الزمهرير! اصفر وجهه وصار يحدق في الثلج بعينين لامعتين. ثم سمعنا صرير الباب في الغرفة التي طار إلينا منها رأس أحمو المقطوع.

خرج مجاهد بجسده الضخم مثل كركدن بصعوبة من الباب فأُلقي الرعب في قلبي لمنظره. كان متجهم الوجه يعتم بعمامة كبيرة من الحرير الهندي الأحمر ويتقلد سيفاً جرده من غمده. تقدم ثم سأل:

«من هذا الذي يحفر قبره في هذا الصباح؟»

«أنا الذي أحفر قبرك» رد آلبرتو.

«من أنت؟ عرفني عن نفسك» سأل مجاهد.

«أنا آلبرتو دي سيلفا من البندقية. أدعوك للنزال».

أجاب آلبرتو ثم برز كل واحد إلى صاحبه. خفت على آلبرتو. كنت أعرف أن الغضب يستطيع سَنَّ سكين الكراهية لكن ما لم أعلمه هو أن القوة تغلب الغضب والحقد والكراهية. كان مجاهد رجلاً ضخم الجثة قوياً تهتز الأرض تحته إذا مشى. أما آلبرتو فقد كان رجلاً رقيقاً نحيلاً لكنه شديد الثقة بنفسه.

تبارز الاثنان بالسيوف فأجبر صليل سيفيهما كلَّ من كان في الخان على الخروج لمشاهدة تلك المبارزة. وقف كل واحد أمام باب حجرته وبدأ التكبير من جهة ورسم الصلبان في الهواء من جهة أخرى. انقسم

Twitter: @ketab_n

النزلاء ولم يكن ثمة مجال للحياد. إن لم تكن مع آلبرتو فيجب أن تكون مع مجاهد. ما كان لينفع تلك اللحظة أن يقول المرء لست لا من هذا الطرف ولا من ذاك. وكم من الصعب أن تصبح مؤيداً لطرف لست مقتنعاً به. كم صعباً ألا تستطيع الوقوف في الوسط.

وسط صليل السيفين وتكبيرات المشجعين وصرخات الاستحسان كنا نسمع عواء الذئاب أيضاً. باتت الذئاب والضباع تحوم حول الخان وكأنها تشم رائحة الموت وتنتظر نتيجة تلك المبارزة. استغرقت المبارزة فترة من الزمن بجانب الدرابزين. هجم آلبرتو على مجاهد مثل وعل بري وألصق ظهره بالدرابزين. هزت الخانَ صرخاتُ الاستحسان منا نحن المسيحيين. انتظرنا أن يسرع آلبرتو بنحر مجاهد فنتخلص من شره لكن مجاهد دفعه بيده وأسقطه أرضاً ثم هجم عليه مثل جمل هائج. ارتفعت أصوات التكبير هذه المرة. راقبنا بهلع ذلك المشهد الذي التقى فيه الخير والشر، النور والظلمة، الرب والشيطان، الأسود والأبيض. خفت أكثر من الجميع حرصاً على آلبرتو صديقي الحميم الطيب منذ سنوات عديدة. كان كاتم أسراري خلال السنوات التسع التي قضيتها في الشرق ولم أجد أفضل منه على الإطلاق. خفت أن يقضي آلبرتو نحبه على يد ذلك الوحش وصار خوفي يكبر مع كل صرخة، مع كل نداء استحسان ومع كل تكبيرة. أي مشهد كان ذلك يا إلهي! رجل يقاوم وهو مطروح على الأرض وآخر واقف فوقه يريد نحره! لماذا؟

Twitter: @ketab_n

لأن أحداً منهما لا يقبل حقيقة الآخر. لأن كل واحد منهما اعتبر نفسه الأقرب إلى الله وإلى الحقيقة. كان كل واحد منهما يريد إنهاء صاحبه. أما نحن المتفرجون فقد كان كل واحد منا ينتظر انتصار حقيقته وعقيدته وقداسة إلهه الذي يؤمن به.

وقُتِل آلبرتو....

كيف؟

ليس مهماً. قتل وكفى.

عيناي تدمعان. الشمس تغرب. الأفق اصطبغ بحمرة تشبه دم آلبرتو الذي سال من حنجرته المقطوعة. نسمات عليلة تهب مع الأمواج وتصعد إلى السفينة لتمسح دموعي. رذاذ الموج المالح يختلط بدمعي. إنني أبكي. لا أستطيع أن أتحدث عن مقتل صديقي. لا أستطيع. لا أريد أن يُقتل مرة أخرى. لا. لا أريد.

مقابل جزيرة كريت. الأربعاء. الأول من شهر آب 1708

***

منذ أسبوعين لم نعد نرى اليابسة. تركنا كريت وصقلية خلفنا. لم نصادف أية عاصفة إلى الآن. لكن قلبي كسير محطم ولست قادراً على الكتابة. لساني ما زال ثقيلاً ولا أقدر سوى على إصدار الأصوات من

Twitter: @ketab_n

الحنجرة. ليست كلماتي وحروفي سوى أصوات مبهمة. السير روبرت الإنجليزي يتعجب من وضعي ويقول إنه لم ير في حياته كلها شيئاً كهذا. كل الأدوية التي استعملها لم تنفع في علاجي.

مقابل جزيرة سردينية. الثلاثاء. 13 آب 1708

Twitter: @ketab_n

الساعة الأخيرة

نال التعب من طالب اللاهوت فصار يتثاءب واستبدت به الرغبة في النوم. كان عليه أن يذهب غداً في الصباح الباكر إلى كولن حيث سيكمل دراسته. لكن حادثة مقتل آلبرتو أفزعت عصافير النوم التي كانت قد حطت في عينيه. نظر في الورقات المتبقية من المخطوطة فرآها قليلة. مسح على وجهه بإحدى يديه كأنه يُطيِّر تلك العصافير وألقى نظرة ملؤها العرفان بالجميل على الشمعة المتقدة. انقطع الصوت في الأرجاء كلها وحتى الريح التي كانت تهز الأشجار في الخارج صارت تهب هادئة وبلا صوت. كانت ريحاً ناعسة توشك على النوم. خاف طالب اللاهوت من ذلك الصمت. أصيبت الطبيعة في تلك اللحظة بالخرس كما كان مارتين في مخطوطاته.

تجاوزت الساعة التاسعة ليلاً. سمع فجأة رنة غير طبيعية من جهة الكنيسة. لم تكن تشبه رنات الناقوس. كان صوتاً مخنوقاً يصدر عن الناقوس الذي بدا كأن هناك من يقوم بذبحه[1].

(1) حين رأى كارل أن جورج يرفع السكين في وجهه ابتعد مسرعاً عن حافة النافذة. حدق في عيني جورج الفتى فرأى فيهما مئات من نواقيس الحقد والكراهية تقرع جميعاً. لم يفهم كارل سبب كل تلك الكراهية والحقد. أهو لأجل حفنة من النقود؟ هكذا خمن =

Twitter: @ketab_n

امتزج الخوف من الصمت بالخوف من الصوت. وكلما يصفر أحدهم بلحن في الظلام لدفع الرهبة، فقد قرر طالب اللاهوت أن يقرأ ما تبقى بصوت مرتفع، وقرأ:

***

منذ يومين غادرت سفينتنا مضيقَ جبل طارق وها نحن نتجه إلى أمستردام[1]. طوال الطريق الممتد من جزيرة سردينية حتى مضيق جبل طارق لم أمد يدي إلى القلم. فترت رغبتي في الكتابة بعد أن دونت واقعة قتل آلبرتو فرميت الريشة والورق. لا أدري ماذا حل بي! كنت

= الأمر فمد يده إلى جيبه ليخرج نقوداً ويعطيها للفتى الذي يهاجمه وطلب منه أن يهدأ. لكن الفتى جورج وثب عليه وحاول ضرب وجهه بالسكين. فهم كارل أن الأمر جد فتحاشى الضربة وحاول الهرب من النافذة. في هذه الأثناء سحب جورج السكين الثانية وصار يهاجم كارل بالسكينين. هاج كارل وثار الدم في عروقه فمد يده إلى الشمعدان النحاسي. خاف جورج حين رأى الشمعدان في يد كارل. لم يكن هناك من يأتي ليفصل بينهما. تجاوزت الساعة التاسعة ليلاً. دخلت أمواج من الضباب إلى بهو الكنيسة بالرغم من أن النوافذ والأبواب كانت مغلقة بإحكام وحجبت الرؤية فلم يعد أحد يرى الآخر. رأى كارل في ذلك الضباب طوق نجاة فتراجع إلى الخلف بسرعة ثم صعد الدرجات إلى برج الكنيسة حتى وصل إلى الناقوس واصطدم به.

(1) قبل حوالي عشر سنوات حين سافرت إلى الشرق مرت سفينتنا من طنجة وتوقفت هناك. وقتها لم أشاهد هذا الجبل المهيب الواقف مثل حارس للأمواج. هذه المرة مرت السفينة بجانبه، كان مكللاً بالضباب وبدا لي مثل شخص مكفهر الوجه غاضب. كان يرمق السفن بنظرات صخرية حتى لكأنه قرصان بربري يطالبها بدفع الضرائب. أما طنجة فلم أشاهدها هذه المرة. كانت أضواؤها تلمع من بعيد على الجهة اليسرى.

Twitter: @ketab_n

أظن أنني سأروِّح عن نفسي بتدوين مشهد القتل لكن ألمي الداخلي ازداد أكثر. شعرت كأنني أتيت بصديقي مرة أخرى إلى الحياة وقتلته على هذه الأوراق كما قتله ذلك الوحش أمام ناظري من دون أن أجرؤ على الكلام.

كنت طوال هذه المدة إما نائماً أو على ظهر السفينة أتنفس الهواء المالح وأراقب الأمواج، أحدق في الآفاق البعيدة والسفن التي كانت تحرث البحر، في النوارس والغيوم البيضاء وأحياناً كنت أراقب العواصف البحرية والأمطار الغزيرة مصغياً إلى زئير الرياح وهدير الأمواج.

أصبح الشرق ورائي. كل ذلك السحر والنور وذلك الألم وتلك السنوات المليئة بالأحداث والصخب صار الآن ورائي. تحول كل ذلك إلى حلم، إلى ماضٍ ووقائع دونتها في هذه الصفحات. ها أنذا أعود ثانية إلى وطني ولكن في أي ثوب! ألا أعود غريباً عن دياري! في الغربة لم أصبح مواطناً منتمياً إلى ذلك التراب، لم نتآلف أنا وتلك الصخور وتلك الشمس فبقيتُ غريباً بروحي، بلغتي وبعاداتي وتقاليدي. ألستُ أعود إلى وطني لأصبح غريباً فيه؟ ألن يقول وطني ما هذا الوقع الغريب على ترابي؟ هل سيتذكر هذا التراب وقع خطواتي؟ بأية لغة سأتحدث إلى تراب وطني؟ بل بأي لسان سأحدثه وقد انتشر الشلل في نصفه؟ اليوم لمسته فوجدته جافاً لا روح فيه.

كان الخرس قد أصابني حتى قبل أن أغادر ميناء الإسكندرونة.

Twitter: @ketab_n

لكن لساني كان يتحرك في فمي وكنت أنطق بعض الحروف بحيث يفهم الآخرون ما أرغب في قوله. أما الآن فإن حركة لساني قد ثقلت كثيراً حتى إنني أشعر وكأن ما في فمي ليس سوى قطعة من الرصاص. لقد صرت كالأفاعي أبتلع طعامي ابتلاعاً ولم أعد قادراً على المضغ.

لم يستطع الطماع روبرت أن يشفيني مع أنه سلبني كل ما عندي من نقود مقابل تطبيبه إياي. كان يدهن قاعدة لساني ورأسه وجانبيه لمدة عشرين يوماً بالأعشاب الصينية والمعاجين ويقول كل يوم: «أنظر لقد تحسنتَ». لكنني كنت أعلم أنه يكذب وأن حالة لساني تزداد سوءاً. أكان عليَّ أن أصدق ذلك المحتال وأكذِّب لساني؟

كان الطبيب روبرت يطمع في نقودي وكلما استعمل علاجاً قال: «لقد كلف إعداد هذا الدواء كثيراً من المال». لقد نهبني ذلك الطبيب وسلبني كل ما معي سوى بعض النقود الفضية التي أخفيتها في جيوبي الداخلية.

والحمد لله أن ذلك اللص المتنكر في ثياب الأطباء نزل عند جبل طارق والتحق بسفينة متجهة إلى لندن.

سواحل إسبانيا الغربية. يوم الأربعاء. 14 أيلول 1708

***

Twitter: @ketab_n

بعد مقتل آلبرتو بعدة ساعات قررت الهرب من دون أن يعلم أحد بنيتي. خفت أن يكون من بينا جواسيس لمجاهد وجماعته. لم يعد أحد يثق بأحد حتى صرنا نشك في ظلالنا.

في ذلك الخان القصي، وسط تلك الثلوج وأولئك الناس الذين أراد كل فريق منهم إبادة الآخر، أصبحت الحياة كأساً من السم ولقمة من النار ونَفَساً من أنفاس الجحيم.

لقد جبُنتُ. أعترف بذلك. كنت جباناً. جباناً تافهاً رعديداً. لم أذهب لنجدة صديقي وبقيت أتفرج على مجاهد وبيده حنجرة آلبرتو تقطر دماً. تلك الحنجرة التي طالما سمعت منها الأحاديث الحلوة والأغاني العذبة الشجية. كانت تلك الحنجرة بين يدي ذلك الوحش صامتة خرساء مثل مقبرة. من تلك الحنجرة، قبل أن تُقطع، أطلق آلبرتو صرخة عظيمة في وجه مجاهد الذي أمسك به وقبض على شعره ثم ضغط بإحدى قدميه على صدره. في تلك اللحظة نظر آلبرتو إليَّ. لم أر الخوف من الموت في تلك النظرات الشجاعة. قرأت فيها دعوة لي إلى الهرب. في ذلك الموقف الصعب دعاني آلبرتو إلى الهرب فصرخ محتداً: «اهرب يا مارتين، هذا ليس..» لم يكمل جملته، ذبحت الكلمات في حنجرته مثل خراف مزقتها الذئاب.

لم أحاول إنقاذه بل وليت هارباً صوب إحدى الغرف وأغلقت علي الباب. ارتفعت الجلبة والصراخ وبدا أن المعركة بدأت. كنت أخاف. كان خوفي أبكم أصم أعمى. دفعت بكل ما وقعت عليه يداي إلى

Twitter: @ketab_n

الباب وحصنته به. صرت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً من دون أن يخف رعبي. ازددت خوفاً، تحول الخوف إلى وحش بدأ ينهشني بالأنياب والمخالب. كان وحش الخوف يلتهمني، يلتهم قلبي، كبدي، دماغي وأحشائي وقبل كل شيء لساني. شُلَّ لساني. شعرت بأن شرياناً انقطع تحته. جَفَّ لساني. صار مثل برية في صيف. أخرسني الخوف. ثم عثرت على بعض النبيذ الأحمر في إناء. سكبته دفعة واحدة في جوفي، فتبلل لساني قليلاً.

تبخر النبيذ على لساني وكأنني نثرت ماءً على صفيحة حامية. تعجبت! هل تحول لساني إلى جمرة في فمي؟ لم ينقطع الصراخ في الخارج. خطف الرعب قلبي فبدأ يدق بعنف. فكرت في طريق للهرب من الخان حين لمحت شخصاً في الغرفة. تجمدت في أرضي. لم يكن في فمي ريق لأبلعه. جحظت عيناي وصرت أحدق في ذلك الشخص الممدد على فراشه. كانت تلك جثة ياووز. ياووز الذي مات منذ عدة أيام ونسينا موته. كان ما يزال مرمياً هناك وكأنه نائم. من أخرج عنقه من الحبل؟ من مدده فوق فراشه؟ تضاعف خوفي. فاحت رائحة الموت في الخارج من سيف مجاهد ورفاقه وهنا يقبع الموت نفسه. جثة وأثر موت مجهول. إلى أين أتجه؟ صوب أي موت؟ أأبقى عند هذه الجثة أم أسلم رقبتي للموت بسيف مجاهد؟

***

Twitter: @ketab_n

التقطت أنفاسي بعد مضي قليل من الوقت. تلاشى خوفي فجأة كأنه قطعة ثلج ألقيت في ماء ساخن. مشيت على أصابع قدمي وتوجهت إلى الباب لأتفرج من خلال شق على ما يجري في الخارج.

كان القتال قد احتدم بين الطرفين وكثر الطعن بالسكاكين والسيوف والخناجر. رأيت سلطاني الشاعر واقفاً متدثراً بعباءته الفرو يتفرج على القتال. رأيت إيفان الأسير وطوبال فقه نوري يتقاتلان. أما الفارس الصنديد آغابيتو فقد كان يخوض قتالاً عنيفاً مع مراد الإيجي. شاهدته وهو يوشك على قتل مراد الإيجي لكن طوبال فقه نوري ترك إيفان الأسير فجأة وهجم من الخلف على آغابيتو وغرز خنجره في ظهره. لم يلتفت آغابيتو. ارتخت يداه وسقط على الأرض مثل عمود. صعد طوبال فقه نوري على جثته وصار يدوس جرحه. رأيت الدم يتدفق مثل ساقية صغيرة من جرح آغابيتو، رأيت الفرح أيضاً يتدفق كأنه ساقية على وجه طوبال فقه نوري.

كنت أرتعد من الخوف، من القهر، من الغضب، ولكن لم أجرؤ على الخروج ونجدة رفاقي. بقيت عيني ملتصقة بذلك الشق الذي على الباب ولم أعد أعرف أي تصرف هو الصحيح: أأبقى أم أخرج؟ إن خرجت تعرضت لاحتمال القتل. ترددت كثيراً بين الخروج من الغرفة أو المكوث فيها. أخيراً قررت البقاء بجانب تلك الجثة إلى أن يحل الظلام ثم الخروج بأي ثمن والهروب من هذه الدوامة.

لم أستطع أن أدير ظهري لما يحدث في الخارج. بقيت أحدق من الشق مراقباً سير القتال. من يقتل من؟ لم يعد ذلك مهماً. المهم أنه كان

Twitter: @ketab_n

هناك بشرٌ يموتون. رأيت كيف ذبحوا عبد المسيح الحلبي. رأيت كيف أنهم رموا القسيس قره بيت على الأرض ونحروه. رأيت كيف أن فيليب الإفرنجي خنق مراد الإيجي بيديه. رأيت أفرام السرياني وهو يمسك برأس سليمان بن سفرشاه ويذبحه بالسكين. رأيت كيف انبثق دم سليمان على وجه أفرام وثيابه. رأيت كيف شقَّ ويليام الإنجليزي صدر واحد من جماعة مجاهد وانتزع قلبه مثل كمأة ليلوكه.

لم أصدق عيني. لم أصدق أذني لكنني ما كنت أستطيع تكذيب قلبي. كان قلبي يقول إن ما يجري هو اختصار لاحتكار الحقيقة. إنها حرب الحقائق والحقائق المضادة.

استمرت تلك المذبحة إلى أن حل الظلام. خفت أن يكتشف أحد مكاني لكني رأيت أنهم مشغولون بالتذابح ولم يعد أحد يعرف هل أنا ضمن القتلى أم ما زلت أعيش؟

هدأ القتال مع قدوم الليل وحلول الصمت. وحدها ريح الشمال والذئاب كانت تعوي. انسحب كل واحد إلى غرفته ولم أعد أسمع حساً ولا حركة. لم أعرف من قضى نحبه ومن جرح ومن بقي على قيد الحياة. كانت الجثث ملقاة في الظلام. وجدت في العتمة والصمت فرصة سانحة للهرب فخرجت من الغرفة التي احتميت بها وتوجهت خائضاً أمواج الليل وأنات الجرحى إلى غرفتي. غرفتي وغرفة آلبرتو البندقي.

بحر الشمال. سواحل هولندا. يوم السبت 24 أيلول 1708

***

Twitter: @ketab_n

بعد ثمانية وثمانين يوماً من مغادرة سفينتنا ميناء الإسكندرونة وصلت إلى ميناء أمستردام. أنا الآن في أمستردام. من نافذة الفندق الذي أنزل فيه أرى برج كنيسة والس كيرك. النوارس تزعق وهي تطير في الأجواء. أصغي إلى صوت أمواج بحر الشمال. صوت رخيم يتهادى من ناقوس الكنيسة يبدد كآبة هذا الطقس المكفهر الرمادي الغائم. طقس يبدو لي غريباً وكأنني لم أعد ابن هذه البلاد.

لقد أصاب الشلل لساني كلياً. هناك بثرة كبيرة في قاعدته تؤلمني جداً.

لم يبق في المخطوط الذي أكتب فيه سوى بضع صفحات. قصتي أيضاً لم يبق لها إلا القليل لتنتهي. سأتحدث عن طريقة هروبي من الخان، من ذلك الموت بين يدي الضباع. إن لم أدون بقية قصتي هنا فسأسردها شفاهاً على مسامع هانس وأهل القرية. بلا شك سيعود إلي النطق إن عدت إلى قريتي وتنسمت هواءها وشربت ماءها. سيزهر لساني بالنطق ولن يكف عن الكلام[1].

أمستردام. الثلاثاء. 25 أيلول 1708

***

(1) سأحاول أن أنهي قصة هروبي هذه الليلة. غداً سيسافر مجموعة من التجار والطلاب الفلامنكيين صوب كولن. سأذهب بصحبتهم. سأتمكن بما تبقى لديّ من نقود أخفيتها عن الطبيب الإنجليزي من الوصول إلى قريتي هيرنه.

Twitter: @ketab_n

حين دخلت غرفتي أشعلت السراج وأخرجت من علبة الماندولين رسالة آلبرتو وعنوان حبيبته. لم يكن خوفي قد زال ولكن رغبتي في البقاء حياً هي وحدها التي صارت تضبط إيقاع حركاتي. أوصدت الباب بإحكام ووضعت كل ما ثقل حمله وراءه وصرت أفكر في طريقة الهرب.

الصمت الذي كان يعم الخان زاد من رهبتي. لم أكن أسمع سوى صوت ريح الشمال وهي تكنس الغيوم. كان الليل قد شارف على منتصفه وخمنت أن الجميع ناموا بعد تلك المعركة الشرسة. كيف لي أن أخرج من الخان؟ إذ لم يكن قد غمرته الثلوج وحسب بل كانت الذئاب والدببة الجائعة تحاصره. أية وجهة عليَّ أن أختارها طريقاً للهرب؟ فكرت. كان الخروج صعباً والبقاء أصعب. كنت أخاف إن خرجت أن يقبض أحد أتباع مجاهد عليَّ فيذبحني ويلقي بجثتي فوق جثة آلبرتو أو يلقيها للذئاب. أما إذا بقيت في الغرفة فليس بمستبعد أن يهتدوا إليَّ ويقتلوني ولو على فراشي. بقيت غير قادر على النوم حتى الفجر. كان الجو بارداً وركبتاي تصطكان وجسدي كله يرتجف مما كان يمنعني من التركيز على إيجاد طريق للهرب.

فجأة جاءتني فكرة كالإلهام وقلت لنفسي: لماذا لا أحدث ثغرة في أرض الغرفة أنزل عبرها إلى الأسفل؟ ربما وجدت هناك طريقاً للنجاة وعلى الأقل أختفي عن أنظار هذه الضباع. لم أتردد كثيراً واتجهت إلى زاوية في الغرفة ورفعت البساط، أشعلت السراج ووضعته بجانبي

Twitter: @ketab_n

وصرت أحفر أرض الغرفة بخنجري. لم أكد أحفر شبراً حتى وصلت إلى عمود خشبي. كان ثمة حُصُرٌ وقصب وعيدان كثيرة موضوعة على الأعمدة التي تسند السقف. بهدوء شديد أحدثت خرقاً في السقف بحيث يمكن لإنسان أن ينفذ منها إلى الأسفل. وضعت رسالة آلبرتو ومخطوطاتي وبعض الحاجيات الأخرى في صرة وألقيتها إلى الأسفل ثم رفعت فتيلة السراج قليلاً ووضعتها على حافة الكوة. زال خوفي نهائياً ولم أعد أفكر إلا في نجاتي. لم أعلم إلى أين أتجه لكنني كنت واثقاً من أن سفينة جرأتي ستأخذني إلى الضفة الأخرى لبحر الحياة.

حين تدليت مثل دلوٍ إلى الأسفل لمحت فرساً مسرجة ممشطة العرف مجدولة الذيل مما ذكرني بالجواد رعد. ظهر جانب من كفل الفرس وظهرها في الضوء المنسرب من أعلى حيث وضعتُ السراجَ على حافة الكوة التي تدليت منها، فبدا جلياً أنها فرس أصيلة. مسحت عنقها بحنان فلم تجفل.

انحنيت على صرتي وحملتها ووقفت قليلاً في مكاني. تسرب الخوف مرة أخرى إلى قلبي. الليلة الليلاء وهذه الفرس الغريبة ذات العينين البراقتين وتلك الأحداث التي وقعت في الأعلى ومصيري المجهول، كل ذلك فتل مغزل الخوف بشدة في رأسي الدائخ.

وفجأة سمعت وقع أقدام. لذت سريعاً إلى إحدى الزوايا المعتمة، كتمت أنفاسي وأصخت السمع جيداً. كان ذلك وقع أقدام بشرية يقترب مني. وقع خطوات ثقيلة بطيئة. بلغت روحي الحلقوم.

Twitter: @ketab_n

شاهدت رجلاً مسناً يرتدي طيلساناً أبيض وثوباً من الأطلس المخطط وعباءة لم أتبين لونها. أتى ذلك الرجل ووقف عند الفرس بهدوء. لفت الضوءُ نظره. لم يكن المرء بحاجة إلى ذكاء كثير حتى يعرف مصدر الضوء. رفع رأسه قليلاً وصار ينظر إلى السراج الموضوع على حافة الكوة.

وما إن رفع رأسه حتى رأيت لحيته البيضاء الكثيفة. خفض رأسه ثانية ومسح بحنان ظهر الفرس ثم قال بالكردية: «لماذا تخاف بهذا القدر؟» ثم خرج.

لم أعرف هل رآني أم لا. ولم أعرف أكان يقصدني بكلامه أم يتحدث مع الفرس أم أنه يقصد آخرين معه؟ لكنني تبعته من دون إرادتي وكأنه أمرني بذلك. شعرت بقوة غير طبيعية في حديثه. جذبني صوته كما يجذب المغناطيس قطعة حديد. كانت صرتي في يدي حين وجدت نفسي وأنا أتبعه في إيوان فسيح يضيء جنباته قنديل كبير معلق إلى السقف. طُليت جدران الإيوان بالجص ورأيت فيها كوى عديدة مليئة بالكتب. وقد توزعت في الإيوان بسط لباد عديدة ووسائد وفي أحد الجدران اشتعلت نيران في موقد أضافت مزيداً من النور إلى الإيوان. حرارة الغرفة ونبرة الحنان في صوت ذلك الرجل أزالا عني بعض الخوف. جلس الرجل على فروة خروف بجانب الموقد ثم أشار إلى مكان على يمينه وقال: «اجلس يا بني».

رددت عليه بالعربية: «شكراً أيها الشيخ. بارك الله فيك». ابتسم

Twitter: @ketab_n

حين رآني أتحدث العربية. ازداد وجهه إشراقاً مع تلك الابتسامة ثم رماني بسؤال كأنه كرة ثلج: «من أين تأتي؟».

«من.....» أجبته ونظرت إلى الأعلى. لا أدري هل فهم قصدي أم لا وهل كان على علم بما جرى من فظائع هناك أم لا، لكنني رأيته يرد بلطف: «أحسنت، أحسنت».

اطمأن قلبي إليه.

«اسمي داوود يَزْدانيار المامزيدي. وذاك هو أخي شيربار» قال الشيخ وأشار بيده إلى شاب كوسج جالس في إحدى الزوايا.

كان ذلك الشاب كوسجاً مثلي منكباً على بضع ورقات يكتب شيئاً ما.

«إنه خطاط. ينسخ الكتب». قال الشيخ فلم يلتفت شيربار ولم يعرنا أي اهتمام[1].

سردت قصتي باختصار لداوود يزدانيار المامزيدي. وفصَّلت له من أنا ولماذا خرجت من بلادي وما الغاية التي سعيت وراءها حتى أتت بي إلى هذا الخان وما الذي جرى لي خلال كل هذه المدة. ضوء ألسنة النار المتقدة التي كانت تتراقص في الموقد أظهر لي وجهه الهادئ

---

(1) حين خرجنا من الخان ووصلنا بايزيد ذهبنا أولاً إلى بيت شيربار المامزيدي. مع وصولنا ولدت امرأته صبياً. ومن عادات الكرد أنهم حين يولد لهم طفل يسمونه على وجه السرعة على اسم اليوم أو الشهر الذي ولد فيه مثل رمضان، جمعة. أو يطلقون عليه اسم ولي من الأولياء. ولأنهم كانوا يقولون لي إنك ضيف عزيز فقد سموا ذلك الصبي باسم عزيز.

Twitter: @ketab_n

الذي ذكرني بوجه هانس.

رويت له من ضمن ما رويت قصة رائحتي الكريهة التي لم يستطع كل صابون حلب إزالتها مني. قلت له كمن يقدم اعترافاته: «كانت تلك رائحة الآثام بلا شك».

حين قلت ذلك زفر زفرة مديدة ثم قال: «لو كانت للخطايا رائحة تفوح، لما جلس أحد إلى أحد».

***

وقال لي داوود يزدانيار المامزيدي: «بما أن الكتب والأديان تقول إن الرب طيب والشيطان شرير فهذا يعني أن الشيطان هو الذي يحكم الأرض».

وقال لي: «يمكن للذهب أن ينسخ الشرائع».

وقال لي: «يجتمع في كل إنسان مجموعة حيوانات. الثعلب، الصقر، الأسد، الفهد، الضبع، الذئب، الهر، الأفعى وحتى الحشرات الزاحفة بين ورق الأشجار وفي شقوق جذوعها وثقوب الجدران. وإن الإنسان ساحة صراع قائم أبداً. صراع ليس بين الرب وإبليس بل بين الحيوانات أليفها ووحشيها».

وقال لي: «إن كثرة الديانات دليل بشريتها»

وقال لي: «الصقر يطير وحيداً أما الغربان التي لا عمل لها سوى

Twitter: @ketab_n

النعيق ونقر الديدان والذرق فإنها تطير في أسراب».

وقال لي: «لا يغرنك كثرة أتباع مذهبٍ ما ولا تجعل ذلك دليلاً على صحة ذلك المذهب. فقطيع من آلاف الأغنام تسير وراء مزمار راعٍ فاشل. قافلة من ألف من الجمال تتبع جرس جمل أجرب».

وقال لي: «الكثرة ليست أبداً دليلاً على الحقيقة».

وقال لي: «الحقيقة خروف يُذبح بسكين من يدعون أنهم حماتُها».

وقال لي: «كيف تعرف أن أحداً ما بعيد عن الحقيقة؟ عندما يدعي أن الحقيقة عنده من دون الجميع».

وقال لي: «بقدر ما عندك من قوة فأنت تملك الحقيقة»

وقال لي: «إن من يحب الله لا يخافه».

وقال لي: «إن من يعرف الله لا يخافه».

وقال لي: «إذا خفت أحداً لا يمكنك أن تحبه».

وقال لي: «كل يدعي أن الحقيقة بجانبه وهذا غير صحيح. الحقيقة المطلقة ليست ملك أحد. حقيقة اليوم هي غيرها غداً. والحقيقة في بلد هي غيرها في بلد آخر. الأفكار التي تحاربها اليوم قد تضحي بنفسك في سبيلها غداً».

وقال لي: «كل امرئ ظالمٌ بطبعه ومن لا يظلم فلأنه يعجز عنه».

وقال لي: «إذا قنعت نحلة بزهرة واحدة فإنها لن تصنع عسلاً».

وقال لي: «الزهرة التي تدعي أنها الوحيدة التي تصنع العسل، لم تعرف العسل بعد».

Twitter: @ketab_n

وقال لي: «كل زهرة تدعي شرف صنع الربيع لوحدها».

وقال لي: «الحرية هي المرتبة العليا للمرء لكن أين هم الأحرار؟».

وقال لي: «الحرية حرية العقل لا حرية الجسد. وربما كنت مقيد اليدين في سجن لكنك أكثر حرية من طليق خارجه».

وقال لي: «لو فكر الحجر لادعى أنه يسقط بإرادته».

وقال لي: «السعادة التي غادرتَ وطنك لأجل البحث عنها، سراب يزيدك السعي وراءه ظمأ على ظمأ».

وقال لي: «إن كانت السعادة في الطعام والنكاح والمنام فإن الثور أكثر المخلوقات سعادة».

وقال لي: «لا دروب توصلك إلى السعادة. السعادة هي الطريق».

وقال لي: «كل دين ونحلة ومذهب يدعي أنه وحده الأقوم وأنه يسعى لإسعاد البشر. وبحجة تحقيق السعادة تتلاطم أمواج الجيوش: دين وأتباعه في هذا الطرف من الميدان، وفي الطرف الآخر دين آخر شحذت كلماتٌ مقدسة سكينَ الكراهية في قلوب أتباعه. يتذابحون باسم السعادة. يبيد بعضهم بعضاً، يثكلون الأمهات، يرملون النساء، ييتمون الأطفال وينهب بعضهم بعضاً. بدعوى تحقيق السعادة حدثت أكبر الكوارث في التاريخ. وصل العثمانيون إلى أبواب فيينا وأخذوا الموت معهم. الأوروبيون جاؤوا حتى بلغوا القدس وأتوا معهم بالبؤساء من بلادهم ودفعوهم في هذه البلاد النائية للموت. جرفت أمواج السعادة المزيفة مئات الألوف من الناس الأبرياء. كل

Twitter: @ketab_n

فريق يدعي أنه يسعى لسعادة البشر. يريدون أن يجعلوا الناس سعداء بالإكراه. إن كنت مسلماً لا يرضى القسيس ويقول: «إن سعادتك مزيفة فتعال واتبع المخلص خالق السعادة الحقيقية يسوع المسيح». أما إن كنت نصرانياً فإن الشيخ يقول لك: «تعال لتنال السعادة، تعال واتبع كلام الله وسنة نبيه فإن أبواب السعادة ستفتح لك». توجد في القرآن آية تقول: «كل حزب بما لديهم فرحون». أجل فكل طرف يرى أن الحقيقة هي في حضنه ويرى نفسه حامي الحقيقة المقدسة. كل جماعة فرحة بحقيقتها وسعيدة بها. كل دين يرى أنه من عند الله وما تبقى من أديان ليست سوى ما وسوست به الشياطين. كل مذهب وكل قوم يدعي أنه من اختاره الله وفضله على العالمين».

وقال لي: «كل امرئ سعيدٌ بمعتقداته كما أن الخنفساء سعيدة بكرة الروث».

وقال لي: «البشر جميعاً زرع بستان واحد وثمار شجرة واحدة».

وقال لي: «كثيراً ما تطرق السعادة باب امرئ فلا يُفتحُ له».

وقال لي: «يمكن أن تكمن السعادة في الحوادث الأكثر إيلاماً».

وقال لي: «إذا شقي إنسان بسعادتك فاعلم أنها ليست بسعادة».

وقال لي: «بعض الناس يعرفون ما هي السعادة ولكنهم ليسوا سعداء».

وقال لي: «الدنيا قِدْر كبير انطفأت النار تحته فتعفن ما فيه».

وقال لي: «هذه البلاد لا تصلح للحياة. عد إلى بلادك. ما الذي

Twitter: @ketab_n

يوجد هنا؟ صراع المذاهب؟ مئات الإمارات التي تمص دماء الناس أكثر من القراد وتجمع الناس في الساحات ليتذابحوا؟ هذه البلاد بلاد مجانين. ما الذي يوجد هنا؟ عباد الذهب؟ التجار من البيكوات والآغوات والأمراء والباشوات وقادة الجند! ارحل من هذه البلاد. ارحل. إن لم يصبح قلبك موطناً لحكمة كبيرة فلن تستقر روحك ولن تنجو. إن استطعت أن تسافر إلى آخر الدنيا فافعل. لأنك كلما ابتعدت عن هذه البلاد فإن الحقيقة سترتمي في حضنك مثل حورية فاتنة. ستعانق الحقيقة».

***

تلك الليلة تكلم الرجل حتى الفجر وكنت أصغي إليه وأدون بعض أقواله. مرات كثيرة كنت أرى في وجهه وجه هانس وفي صوته صوت هانس وحتى الكلمات رأيت أنها تتكرر وكأن هانس هو الذي يلفظها من جديد.

تفوه داوود يزدانيار المامزيدي بحكم رائعة لم أعد أتذكرها كلها. دونها شيربار على ورقاته وليتني فعلت مثله. منحتني كلماته العميقة تلك هدوءاً وطمأنينة افتقدتها روحي منذ زمن بعيد. كلماته الدافئة تلك، أدفأت روحي الباردة المتجمدة وسط ثلوج الشك وصقيع الضياع. لم يتحدث مطلقاً عما وقع في الخان لكن ظهر أنه

Twitter: @ketab_n

يعلم بما جرى لي.

في الصباح الباكر طلب من أخيه شيربار أن يطوي الأوراق التي من دون عليها كلماته ليلة البارحة ثم قدم إليَّ حقيبة من الجلد وقال: «ضع حوائجك في هذه الحقيبة». بعد ذلك ذهب ناحية تلك الفرس التي رأيت بجانبها جواداً آخر، فتبعناه أنا وشيربار صامتين.

هناك رأيت كوة صغيرة ينبعث منها نور تسرب حتى بلغ حوافر الفرس النجيبة. ظهر بعد لمحة أن ذلك النور البهي ليس سوى نور شمس الصباح وقد أشرقت لتوها.

صرت في شك من أمري! ترى هل أن ما جرى أمس كان حلماً أم أنه حقيقة؟ وهل كانت تلك الوقائع العجيبة الأليمة في الخان خيالات وأوهاماً أم أنها كانت أياماً حقيقية من عمري الذي تناثر فوق صخور هذه الغربة؟

كان وجه داوود يزدانيار المامزيدي مشرقاً، ميزت فيه بوضوح أثر الزمن: تلك الوديان والدروب التي سلكتها السنوات في وجهه الوضاء الحنون الهادئ. قرأت في ذلك الوجه الكردي السعيد أجوبة كثيرة على أسئلة طالما أرقتني. أشار إلى الجواد المسرج وطلب مني أن آخذ لجامه وأسير به بينما أخذ هو لجام تلك الفرس ذات الذيل المجدول وخرجنا صوب أحد الأبواب.

حين وصلنا إلى الباب المفتوح على عراء غطته الثلوج، نظر داوود المامزيدي إلى ذلك البياض الممتد وقال: «كل الدروب تؤدي إلى

Twitter: @ketab_n

الفراغ. من فراغٍ تأتي وتذهب إلى فراغ. وما عمر المرء إلا فراغٌ بين فراغين».

وغادرنا الخان.

***

أطبق طالب اللاهوت المخطوطة بعد أن وصل إلى نهايتها. لم يكن يتوقع تلك النهاية. كان يظن أن مارتين سيروي طريقة خروجه من الخان إلى بلدة بايزيد بتفاصيلها ولو بشيء من الاختصار كما وعد. تلهف طالب اللاهوت إلى الوصول إلى نهاية المخطوطة ليعرف كيف خرج مارتين من دوامة ذلك الخان لكنه لم يجد بعد الجملة الأخيرة «وما عمر المرء إلا فراغ بين فراغين» أية كلمة أخرى. لم يكن في المخطوطة الثالثة لمارتين وراء تلك الجملة سوى بضع أوراق بيضاء مثل عراء ثلجي. لم يعد ثمة أي أثر للحبر. كان طالب اللاهوت يأمل أن يعثر في تلك الأوراق ولو على كلمة وحيدة مثل غراب ينقر في الثلج فخاب أمله.

استبدت به الرغبة في معرفة تمام الحكاية فنهض وخرج من غرفته ووقف على باب الغرفة التي بجانبه، تلك الغرفة التي كان يسمع منها أحياناً همهمة غامضة وأحياناً كان يرين عليها الصمت. خَمَّن أن الشخص الذي ينزل في تلك الغرفة هو مارتين. بل كان ذلك يقيناً أكثر

Twitter: @ketab_n

مما كان تخميناً. رغب بشدة في اللقاء بمارتين بأي ثمن، مارتين صاحب تلك القصص الواردة في المخطوطات الثلاث، صاحب تلك الحكاية الطويلة، تلك الانكسارات، ذلك الصعود والهبوط، الهناء والشقاء، والسعي الحثيث وراء السعادة.

رغب طالب اللاهوت في أن يسمع الحقيقة مباشرة من فم مارتين، رغب في أن يرى الحقيقة عارية ويفهم كيف انتهت الحكاية، لذلك قرر أن يطرق باب غرفة جاره ويوقظه إن كان نائماً.

وطرق الباب.

***

استيقظ مارتين. وقبل أن يمسح عينيه مد يده إلى كتاب كان تحت وسادته فاطمأن إلى أنه ما يزال هناك. كان ذلك كتاباً أهداه إياه داوود يزدانيار المامزيدي في الطريق إلى بايزيد. خلال رحلة العودة كلها أهمل مارتين الكتاب وتركه في غلافه من دون أن يفتحه حتى بلغ قريته هيرنه ونزل في الفندق. وحين صعد إلى غرفته ترك مخطوطاته في الأسفل لكنه أخذ معه ذلك الكتاب ليطالعه فغالبه النعاس حتى غلبه فنام بعد أن دس الكتاب تحت الوسادة.

كانت الغرفة معتمة فأشعل مارتين شمعة من تلك الشمعات التي جلبها ليشعلها على قبر أمه ثم توجه إلى باب الغرفة وفتحه. رسم

Twitter: @ketab_n

ضوء الشمعة الخافت ملامح وجه طالب اللاهوت المرهقة. تلاقت نظراتهما. تعجب طالب اللاهوت من ثياب مارتين فصمت قليلاً لكنه سرعان ما سأل مارتين، وكأن له به سابق معرفة، قائلاً: «هلا حكيت لي كيف خرجت من ذلك الخان؟».

عرف مارتين الذي صعقه ذلك السؤال أنه لا يستطيع الكلام. ذكرته كلمة الخان بلسانه المشلول. ولكي يبين لطالب اللاهوت أنه أخرس، فتح فمه وأمسك بلسانه بأصبعين من أصابعه وهزه قليلاً يريد أن يبين أن لسانه لا يسعفه في الحديث. فجأة تقصف لسانه مثل غصن منخور. انقطع لسان مارتين وبقي بين أصبعيه. لم يشعر بألم. مد لسانه في كفه وصار يحدق في طالب اللاهوت.

ذهل الطالب حين رأى لسان مارتين ممدداً في كفه. صعقه الخوف. قفز كمن رأى صِلّاً ثم صرخ صرخة عالية وهرب إلى غرفته وغلّق الباب خلفه.

ضحك مارتين. فهم سبب خوفه لكن لم يعره اهتماماً بل صار يتأمل لسانه. كان يشبه ورقة خريف سقطت عن شجرتها. سقط من دون أن يتألم. رمى مارتين ذلك اللسان تحت الإسكملة ثم توجه إلى فراشه فدس يده تحت الوسادة وسحب الكتاب الذي أهداه إياه داوود المامزيدي. أخرج الكتاب من غلافه المخملي وتأمله. قرأ العنوان المكتوب بحبر ذهبي فلم يصدق عينيه: الإفادة في إكسير السعادة! ضم ذلك الكتاب العابق برائحة الرماد إلى صدره وخلد إلى الصمت.

Twitter: @ketab_n

استجمع طالب اللاهوت -الذي كاد الخوف أن يخطفه- بعضَ شجاعته. بقي راغباً في معرفة بقية القصة ومصير ذلك الكتاب الذي سعى إليه مارتين في تلك البلاد القصية. توجه مرة أخرى إلى الباب وسأل بصوت خفيض: «والكتاب! هل جئت بذلك الكتاب؟».

قال مارتين الذي سقط لسانه قبل قليل مثل ورقة من شجرة: «نعم. لقد أتيت به معي». تكلم مارتين من من دون لسان. خرجت تلك الكلمات ناعمة لطيفة من فمه من من دون حاجة إلى تلك العضلة الحمراء، ثم جاء ووقف قبالة طالب اللاهوت، مد له الكتاب وقال: «ها هو».

كان الغلاف قاسياً قوياً فُصِّل من جلد ثور عجوز حتى ليحسبه المرء صندوقاً.

رفع مارتين الكتاب وفتحه. تساقط الرماد. لم يكن بين الغلافين سوى الرماد. من الغلاف إلى الغلاف لم يكن ثمة سوى رماد ساخن كأن الأوراق احترقت للتو. كان رماداً ناعماً أسود اللون تساقط حتى لم يبق شيء من الكتاب سوى الغلافين في يد مارتين. تضاعف خوف طالب اللاهوت حين رأى ما رآه وقال في نفسه إن مارتين ساحر. رسم صليباً في الهواء على عجل ثم ولى هارباً. ضحك مارتين مرة ثانية. ضحك بصوت مرتفع ونادى وراءه: «إلى أين تهرب؟ كل الدروب تؤدي إلى الفراغ. من فراغ تأتي وتذهب إلى فراغ. إنه الرماد. رماد في كل مكان» ثم نزل إلى الحانة.

Twitter: @ketab_n

كان الظلام قد عم الأرجاء ولم يكن أحد هناك. صارت مدخنة الكنيسة تنثر الرماد بكثافة كبيرة والناقوس يقرع بشكل غير طبيعي وفي غير أوانه[1]. اتخذ ضباب الخارج أيضاً شكل الرماد وطعمه.

سار مارتين بهدوء بين الكراسي والطاولات. لم يسمع وقع أقدامه فقد انبسط الرماد على الأرض مثل سجادة كثيفة الوبر. نظر حوله فلم ير سوى الضباب والظلام. أصاخ السمع فلم يسمع سوى قرع وحشي من الناقوس لا تناغم فيه.

رمى مارتين الغلاف الجلدي وراء ظهره وخرج من الحانة وغاب في أمواج من العتمة والضباب والرماد.

(1) حين اصطدم كارل البدين القصير بالناقوس النحاسي الكبير، أصدر صوتاً مخنوقاً. فهم جورج، صبي الكنيسة اليافع الذي لم يدفع له كارل مستحقاته، أن كارل أصبح فوق سطح الكنيسة عند البرج فلحق به. هناك، في ذلك الضباب والظلام تقاتل العشيقان الخصمان. جعل كل واحد منهما الناقوسَ درعاً يحتمي به ويتقي ضربات خصمه. كان الناقوس يرن مع كل حركة منهما. تلقى الناقوس ضربات من السكين وضربات أخرى من الشمعدان فأصدر أصواتاً منكرة. تقاطر الناس الذين سمعوا ذلك الرنين الغريب إلى الكنيسة، كذلك جاء عدة أشخاص من الفندق القريب من الكنيسة مسرعين خلال الضباب وتجمعوا أسفل برج الناقوس وصاروا يتفرجون على شخصين ظهر أنهما يتقاتلان هناك في الأعلى إلى أن سقط أحدهما على الأرض عند أقدامهم فوق الرماد الذي كان قد غطى كل مكان.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلِّف والمترجم:

روائي ومترجم. مواليد كوباني - سوريا 1965. يقيم منذ عام 2000 في ألمانيا. حصل على جوائز عديدة منها جائزة القصة القصيرة 1993 وجائزة الشعر الكردي 2012، وجائزة الكتاب الشرقي 2013 وجائزة حسين عارف 2014.

من رواياته الكردية:

مزاباد / ديار بكر 2004

ثلاث خطوات ومشنقة / استنبول 2007

ميرنامه / استنبول 2009

مارتين السعيد / استنبول 2012

صدرت له روايتان بالعربية هما:

عشيق المترجم - دبي 2014

دم على المئذنة - القاهرة 2013

من ترجماته:

ميرنامه. كلمة. أبوظبي 2012

رسالة في عادات الأكراد وتقاليدهم. كلمة. أبوظبي 2010

متاهة الجن. كلمة. أبوظبي 2013

مارتين السعيد

تتحدث هذه الرواية عن الشاب الألماني مارتين الذي يغادر مدينته الصغيرة في ولاية شمال الراين شتاء عام 1699 متوجهاً إلى الشرق، بناء على نصيحة صاحب فندق عجوز اسمه هانس عاصر حرب الثلاثين عاماً التي مزقت أوروبا بين عامي 1618 و1648، ودمّرت أسرته فأصبح بسبب ذلك ناقماً على أوروبا وما فيها من مذاهب وأفكار متطرفة تفرّق بين البشر. تبدأ الرواية من اجتماع بين مندوبي الإمبراطورية العثمانية ومندوبي الدول الأوروبية في بلدة كارلوفيتز الصربية، وذلك للتوقيع على الاتفاق التاريخي الشهير (معاهدة كارلوفيتز)، التي أنهت سلسلة حروب مديدة بين أوروبا والعثمانيين وأرست دعائم السلام، مما فتح المجال للرحّالة والمغامرين والتجّار لكي يسافروا إلى بلاد العثمانيين، وهكذا يصل مارتين إلى الشرق بحثاً عن كتاب (الإفادة في إكسير السعادة)، وينزل أولاً في ميناء عكا على الساحل الفلسطيني، ثم ينطلق من هناك إلى دمشق حتى يصل أخيراً إلى حلب ويستقر فيها.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 174790